



نفسه
سورة يوسف
دراسة تحليلية - موضوعية

الدكتور أحمد نوفل



تفسير

سورة يونس

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٧ / ٨ / ٤٢٦٤)

ISBN ٩٧٨ - ٩٩٥٧ - ٦٣٨ - ٢٩ - ٠ (رتمك)

من منشورات

جمعية الخيرية على القمار الكريمة
مكتبة الأردن للدراسات والبحوث



هاتف: ٩٦٢٨٣٣٤ ٦ ٩٦٢ - فاكس: ٩٦٢٨٣٣٦ ٦ ٩٦٢

ص.ب: ٩٢٥٨٩٤ - الرمز البريدي: ١١٩٠

حسابنا لدى البنك الإسلامي الأردني / فرع الحسين (١٧٦٧١)

حسابنا لدى البنك العربي الإسلامي الدولي / فرع الحسين (١٠٢٠٠)

حسابنا لدى بنك الأردن دبي الإسلامي / فرع الشميساني (١٠٥٥٩٧)

عمان - الأردن

www.hoffaz.org

E-mail: hoffaz@hoffaz.org

المطبع المركزية
عمان - الأردن

تفسير سورة يونس

للدكتور أحمد نوفل

جميع الحقوق محفوظة
جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى السيد الأستاذ موسى شحادة

المدير العام للبنك الإسلامي الأردني وربان
سفينته التي تخدم الاقتصاد الأردني، وهو
المتبرع الأول لهذه الجمعية المباركة التي
تتولى طباعة هذا التفسير

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

١- هذا الكتاب المعجز، هذا القرآن العظيم كلام الله الذي لا ينفد عطاؤه بل يظل على مدى الزمان يعطي من المعاني، ويظل يشتبك مع الواقع المتجدد، وكأنه يتنزل عليه للمرة الأولى..

وهو معجز بكل ألوان الإعجاز وليس البياني فحسب.. وإن كان هذا هو أول أوجه إعجازه وأهمها ومنبعها ومصدرها جميعاً.

والمدهش في النص القرآني سره الشديد، كما قال منزله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ فلا تكاد تحتاج إلى قاموس لبيان معنى كلمة، فهي وإن كانت جديدة على القارئ العادي فإن موقعها من سياقها يبينها ويفسرها ويجليها. ومهمة التفسير ليست بيان معنى المفردات، فهي بينة، وإنما بيان كنوز معاني التركيب المعجز.

لكن بيان معنى الجذر اللغوي وتفرعاته اللغوية لا يخلو من إدهاش متجدد لا ينفد على مدى الزمان، فما عليك إلا أن تعمل ذوقك اللغوي والبياني مع إعمال القاموس ليتجدد لك من آفاق اللغة ما يبهرك ويدهشك، فهذا شأن آخر سوى مجرد البيان.

٢- ولأن الكتاب المعجز لا ينفد عطاؤه لذا يجب أن يستمر تفسيره فالتفسير هو البيان والكشف والإسفار عن وجوه معاني النص الكريم والدلالات المستفادة، في ضوء النسق اللغوي للنص، مشتبكاً مع واقع تنزله يوم نزل، ومشتبكاً مع الواقع الإنساني المتجدد إلى يوم القيامة، فلن يأتي على الناس زمان إلا وهم في حاجة إلى

الكشف عن وجوه معاني النص القرآني في واقع حياتهم.. دعوة إلى الله، ومعيشة واقتصاداً وشبكة علاقات، وأزمات عالمية ودولية، وأزمات غذاء وماء ودواء، وقوانين التغيير.. والنفس الإنسانية في تعقيداتها، والبيئة في اختلالاتها بما صنعت يد الإنسان، والسياسة في دهاليزها وظلماتها، كل ذلك يحتاج إلى أن يسلط عليه نور القرآن، فنفهم النص في ضوء الواقع، لا أن نخضعه للواقع، فهذا شيء وهذا شيء آخر مختلف، فالحاجة إلى التفسير مستمرة لا تنقطع ولا تتوقف.

ولذا فإن من زعم أن علم التفسير نضج واحترق كما يقول العلماء عن غيره من العلوم فقد ابتعد عن الحقيقة بعداً شديداً.

٣- ويجب أن يكون التفسير مرآة العصر، لا أقول مرآة البيئة المحلية للمفسر، وإنما مرآة العصر بمعناه العالمي الواسع، فالعالم اليوم بتداخله أصبح قرية كونية، وبوسائل مواصلاته واتصالاته والشبكات التي تربطه، ونقل الأحداث بسرعة حدوثها، أقول إن التفسير ينبغي أن يكون مرآة العصر بأوسع معاني الإنسانية الواحدة وهمومها وأزماتها ومشكلاتها، ولئن سهل العلم الحياة وحل بعض المشكلات فقد نشأت في العصر معضلات ما أشد احتياجها لهدي هذا الكتاب. ولقد قصرنا في عرض ما عندنا من كنوز على العالم لسوء فهمنا من ناحية ولسوء ظننا بما عندنا من ناحية أخرى، ولعدم تطوير أدوات خطابنا، وارتقاها إلى العالمية والإنسانية.. وإذا كان البشر اليوم يمكن أن يستفيدوا من حكم كونفوشيوس، فكيف لا يكون بالأحرى إلى ما لا نهاية أن يستفيدوا من حكم وأحكام الكتاب الحكيم المنزل من الإله الحكيم في ليلة فيها يفرق كل أمر حكيم.. ولذا يجب أن يكون في التفسير - ما أمكن - الإجابة عن أسئلة العصر أو المرحلة.

فما أنزل القرآن إلا لينظم حياة الإنسان في كل عصر ومصر.. حتى ينتهي الزمان ويطوى المكان ويغلق سجل الإنسان.

٤- وقسم من التفسير انطباع وذوق وانعكاس لفكر صاحب التفسير وفهمه وثقافته سعة وضيقاً، وما التفسير إلا مرآة ثقافة العصر ومعارف العصر وعلومه.. ومدى اطلاع المفسر على هذا أو تقصيره، وهذا أمر لا حدود له، ففهم المفسر مسؤوليته وإن وقع في الخطأ فتقصيره، ولا يتحمل النص الكريم من أخطائنا وسوء فهمنا وتقصيرنا، ألا فليكن هذا معلوماً وفي الحسبان، فما التفسير إلا جهد ومحاولة في الفهم تسدد وتقارب قد تخفق وقد توفق.

على أن هذا الذوق ليس منفلتاً على هوى صاحبه، فالقرآن ساعته يصبح فهمه منطلقاً من كل قيد ويصبح ميداناً لتأويل بلا عدد لا يربطها رابط ولا يضبطها ضابط ولا يحددها محددات وهذا لا يقول به عاقل بالطبع.

فضابط اللغة والسياق والنسق العام لهذا الكتاب وقيم هذا الدين والتجربة التطبيقية لأمة هذا الدين بدءاً من أول هذه الأمة سيد الرسل والنبين إلى نهاية التجربة الإنسانية فكل هذه التطبيقات السائرة على منهاج النبوة ضوابط للفهم.. ولو كتب كل يوم تفسير ما كان كثيراً..

شريطة أن يأتيها بمفيد وجديد وإضافة علمية ومعرفية.

٥- مقارنة هذا الكتاب بما سبق من كتب.

طبع لي في التفسير عدد من الكتب ما هو معروف متداول ككتاب سورة يوسف والقصص والإسراء، دراسة تحليلية موضوعية، وطبع لي تفسير الأجزاء الستة الأخيرة من القرآن ككتاب تعليمي، وطبع لي في عُمَان تفسير سورة الأنعام ككتاب تعليمي كذلك، فما وجه المقارنة بين هذا وتلك؟

أقول أولاً: التخفف في هذا الكتاب من كثير من المقدمات، وليس زهداً فيها ولا لقلّة جدواها، وإنما من باب التخفيف على القارئ من ناحية وعلى أمل العود إليها في لاحق الأيام.

وثانياً: في هذا التفسير اعتمدت نهج «من القرآن إلى الأوراق» اكتب ما ينطبع في فكري وفهمي من النص.. وبعد أن انتهيت من هذا ومضى عليه وقت جاوز الستين، أحببت أن أضيف إلى كل آية - أقصد تفسير كل آية - قول مفسر أو اثنين من باب تزين كتابي العاجزة من ناحية وتكميل ما فات وإغناء الكتاب بكنوز ما عند أعلام علمائنا، ولتزويد الكتاب بالمراجع العلمية حتى يكون مرجعاً علمياً.

وثالثاً: حرصت في هذا الكتاب أن أختم تفسير كل آية بما يستفاد من الدروس.. على قدر ما يفتح المولى وليعلم القارئ العزيز أنني لو كتبت ضعف ما كتبت ما وفيت ما أريد ولا ما تستحق كلمات الله من شرح وبيان.

٦- وفي ختام هذه المقدمة أقول للقارئ العزيز: هذا الكثر يجب أن يغوص في بحره الغواصون، كما كان ابن عباس يقول، لاستخراج لآله وجواهره وكنوزه وثرواته.. لنفتي فكراً وثقافة وعلماً ومعرفة ولغة وذوقاً وقيماً وأحكاماً وآداباً وأخلاقاً وتشريعاً وعدلاً.. فما أحوج حياتنا اليوم إلى القيم فحجم التخريب الذي جرى على الشخصية العربية والمسلمة هائل. فالفوضى التي نعيش إن لم نخرج منها إلى الانضباط والعمل والجهد المنظم وشبكة العلاقات الاجتماعية المحكمة والمحكومة بقوانين العدل قوانين السماء وأن يترجم كل هذا إلى واقع حياتي واجتماعي وسلوكي وقيمي وتشريعي، وإلا فإننا سنظل في التردى الاقتصادي والاجتماعي والتشريعي والإداري والسياسي الذي نعيش.

وإن لم يكن القرآن محرك نهضتنا وباعثها وروحها، وحياتها فما عساه يكون؟

وما الذي يمكن أن يصدنا عن هذا الكتاب وبحر عطائه؟ هل جربناه فخابت تجاربنا؟ هل نهجنا نهجه فضلت مشاربنا؟ هل ضاقت بنا النصوص فلم تستوعب مشكلات حياتنا؟ هل يمكن أن نجد في سواه ما هو أجدى مما فيه من جواهر ودرر وكنوز ومعارف تصلح الدنيا والآخرة، وتسعد في الدنيا والآخرة؟

وبعد،

فما أظن أنني قلت شيئاً في هذه المقدمة يفني ويغني، وما قلته وكتبته في هذا التفسير جهد أعلم ما فيه من تقصير ولا يشينني هذا عن الماضي في هذا الطريق من باب أن يدلي كل بدلوه وعطائه عسى أن تغتني حياتنا بالعلم والفكر الذي منطلقه هذا الكتاب المعجز.. فهو خير منطلق وإليه خير المرجع والمآل والمرد.

سائلاً مولاي في ختام ختام هذا التقديم أن يتقبل منا جهدنا، وعلم الله أننا ما قصدنا إلا وجهه الكريم وبيان كنوز كتابه الكريم وأن ندعو الناس إلى هذه الرياض الغناء وأن نجعله نورنا وكشاف دربنا وهادينا ورائدنا وحبل اعتصامنا.. وأمتنا اليوم وهي في هذا الشتات ما أحوجها إلى حبل الاعتصام عن حسن فهم ودقة التزام: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ونعد قراءنا أن هذه السلسلة مستمرة بإذن الله، ويعقب هذا الكتاب بعد شهور قليلة بإذن الله تفسير سورة هود.

والسلام عليكم أيها القراء الأعزاء.

قصص سورة يونس والتناسق بينها

إذا نظرنا إلى اسم السورة الكريمة «يونس» تسارع إلى فكرنا أنها سورة قصصية، فهل هي كذلك؟ وما المعيار؟ هل هو نسبة آيات القصص إلى باقي آيات السورة؟ فلننظر ما الذي تحدثت عنه الآيات من القصص وما نسبته ثم نحكم بوصفها قصصية أم ليست. إلا إذا اعتبرنا أن مجرد وجود أي عدد من الآيات يتحدث عن القصص فهي في احتسابنا سورة قصصية، فالمسألة مسألة اصطلاح، ثم هل نعد أمثال هذه الإشارات، هل نعدّها من القصص؟ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وهل نعد الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ إِلَّا أَمَةٌ وَاحِدَةٌ فَأَخْلَفُوا وَتَوَلَّوْا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الآية ١٩].

وهل نعد الآية الكريمة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية ٤٧].

وهل نعد الآية: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الآية ٤٩].

أرى والمسألة اصطلاح أن كل ما سبق إشارات تصلح أن تكون قصصية لكن لا نعدّها من القصص لأنها جاءت في صيغة عموم أقرب إلى السنن وليست بالتالي تندرج في القصص، وإن كان عدّها كذلك محتملاً، وتبدأ القصص في السورة

الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ...﴾ [من الآية ٧١-٧٣] ثم آية تعقيبية هي الآية ٧٤ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَمَا كَانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم افتتح السياق بالآية ٧٥ قصة موسى ومضى بها السياق إلى الآية ٩٣ أي من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾ إلى آخر الآية ٩٣.

ثم تأتي الإشارة إلى قوم يونس لا إلى يونس نفسه أو قصته، فتقول الآية ٩٨: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

فمجموع الآيات القصصية المتضمنة القصص الثلاث ٢٤ آية وإذا عدنا الإشارات السابقة لم تزد كثيراً إذ ستصبح ٢٨ آية. وهذا نسبته إلى السورة الربع أي ٢٥٪.

فهل هذا يجعلنا نعد سورة قصصية؟ وأقول نعم والمسألة تبقى دائماً في دائرة الاصطلاح.

والآن لنقف عند النسق الذي يجمع القصص الثلاث:

التناسق بين قصص سورة يونس:

أرى أن القصص الثلاث يجمعها النسق التالي، قصة نوح تشير إلى غرق الأرض التي عاش عليها قوم نوح وهلاكهم بهذا الماء الذي كان موجاً كالجبال كما ستشرحه سورة هود.

وأما قصة موسى عليه السلام ففيها التصريح بغرق فرعون بل هي الوحيدة المصرحة بذلك بهذا التفصيل وهذا التوضيح: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ﴾ إلى آخر الثلاث آيات [٩٠-٩٢].

وأما قصة يونس والذي سماه القرآن في سورة الأنبياء باسم ذي النون إذ قال: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ إلى أن قال ﴿فَالْقَمَّةَ الْخَوْثُ﴾ وسماه كما في سورة القلم ﴿كَصَاحِبِ النُّونِ﴾ فهل بعد هذا نحتاج إلى شرح وبيان ليتضح النسق بين قصص السور الكريمة؟ إنه أجلى من أن يجلى وأبين من أن يبين وأوضح من أن يوضح. الغرق هو النسق بين القصص الثلاث.

والنسق والتناسق أحد أهم أوجه الإعجاز في القرآن المعجزة العظمى.

علاقة سورة يونس بسورة هود:

سورة هود هي السورة التالية لسورة يونس في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول كما تقول كتب التفسير وعلوم القرآن والسير.

وفي سورة يونس أجملت قصة نوح في ثلاث آيات وفي سورة هود فصلت كما لم تفصل في سورة أخرى من سور القرآن فقد جاءت في (٢٤) آية من الآية ٢٥: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾ إلى الآية ٤٨ سوى الآية ٤٩ التعقيبية وفيها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُصْطَفَيْنِ﴾.

وأما قصة موسى التي جاءت مفصلة نسبياً في سورة يونس.

فقد جاءت مجملة في سورة هود من الآية (٩٦) إلى الآية (٩٩) والآية (١٠٠) وما بعدها إلى الآية (١٠٣) تعقيب يشملها ويشمل القصص قبلها.

في سورة يونس: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [٢٠]. وفي هود: ﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [١٢٢].

وفي سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [١٩] وفي سورة هود: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١١٨].

فواصل سورة يونس:

حرف النون مسيطر على فواصل سورة يونس عدا بعض الاستثناءات، فالآية الأولى فاصلتها الميم. والآية ٩ كذلك والآية ١٥ والآية ٢٥ والآية ٦٤ و ٦٥ والآية ٧٩ والآية ٨٨ والآية ٩٧. والآية ١٠٧ وما تبقى بعد هذه الآيات العشر فقد جاء على حرف النون وهو ٩٩ آية، فلم تخرج الفاصلة في هذه السورة عن هذين الحرفين وهما بالقطع من الحروف المتكررة كثيراً في الفواصل.

السور التي ذكر فيها يونس عليه السلام

- ١- النساء سورة ٤ آية ١٦٣.
- ٢- الأنعام سورة ٦ آية ٨٦.
- ٣- سورة يونس سورة ١٠ آية ٩٨.
- ٤- الصفات سورة ٣٧ آية ١٣٩. تكلمت عنه السورة في ١٠ آيات وهو رقم سورة يونس.

سور ذكرته بقلبه:

١- ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ سورة الأنبياء سورة ٢١ آية ٨٧.

٢- ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْاُخُوْتِ﴾ سورة القلم سورة ٦٨ آية ٤٨.

سورة الأنبياء ذكرت قبله موسى وهارون، إبراهيم، لوط، نوح، داود، سليمان، أيوب، إسماعيل، إدريس، ذا الكفل، ذا النون، إذا استثنينا موسى وهارون في سورة الأنبياء لأنهما ذكرا منفصلين فيكون عدد الأنبياء الذين ذكرتهم السورة تبعاً ١٠ أنبياء.

آية النساء عدت سوى يونس عشرة أنبياء: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وعيسى وأيوب، وهارون وسليمان وداود ولم نعد الأسباط لأن هذا ليس اسماً.

ملاحظات منهجية:

السورة الأولى التي ذكرت يونس عليه السلام سورة النساء ذكرت سرداً ضمن مجموعة من الأنبياء فلم تعطنا إلا الاسم الكريم ضمن أسماء أنبياء آخرين.. وقلنا

إنها ذكرت سوى يونس عشرة من الأنبياء بدءاً من نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (والأسباط ولم نعدهم لأن هذا جمع كريم وليس اسماً لنبي بعينه...) وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وخصت داود بزيادة كلمتين وختمت به فقالت السورة الكريمة: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

أما سورة الأنعام فقد كان سياق السورة يتحدث عن قصة إبراهيم عليه الصلوات مع قومه وفصلها في عشر آيات وختمها برفعة الدرجات التي أوتيتها إبراهيم فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ شَاءَ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ثم سرد السياق الكريم أسماء مجموعة من الأنبياء، مبتدئاً بمن هم من ذرية إبراهيم ليتناسق مع السياق عاطفاً عليهم سلسلة الأنبياء بدءاً من نوح كما في سورة النساء فقالت السورة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وهنا في سورة الأنعام زاد عل القائمة التي في سورة النساء كلاً من إلياس واليسع ويوسف وزكريا ولوطاً.

والمشترك بين السورتين: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وعيسى وأيوب وداود وسليمان ويونس وهارون، فهم عشرة أنبياء سوى يونس. والملاحظ أن سورة النساء لم تذكر موسى عليه السلام بين القائمة.

أما الموضع الثالث الذي ذكر اسم يونس فهو السورة المسماة باسمه: سورة يونس، وإنما ذكرته مضافاً إلى قومه: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾، فقالت الآية ٩٨ من السورة الكريمة: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْخَزْيِ فِي الْيَوْمِ الدُّنْيَا وَمَنْعَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

أما الموضع الرابع الذي ذكر اسم يونس فهو سورة الصافات وقد ابتدأت على السنن نفسه فذكرت نوحاً ثم عطف عليه إبراهيم ثم ذكرت قصة إسماعيل دون ذكر اسمه، في قصة الذبيح وفدائه بالذبيح العظيم مما يجزم بأن الذبيح إسماعيل بدلالة أن السياق عطف قصة إسحاق ويعقوب بعد الفراغ من قصة الذبيح فقال: ﴿وَشَرَّعْنَاهُ يَشَاقَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبَايَعُ النَّبِيَّ مِنَ الْقَصْبِ عَلَىٰ الذَّبْحِ﴾، فكيف يكون ذبيحاً وهو مبشر به نبياً؟ ولم يذكر إسماعيل بالاسم في زمرة من ذكروا من الرسل الكرام في السورة الكريمة مما يزيد التأكيد على هذا، وما زال كثير منا أو بعضنا يظن الذبيح إسحاق.. وكأننا لا نقرأ القرآن.

وهذا هو النسق الذي سارت عليه سورة الصافات فبعد نوح وإبراهيم والذبيح إسماعيل دون ذكر اسمه عطف السياق بقوله: ﴿وَشَرَّعْنَاهُ يَشَاقَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبَايَعُ النَّبِيَّ مِنَ الْقَصْبِ عَلَىٰ الذَّبْحِ﴾ ثم عطف فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ يُونُسَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ قَبْلُ أَن يُصْرِفُوا فِي أَيَّامِنَا مِمَّا كَانُوا يَصْرِفُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ يُونُسَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ قَبْلُ أَن يُصْرِفُوا فِي أَيَّامِنَا مِمَّا كَانُوا يَصْرِفُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ يُونُسَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ قَبْلُ أَن يُصْرِفُوا فِي أَيَّامِنَا مِمَّا كَانُوا يَصْرِفُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ يُونُسَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ قَبْلُ أَن يُصْرِفُوا فِي أَيَّامِنَا مِمَّا كَانُوا يَصْرِفُونَ﴾.

وكان يونس ختام المسك في قصص الأنبياء في سورة الصافات، وكان ختام قصته بهذه الكلمات: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ فَتَمَنَّوْا فَتَمَنَّوْا إِلَىٰ حِينٍ وهو ختام من عشر كلمات.

والملاحظ أن المجموعة الكريمة من الأنبياء جاءت مشتركة في السياقات المختلفة، قد يزيد بعضاً هنا ويحذف بعضاً هناك لكن الجمهرة الأساسية مشتركة في كل المواضع.

أما سورة الأنبياء التي ذكرته عليه السلام باسم «ذا النون» فقد جاء على النسق ذاته، الذي رأيناه في استعراض السور الكريمة فيما سبق، فبعد أن ذكرت سورة الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام، عطف عليهما قصة إبراهيم فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ...﴾ وفصلت قصته في عشرين آية ثم قالت:

﴿وَجَعَلْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ ثم عادت إلى ذكر قصة لوط: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم عطف قصة نوح فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ ثم ذكرت ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ وفصلت قصتهما في خمس آيات ثم قصة ﴿وَأَيُّوبَ﴾ في آيتين، ثم سردت ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ ثم ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ وذكرت مجمل قصته في آيتين ثم ذكرت زكريا ويحيى وختمت بمريم وابنها عيسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وختمت قصة يونس بثلاث آيات في خواتيم سورة القلم وهي من أوائل الوحي فقالت توجه الرسول عليه الصلوات: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿١٨﴾ نُوَلِّا أَن تَذَكَّرَهُ يَوْمَ ۚ مِن رَّبِّهِ ءَلَيْدٌ يَّالْعَلَّوْهُ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿١٩﴾ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِن الصَّالِحِينَ﴾.

ملاحظات على أرقام السور:

١- سبق سورة يونس سورة النساء رقمها ٤ والأنعام رقمها ٦ ومجموع أرقامهما ١٠ وهو رقم سورة يونس.

٢- مجموع أرقام آية سورة النساء = ١٠.

ومجموع أعداد رقم سورة الصافات = ١٠.

٣- آية النساء عدت سوى يونس ١٠ أسماء أنبياء.
أما الأسباط فليسوا اسماً.

سور ذكرت يونس بقلبه:

مرة «ذا النون» ومرة «صاحب الحوت»:

١- سورة الأنبياء ذكرته بقلبه فقالت:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾

وقد ذكرت السورة (١٠) أنبياء بصورة متصلة وذكرت قبلهم موسى وهارون منفصلين.

وكان اسم النبي «ذا النون» هو رقم ١٠.

«وذا النون إذ» عشرة حروف.

٢- سورة القلم: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى.....﴾

وكلمتي «كصاحب الحوت» ١٠ حروف.

والآية الثانية من قصته في سورة القلم ١٠ كلمات.

وأما ترتيبها بين سور المصحف فهي السورة العاشرة.

الآية ١:

﴿الرَّيْلَكَ آيْتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾

الربط والمناسبة: بعد سورتين مدنيتين هما الأنفال والتوبة وموضوعهما الجهاد في سبيل الله، تأتي هذه السورة مقدمة لكوكة من السور المكية موضوعها العقيدة والدعوة إلى الله، هذا على العموم، أما التناسب بين آخر سورة التوبة وأول سورة يونس فيمكن أن نجمله فيما يلي: جاء في خواتيم سورة التوبة قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وفي أول سورة يونس: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وفي ختام التوبة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وأول يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

وفي آخر التوبة: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ وأول يونس: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وفي ختام التوبة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وأول يونس: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾.

وفي آخر التوبة: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وأول يونس: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وفي آخر التوبة: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وفي أول يونس: ﴿لَا يَنبَغِي لِقَوْمٍ يُسْقُوتُ﴾.

وهذه الآية ٥ كلمات و ٢١ حرفاً وترتيبها المصحفي ١٣٦٥.

المعنى: أكرر: السور المفتحة بهذه الصورة الثلاثية الحروف والمختمة بالراء خمس هي: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، والحجر. وتكملها ستة سور سورة الرعد «المر».

والحروف المقطعة إشارة إلى التحدي والإعجاز أن يا عرب يا أهل اللغة واللسان والفصاحة والبيان، ها أن منزل القرآن قد أنزل من هذه الحروف والكلمات قرأناً معجزاً فارووني ماذا أنتم قائلون.

وكل حرف أو حروف في أول سورة منسجمة قطعاً مع مضمون وموضوع السورة. فسورة ق لا تحل محل سورة ص، وحاشا طبعاً.

مع أن هذه ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ﴾ وتلك ﴿قَّ وَالْقُرْآنِ﴾، لكن سورة ق موضوعها القيامة وسورة ص موضوعها القصص وبالذات قيمة الصبر وفيها الخصومة فلا يناسبها إلا ص وتلك لا يناسبها إلا ق.

وأما ذوات أكر فأرى أن تركيز موضوعها يدور على الربوبية والرسالة وذوات آلم، موضوعها المنشأ والمعاد أو قل أحد أهم محاورها.

هذا ما أراه، والعلم عند الله، الذي أنزل هذه الحروف وافتتح بها بعض سور هذا القرآن.

تلك: اسم إشارة ولام البعد وكاف الخطاب - ولام البعد لبعد المنزلة ورفع المكانة لا لبعد المنزل.

آيات: جمع آية. والآية هي الوحدة البنائية، إن جاز التعبير، في هذا الكتاب المعجز. والسورة هي مجموعة من الآيات قد تطول حتى تبلغ ٢٨٦ كسورة البقرة وقد تقصر إلى ثلاث آيات من عشر كلمات كسورة الكوثر. وكلها تدل على أن هذا القرآن كلام الله. فالآية في اللغة معناها العلامة الدالة، والآية في القرآن كذلك علامة دالة على أن القرآن كلام الله، والكون آيات فالشمس آية والقمر آية وهذه الآيات تدل على الصانع سبحانه.. ومعجزات الأنبياء آيات تدل على أنهم رسل الله. وأعظم المعجزات جميعاً هذا القرآن العظيم.

الكتاب: الكتاب هو القرآن قطعاً، وأل التعريف للعهد أي الذي تعرفونه، وهو هذا القرآن. وال التعريف تفيد أنه لا يستحق اسم «الكتاب» إلا هذا الكتاب، وكأنها متضمنة معنى القصر والكتاب من الجذر كتب، ومعنى الجذر كتب ضم شيء إلى شيء، والكتابة ضم حرف إلى حرف فتكون الكلمة، وضم كلمة إلى كلمة فتكون الآية، وضم آية إلى آية لتكون السورة، وسورة إلى سورة فكان هذا القرآن. والكتيبة مجموعة من الجنود ضموا إلى بعضهم، والحياسة والخيطة كتابة، لأن الحائك يضم غرزة إلى غرزة فيكون القماش ثوباً أو لباساً.

الحكيم: الجذر حكم معناه المنع والحكمة تمنع صاحبها من الشطط والتصرف الغلط، والحكيم الذي لا يتطرق إليه الخلل أو النقص أو الملاحظة.

ومن الحكمة وضع الشيء في موضعه، وقد لاحظت أن وصف الكتاب بالمبين يكون في مقدمة السور القصصية.. كيوسف والقصص والشعراء.. إلخ. والحكيم في سور العقيدة ولا فصل قطعاً، لكنها ملاحظة.

وهذا الكتاب حكيم نزل من عند إله حكيم في ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم على رسول حكيم ليعلم أمته الكتاب والحكمة.. فتأمل. يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال: «الحكيم الذي ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في صفحة الكون في السماء والأرض وفي الشمس والقمر وفي الليل والنهار وفي مصارع القرون الأولى وفي قصص الرسل فيهم وفي دلائل القدرة الكامنة والظاهرة في هذا الوجود».

قال الزمخشري: أُلر تعديد للحروف على طريق التحدي.

تلك آيات الكتاب: إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات.

الكتاب: السورة. (لا نسلم للزمخشري هذا).

الحكيم: ذو الحكمة لاشتماله عليها ونطقه بها. أ. هـ^(١).

قال صاحب الظلال، واقتبسته من تعريفه بالسورة الكريمة: «تحتشد السورة بمشاهد هذا الكون وظواهره، الموحية للفطرة البشرية بحقيقة الألوهية، الدالة على التدبير الحكيم... وقضية الألوهية يعرضها القرآن في هذه الصورة الحية الواقعية الموحية، ولا يعرضها في أسلوب الجدل الفلسفي والمنطق الذهني، والله خالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان يعلم - سبحانه - أن بين فطرة هذا الإنسان ومشاهد هذا الكون وأسراره لغة مفهومة! وتجاوزاً أعمق من منطق الذهن البارد الجاف، وأن هذه الفطرة يكفي أن توجه إلى مشاهد هذا الكون وأسراره، وأن تستجاش لتستيقظ فيها أجهزة الاستقبال والتلقي، وأنها عندئذ تهتز وتتفتح وتتلقى...»^(٢).

قال الطبري: «تلك آيات الكتاب المحكم، الذي أحكمه الله وبينه لعباده، كما قال جل ثناؤه: ﴿الرَّكَتَبُ أَهْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾»^(٣).

من دروس الآية ١:

- ١- الحروف المقطعة رمز للتحدي والإعجاز.
- ٢- الحروف فواتح تفتح بها السور ولم تعهدا العرب من قبل.
- ٣- من أوجه الإعجاز في الحروف تناسقها مع موضوع سورتها.
- ٤- في الحروف إعجاز رقمي عددي يحتاج إلى طول بيان وليس محله هنا.
- ٥- الآيات علامات دالات على أن منزل الآيات الله.
- ٦- الحكمة سمة هذا الكتاب وأمة هذا الكتاب.

(١) ج ٢ ص ٢٢٤.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٧٤٩.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج ١٥، ص ١٢.

٧- سورة يونس موضوعها العقيدة مثل اختها سورة الأنعام، وسائر القرآن

المكي

الآية ٢:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ

قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُومِيُّ ﴾ (٢)

الربط والمناسبة: قلت إن سور «آلر» محورها موضوع الربوبية والرسالة، وهذه

الآية تؤكد ذلك.

بعد أن تكلمت الآية الأولى عن الكتاب الحكيم المنزل من عند رب حكيم سبحانه، تتحدث هذه الآية الثانية عن موضوع الرسالة والرسول. فهل عجب أن يوحى الرب الجليل إلى رجل منهم أي من الناس، لينذرهم ويبشرهم؟ بل العجب ألا يكون ذلك!

وهذه الآية ٢٦ كلمة و ٩٨ حرفاً وترتيبها ١٣٦٦.

المعنى: «كان للناس عجباً: كان مسبوقة بهمزة الاستفهام واللام في للناس

متعلقة بعجباً وهو خبر كان أما اسمها فمؤخر هو المصدر «أن أوحينا»، وقدم للناس لأنهم محور الاستغراب.

وعجباً أي مثار تعجب واستهجان واستغراب واستفسار. ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ

مِنْهُمْ﴾: أن مصدرية، والمصدر المنسبك بعارة علمائنا اللغويين والتفسيريين،

المنسبك منها وما يليها والذي تأويله: «وحينا» أو إيحائنا هو اسم كان في محل رفع،

وأخر ليكون التركيز على المستغربين لا على المستغرب منه. والسائلين قبل المسؤول عنه.. وترتيب القرآن وتقديم ما قدم وتأخير ما أخر أحد أوجه إعجازه وإدهاشه.

أن أوحينا: أي أرسلنا وأنزلنا الوحي على رجل من بينهم. وهل سفير القوم إلا منهم؟ وهل معلم الناس إلا منهم؟ وهل الأكرم والأولى والأوفى أن يكون المعلم من جنس المتعلمين أم من غير جنسهم؟ فما مصدر العجب؟ وهل لو كان الرسول ملكاً من الملائكة كتمت أسرعه استجابة؟ أليس كتمت تقولون: كيف نتخذ الملاك أسوة وقدوة وهو لا ينطوي على ضعفنا ولا على احتياجنا ولا يعرف مشاعرنا..

وإن كان الاعتراض على مبدأ الرسالة فهو أوهى من الاعتراض على جنس الرسول ونوعه. إذ مما تقرر في العقول أنه لا بد من رسول ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ولأنه ما كان الله ليكلم كل فرد بعينه. وإذا كان أقل ملوك الأرض لا يباشر تكليم المواطنين بنفسه، أفتريد أن يكلم الله ويكلف كل مخلوق بذاته العلية سبحانه؟ ثم إن إله الكون يفعل ما يريد وينزل الوحي على من يشاء ويقدر الطريقة التي يبلغ بها البشر أوامره وزواجره، وليس لأحد حق الاعتراض على الحكيم المطلق سبحانه؟ لأن الاعتراض يقتضي أن عند المعارض ما هو أحكم من المعارض عليه، وحاشا.

فانتهى وجه الاعتراض، أما لماذا يكون رجلاً وليس امرأة؟ فهذا كذلك هين قريب الجواب.

لأن الرجل أقدر قطعاً على حمل التبعات فالرسول معرض للنفي والتهجير والقتل أحياناً والسخرية في كل الأحيان فمن أقدر على تحمل هذه المشاق؟ لم المكابرة؟

أن أنذر الناس: هذا مضمون ما أرسل به الرسول، وفحوى الرسالة التي جاء بها: إنذار الناس، وأطلقها القرآن عامة «أنذر» ولم يحدد ما المنذر به. وعامة أيضاً في «الناس» فالمقصود كل الناس بدءاً من الأدنى فالأبعد... إلى الناس جميعاً^(١).

لأن الله أرسل رسوله الخاتم لكل الناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨] ولاحظ أنه قدم النذارة على البشارة في يونس وقدم البشارة على النذارة في سبا.. لاقتضاء السياق.

ويشر الذين آمنوا: آخر التبشير لما قلنا، ولكنه، خصه في الذين آمنوا فهم محل البشارة لا مطلق الناس. فالبشرى لمن نجح في الامتحان لا لكل الطلاب. والمؤمن نجح في الاختبار وحدد هنا ما فحوى البشرى:

أن لهم قدم صدق عند ربهم: وحدد موضوع البشرى بـ«أن لهم قدم صدق» لأنهم هم صدّقوا الرسول الذي جاء بالصدق فكان الجزاء من جنس العمل: أن لهم قدم صدق.. لثبات أقدامهم بتصديق النبي.

عند ربهم: أي بجوار مولا هم الذي يتعهدهم ويربيهم ويكفلهم.

قال الكافرون إن هذا لساحر مبين: عاد آخر الآية إلى ما كان في أولها، وهو تعجب الناس فخص الآن من الناس كافرينهم وبين وجه تعجبهم أنهم اتهموا من أتى بخبر السماء أنه ساحر واضح السحر بيّنه.. ولم يأت بيّنه. وكان من عادة البشر في الأعصر السابقة أنهم يفسرون كل ما لا يعرفون وجهه بالسحر، وما زال كثير من الناس في بيئات التخلف يفسرون ما يجهلون من مرض أو فشل أو شقاق

(١) يقول الشيخ محمد طه الدرة: عمم سبحانه الإنذار لجميع الناس لأنه قلّ أن يوجد فيهم من لا يستحق الإنذار والتخويف، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ لا يستحق الكافرون أن يبشروا بخير.

بالسحر.. وكأن لا نزل فيهم كتاب ولا أرسل فيهم رسول يعلمهم أن الحياة سائرة على سنن وقوانين وأسباب. وأن السحر ليس من سنن الكون التي تسير الحياة!

وقد استخدموا من المؤكدات: إن التي هي أقوى أدوات التوكيد، وضموا إليها اللام المزحلقة الداخلة على خبر إن، ثم وصفوا الساحر بالمبين، واستخدموا اسم الإشارة للقريب والتحديد «هذا» وقدموه. فالتقت أربع مؤكدات.

قال الزمخشري: أكان: الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه.

أن أوحينا: اسم كان، وعجباً خبرها، ثم تكلم الزمخشري في معنى اللام في للناس فقال: فإن قلت: فما معنى اللام، وما الفرق بينه وبين قولك عند الناس عجباً؟ قلت: معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم وليس في عند هذا المعنى، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر وأن يكون رجلاً من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيماً أبي طالب؟ وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب لأن الرسل المبعوثين للأمم لم يكونوا إلا بشراً مثلهم. وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً، لأن الله تعالى إنما يختار من استحق أسباب الاختيار، لجمعه أسباب الاستقلال لما اختير له من النبوة، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء، والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجباً، إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء. ﴿أَنَّا نَذِيرُ النَّاسَ﴾: أن هي المفردة لأن الإيحاء فيه معنى القول.

قدم صدق: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة، فإن قلت لم سميت السابقة. قدماً: قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما

سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل. أ.هـ. بإيجاز.

قال الرازي: «أكان للناس عجباً ولم يقل أكان عند الناس عجباً، والفرق أن قوله: أكان للناس عجباً معناه أنهم جعلوه لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه وعينوه لتوجيه الطيرة والاستهزاء والتعجب إليه! وليس في قوله: عند هذا المعنى»^(١). وقال الثعلبي عند تفسير ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ﴾: «قال الزجاج: منزلة رفيعة، وقيل: هو بعثهم وتقدير الله تعالى هذه الأمة في البعث يوم القيامة»... قال ابن الأعرابي: «القدم المتقدم في الشرف»... قال أبو عبيدة والكسائي: «كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم»^(٢).

من دروس الآية ٢:

- ١- ليس عجيباً أن يرسل الله رسولاً من البشر للبشر بل العجيب ألا يكون من البشر والأعجب ألا يكون رسول أصلاً.
- ٢- مهمة الرسول إنذار عام وتبشير خاص.
- ٣- المؤمن صدق الرسول الذي جاء بالصدق فجزاؤه أن له قدم صدق عند مولاه الذي أرسل الرسل.
- ٤- الناس في عهود التخلف تفسر ما تجهل بالسحر.
- ٥- الكون قائم على نواميس وسنن ومن أعظمها سنة إرسال الرسل، وانتظام الكون وفق أسباب وقوانين قدرها الله.

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ١٨٦.

(٢) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج ٥، ص ١١٧ وما بعدها.

٦- ﴿قَدْ صَدَّقَ عَبْدٌ مِّمَّنْ سَاءَ مَعَاذٍ﴾ تطمين للنفس المؤمنة حينما تنزل القلوب والأقدام.

٧- لا سبيل إلى معرفة شيء يقيني إلا إذا جاءنا من مصدر يقيني كالقرآن وثابت السنة وحقائق العلم.

الآية ٢:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَهْدِيهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية رقم ٣ من سورة يونس المكية وفي سورة الأعراف المكية (وهي قبل التوبة المدنية) الآية ٥٤ النص ذاته: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وبعدها فعل مضارع في الآيتين من السورتين. وفاصلة يونس ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولكن فاصلة الأعراف بعد ثلاث آيات هي: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

هذا عن النسق البعيد أو النظائر أما عن التناسب مع السياق المباشر والعام لسورة يونس فقد قلت إن مجموعة «آلر» تركز على الربوبية والرسالة وقد كانت الآية الأولى تشير إلى البعد الأول، والثانية إلى الثاني، والثالثة تعود إلى البعد الأول أعني الحديث عن الربوبية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ وأما نسقها مع جو السورة العام فإن الافتتاح بـ ﴿إِنَّ﴾ سيمر بنا آية ٦، ٧، ٩. فالآية نسق من عدة أوجه.

وهذه الآية ٢٩ كلمة ١١١ حرفاً وترتيبها التسلسلي ١٣٦٧.

المعنى: إن: حرف توكيد، واسمه وخبره ما بعده.

ربكم الله: اسم إن وخبرها، ولكن ما الفرق في المعنى بين «إن الله ربكم» و﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ ربما يبدو المؤدى هو عينه، ولكن المعنى قطعاً سيختلف باختلاف الترتيب، لا اختلاف تباعد، لا وإنما اختلاف توسيع للمعنى واختلاف على أي شيء يكون التركيز، فهنا في آية يونس التركيز على معنى الربوبية: إن الذي يريكم هو الله.

وأما قوله: «إن الله ربكم» فالتركيز على أن الله القوي القدير المعبود هو الذي يتعهدكم ويربيكم، فقدم معنى العهد في آية وقدم ملحظ العظمة والألوهية في آية أخرى. الذي خلق السماوات والأرض: الاسم الموصول وصلته، وهذه الصلة هي أخص خصائص الربوبية والألوهية: الخلق.

وخص من الخلق أعظم تجلياته: خلق السماوات والأرض، فهي بالنسبة لنا أعظم ما نعرف. صحيح أن الأرض نقطة ضئيلة في الكون، لكنها مع ذلك هائلة: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ والأمور نسبية. وفيها المخلوق المخاطب بهذا القرآن.

ولو أردنا أن نطوف بالأرض لاحتجنا ربما ألف سنة لنغطيها جزءاً جزءاً.. مما يدل على عظمتها وإن كانت في الكون صفراً. أما السماوات فما نعلمه مذهل وما لا نعلمه ماثات أضعاف ما نعلمه. والبشر يقدرُونَ ما يعرفون من الكون - وقد عرفوا ماثات بلايين المجرات - يقدرونه بعشرة في المائة من الكون، وقد يكتشفون أنه أقل من ذلك بكثير. وأن غرورهم هياً لهم هذا التقدير وعلمهم اضال من ذلك بكثير. ولم يعبر القرآن أحياناً بـ السماء وأحياناً السماوات؟ اعتقد أن السماء أخص من السموات، فهي ما علاك أعني السماء من السحاب فصاعداً ولذا لن نجد:

«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَوَاتِ مَاءً» وَإِنَّمَا دَائِمًا ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أما السموات فالتي زينت السماء الأولى منها بزينة الكواكب.

﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَمِصْبِیحٍ﴾ [الملك: ٥].

﴿وَرَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمِصْبِیحٍ وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢].

﴿إِنَّا رَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصفات: ٦].

في ستة أيام: لماذا في ستة أيام؟ مع أن الله تعالى يخلق بالكلمة كن.. فيكون الشيء، والجواب أنا لا نعلم، وإنما نحاول أن نفهم. وربما يتاح لنا أن نعلم في المستقبل وربما لا يتاح، فقد يكون هذا الزمن لتشكّل الكون وتصلبه بعد كونه غازاً (بخار ماء) أو ماءً، وربما غير ذلك، أما الآن فنكمله بلا فهم منا لماذا، إلى الذي يعلم سبحانه ولا يغيب عنه شيء.

«ثم استوى على العرش»: ورد النص ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ست مرات أولاها الأعراف ٥٤ ثم الرعد آية ٢ ثم الفرقان ٥٩ ثم السجدة ٤ ثم الحديد ٤ وواضح أنها كلها مكية عدا الحديد.

وورد مرة في سورة طه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فهذه سبع مرات، وورد في البقرة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [٢٩] وفصلت ١١ النص نفسه، فهذه ٩ مرات^(١).

نعود إلى الاستواء على العرش فقد أطل في الكلام كثيرون وانقسموا واختلفوا وتباعدوا، وما نزلت هذه الآيات لتكون محل جدل ونزاع وانقسام

(١) وورد خارج هذا النطاق في قصة موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ وفي سورة الفتح في مثل النبي واصحابه: ﴿كَرَّرْهُ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَفَارَزَهُ فَاَسْتَقْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْفِهِ﴾ وفي النجم ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ والثلاثة مواطن الأخيرة في معنى اكتمال القوة.

وتذهب وتوزع إلى فرق فلن يستطيع أحد أن يحيط بمعناها فنكل الأمر إلى الله، ونفوض ونغرّ النص كما جاء بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف ولا توصيف ولا تجسيم ولا نفى بالطبع، ولا نزيد على ما قال الأقرب إلى الله منا وهم جيل الصحابة فالتابعين، فنثبت لله ما أثبت ونغرّ ونعتقد ما أمرنا ربنا أن نعتقد.. ولا نثير معارك جدلية حول أمور لا يمكن الحسم فيها والجزم إلا إمرارها كما جاءت ونصنع عندها ما صنع النبي الكريم والصحب الكرام فما سمعنا أنهم أثاروا حولها لغطاً ولا جدلاً وحاشاهم، أفلا يسعنا ما وسعهم؟ بلى والله.

«ما من شفيع إلا من بعد إذنه»: الشفيع من الشفع أي من يأتي شفعا مع آخر، لإسناده وتعزيز موقفه وقضاء مهمته، فليس عند الله شفيع إلا لمن أذن له الله فالشفيع بإذن منه والمشفوع له بإذن منه، والشفاعة كلها لا تكون إلا بإذنه سبحانه، بعكس شفعاء الدنيا فقد يفاجأون بالشفيع فيغيرون مجرى الأحكام، والله المثل الأعلى، فلا شيء من هذا عنده ولذلك فإن من يعتمدون على عقلية الشفيع سيصدمون.

ذلكم الله ربكم: أعاد النص في أول الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ ولكن بتقديم وتأخير كما قلنا في أول التفسير لهذه الآية. أي ذلكم الإله القدير الذي لا يكون في ملكه إلا ما يشاء هو ربكم الذي يرعاكم ويتعهدكم.

فاعبدوه: اعبدوا هذا الإله والرب الجليل بكل ما تعني العبودية من معان سواء أكان الشعائر أم غيرها.

أفلا تذكرون: استفهام وفاء عطف ومعطوف عليه محذوف ولا النافية ثم الفعل تذكرون التاء إذ أصلها تذكرون، والتذكر استحضار المعلومات البديهية أو الأولية أو المعلومة بالضرورة.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «أفلا تذكرون» ابتدائية للتفريع وهو غرض جديد فلذلك لم تعطف، فالاستفهام إنكار لانتفاء تذكركم إذ أشركوا معه غيره ولم يتذكروا في أنه المتفرد بخلق العوالم وبملكها وبتدبير أحوالها.

قال القشيري: «فأخبر الحق سبحانه بما يقرب من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ومعناه اتصافه بعز الصمدية، وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت، وعلاء الربوبية»^(١).

من دروس الآية ٣ :

- ١- الرب والإله اسمان عظيمان لمولانا العظيم سبحانه والرب فيه معنى التربية والإله فيه معنى الحاكمية واستحقاق العبادة والطاعة.
- ٢- هذا الكون خلق خلقاً ولم يتطور بلا خالق كما يريد أن يروج الملاحدة وأضرابهم.
- ٣- الكون خلق في ستة أيام لعله لا نعلمها ونفوض علمها إلى العليم.
- ٤- الاستواء تثبته ولا نتجادل ولا نجادل فيه ونفوض علمه.
- ٥- فكرة الشفاعة ينبغي تنقيتها من التصورات الجاهلية.
- ٦- العبادة مفهوم عظيم شامل والمؤمن يتوجه إلى هذا الإله العظيم بالعبادة.
- ٧- التذكر استحضار المعلومات الضرورية والأولية التي ينبغي ألا تغيب.
- ٨- ما نزل القرآن لختلف فيه فنكون كأمة الكتب السابقة أنهم ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، واختلفوا في الكتاب.

(١) القشيري، لطائف الإشارات، ج ٢، ص ٧٨.

الآية ٤:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤)

الربط والمناسبة: عرفتهم الآية السابقة بربهم، أعني الخالق، من خلال خلق السماوات والأرض، وهذه الآية تعرفهم بأن المآل والمرجع إليه سبحانه، إذ المبتدأ من عنده والمرجع إليه. فهو الذي ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

وهذه الآية ٢٨ كلمة و١٢٦ حرفاً وتسلسلها ١٣٦٨.

المعنى: إليه مرجعكم جميعاً: قدم الخبر إليه على المبتدأ مرجعكم للاهتمام، فمحور الحديث كان عن الرب الجليل سبحانه، في قوله تعالى ﴿قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿إِذْ رَبُّكُمْ اللَّهُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فمن الطبيعي أن يقدم ما يتصل به سبحانه على كل ما سواه - والمرجع المآب والمآل والرجوع والانتهاء.

جميعاً: فلا يستثنى من الحشر إلى الله أحد، لا رسول ولا ملك ولا جن ولا كافر ولا مؤمن ولا صغير ولا كبير!

وعد الله حقاً: هذا وعد حق من الله تعالى، ووعد لا يخلف ولا يتخلف ولا يتأخر ولا يتقدم. والتقدير: وعدكم الله وعداً حقاً.

إنه يبدأ الخلق ثم يعيده: ما أجل ترتيب الكلام الإلهي، فكيف لا يكون مرجعكم إليه، وهو الذي بدأ خلقكم أول مرة، بل بدأ الخلق كله، ثم يعيده إليه.

وموقع «إن» تأكيد الخبر نظراً لإنكارهم البعث فحصل التأكيد من قوله «ثم يعيده» أما كونه بدأ الخلق فلا ينكرونه. وجاء رسم يبدأ هكذا ﴿يَبْدَأُ﴾ ليفيد القوة.

ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط: ليجزي المؤمنين الذين عملوا العمل الصالح بالعدل والقسط.. ولم يذكر ما هو الجزاء من جنات ونعيم.. واكتفى بقوله تعالى ﴿يَأْقِسطُ﴾ لينبه على الإكرام والإنعام والعدل.

والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم: وأما الكافرون فلم يقل عنهم ليجزيهم بالعدل والقسط ولكن ذكر ماهية هذا الجزاء لا آلية الجزاء، وذكر منه الشراب الحار الذي لا يطاق والذي يقطع الأمعاء كما بين في آيات أخرى، ولهم معه عذاب أليم سواء. وخص الشراب من الحميم بالذكر لأنه من أكره أنواع العذاب في مألوف النفس.

نسأل الله العافية والسلامة، وأن يجعلنا من أهل النعيم والتنعيم.

بما كانوا يكفرون: أي هذا الجزاء بسبب كفرهم الذي كانوا يكفرونه.. ولا يظلم ربك أحداً.

يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال: «الذين كفروا خالفوا عن الناموس فلم يسيروا في طريق الكمال البشري بل جانبوه، وهذا يقتضي حسب السنة التي لا تتخلف أن يلقوا عاقبة انحرافهم تردياً وانتكاساً وغصصاً بلا لذائذ في مقابل لذائذ بلا غصة».

قال البيضاوي: إن معناه ليجزي الذين كفروا بشراب من حميم بسبب كفرهم لكنه غير النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب، والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه.

قال السعدي: «فلما ذكر حكمه القدري وهو التدبير العام، وحكمه الديني وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم

الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إِنِّي مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم، لميقات يوم معلوم^(١).

من دروس الآية ٤:

- ١- عقيدة الآخرة والرجوع إلى الله ثاني أعظم أركان الإيمان في هذا الدين العظيم وهي عزاء المؤمن وشقاء الكافر أي هذه العقيدة.
- ٢- هذا الرجوع إليه وعد قطعه الله ولا يخلف وعد الله.
- ٣- هذا العود إليه ليجزي كلاً من المؤمنين والكافرين الجزاء الذي يليق.
- ٤- العدل في الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة.
- ٥- من أعظم الكرم أن يوهب الكريم أن ما تفضل به على المكرم هو حقه.

الآية ٥:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

الربط والمناسبة: ما زالت السورة الكريمة تعرف بالرب الجليل سبحانه. فذكرت الآية ٣ قصة الخلق ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

والآية ٤ تكلمت عن الرجوع إليه سبحانه وكيف لا يكون وهو سبحانه ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهذه الآية تتكلم عن تسخير الكون فهو جعل الشمس

ضياء.. وتعود إلى قصة الخلق وأنه بالحق وهذه السورة سورة الحق بامتياز ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وهذه الآية ٢٣ كلمة و ١٠١ حرفاً وتسلسلها ١٣٦٩.

المعنى: هو الذي جعل الشمس ضياء: هو لا أحد سواه الذي جعل الشمس مشتعلة فيصدر عنها الضوء لتتير الأرض على بعد ملايين الكيلومترات. وهذا الموضع الوحيد في القرآن الذي يقرن الشمس بالضياء، فقال في عم: ﴿يَرَجَا وَحَاجَا﴾ وقال في القصص: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ [القصص: ٧١].

وفي موطن ثالث وأخير ذكر الضياء وصفاً لرسالة موسى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْقُرْآنَ وَضِيئَةً وَذِكْرًا لِلْمُنْقِبِينَ﴾ هذا كل ما هنالك من هذه المادة.

والقمر نوراً: وهو سبحانه الذي جعل القمر نوراً، أي منيراً، وليس بالقمر مصدر للإضاءة أو للنور ولكنه انعكاس ضوء الشمس كما هو معلوم، والأرض من على سطح القمر قمر منير أضوا من القمر لأنها أكبر، فكل هذه الأجرام تعكس نور الشمس إذا كانت مما يصلها نور الشمس.

وقدره منازل: أي قدر القمر منازل، فمرة في منزل ويوماً بعده في منزل بحسب دقيق منتظم ومرة يكون هلالاً يظهر في الأفق لدقائق ومرة يكون بدرأ ينير طيلة الليل. وتأمل الحكمة.

تطول مدة وجود القمر في السماء كلما اكتمل لتكون الاستفادة من نوره أطول فترة.

لتعلموا عدد السنين والحساب: هل هي عائدة على حركة القمر ودورانه حول الأرض فقط، أم تعود أيضاً على ما ذكر في أول الآية من جعل الشمس ضياء،

والأرض تدور حولها، فهي تكمل دورتها في سنة، ما جعل الله الدورتين إلا لحساب الزمن.. لينظم الناس معاشهم ومواعيدهم ويضبطوا تواريحهم، وإلا فإن الحياة فوضى، لا تدري متى ولدت، ولا متى مات العظيم فلان، ولا متى قامت معركة اليرموك مثلاً.

لتعلموا عدد السنين والحساب: اللام لام التعليل أي خلق الله الوجود وشمسه وقمره ودوران القمر حول الأرض والأرض حول الشمس لعله أن تعلموا عدد السنين^(١).. وتضبطوا الزمن. فما معنى: ﴿وَالْحِسَابَ﴾؟ أهو الحساب مطلقاً بمعنى الرياضيات؟ أم هو الحساب بمعنى احتساب السنين؟ الظاهر الواضح أنه يعني حساب السنين.. لا الحساب بمعنى الرياضيات ولا المحاسبة، وصحيح أن الكون قائم على الحساب الدقيق والرياضيات، لكن المقصود الظاهر هنا أن الحساب بمعنى احتساب دورة الزمن وعدد الدورات. والله أعلم. ومن هنا قال الله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾ أي حركتهما بحساب دقيق، وأنه وإن رجحنا جزءاً من المعنى إلا أنه ما من مانع يمنع العموم.

ما خلق الله ذلك إلا بالحق: هذه الدقة مؤشر كالشمس وضوحاً أن للكون خالقاً، والكافر يعاند الحقائق الناصعة المتجلية تحكماً ذهنياً وعقلياً لا حجةً وعلماً وإقناعاً، والتعنت يستطيعه كل أحد لكن التسلح بالحجة والمنطق المقنع لا يستطيعه إلا الموفق الذي تخلص من عقد المكابرة واللجاجة والهوى واتباع الظن.

والحق: الصدق، والحق المطابقة للواقع.. والحكمة.. والظهور. والهدف السامي العظيم.. والثبات.. ومعانيه عديدة وهو واحد، واسم الإشارة ذلك ولا م البعد فيه

(١) والسنين: جمع سنة وهي الحول والعام، وأصلها سنة أو سنو، وتصغيرها سنينة، وسنينة. وتجمع جمع مذكر سالم: سنون، وسنين، وجمع مؤنث سالم سنوات، وسنهات. (الدرة).

إشارة إلى بعد مسافات الكون، وأهم منه إشارة إلى توغل هذا الخلق في الحق والحكمة وبعد منزلته في ذلك.

قال البيضاوي رحمه الله: «الفرق بين «خلق» و«جعل» أن الخلق فيه معنى التقدير، والجعل فيه معنى التضمين، ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمات بالجعل ﴿وَجَعَلْنَا الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما».

يفصل الآيات: مع أن القرآن مجمل موجز مكثف لكنه بفضل الله يقبل التفصيل، فالآية الكونية التي تتضمنها الآية القرآنية لا تعدو كلمات لكنها تقبل التفصيل في صفحات كقوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ مثلاً.. تأمل كم يقبل هذا الإجمال من التفصيل، ومن أراد المعنى العام في حدوده المطلقة فهو كالتفصيل ومن أراد التفاصيل أسعفه العلم بالغزير الكثير، فهو واضح كأنه مفصل، وهو يقبل أن يفصل مزيداً ومزيداً. فتأمل.

لقوم يعلمون: ما أجل هذا الدين، وما أجل تعانق هذا الدين مع العلم ومع العقل وكم يخسر أقوام بضيق العقل إذ يضعون الدين في مناقضة مع العلم والعقل، ويستحيل أن يكون ذلك.

إن من يستفيد من هذه الإشارات القرآنية من أسعفه العلم، ومن كان عنده الاستعداد للعلم والتعلم والاستزادة، ومن وظف كل متاح من المعرفة والعلم في تفسير آيات هذا الكتاب بالضوابط بالطبع.

يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال: «اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما يشمل كذلك اختلافهما طولاً وقصراً، وكتاهما ظاهرتان مشهودتان تذهب ألفة المشاهدة بجدة وقعهما في الحس، إلا في اللحظات التي تستيقظ فيها النفس ويتنفض فيها الوجدان للمطالع والمغارب».

يقول ابن عاشور رحمه الله: «جعل التفصيل لأجل قوم يعلمون أي الذين من شأنهم العلم لما يؤذن به المضارع من تجدد العلم وإنما يتجدد لمن هو ديدنه وذأبه. فإن العلماء أهل العقول الراجحة هم أهل الانتفاع بالأدلة والبراهين».

قال النيسابوري: «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ: خص به القمر لأن حساب العامة وعلمهم بالسَّيْنِ هلالِيّ، ولأن المنازل تنسب إلى القمر. والضياء أغلب من النور فجعله للشمس»^(١).

من دروس الآية ٥:

١- هذا الكون أعظم ميدان هو القرآن في تجلية الدين وعظمة الخالق وإثبات وجوده ووحدانيته ونفي كل نظريات الكفر وتعتاته.

٢- كم تسعف لغة القرآن في التعامل مع حقائق العلم من مثل: ﴿الْشَّمْسُ ضِيَاءٌ﴾ ﴿وَالْقَمَرُ نُورٌ﴾ فانتقاء هذه الكلمات لا يتجلى إلا لمن تحلى بالعلم.

٣- هذا الكون قائم على الحكمة فالمنازل التي يمر بها القمر والمراحل التي ينتقل بينها وكذا حركة الأرض حول الشمس وما يسمى الأبراج أو البروج التي تمر بها في حركتها حول أمها الشمس كل ذلك لحكمة بالغة هي أن تعلموا عدد السنين.

٤- تخيل الحياة لو كانت بلا توقيت ولا ضبط للسنين ولا لحساب الآجال والأعمار والأوقات، كانت تكون فوضى عارمة، لا معيار فيها ولا ضابط ولا ناظم ولا منظم.

٥- الكون وخلقته قائم على الحق مقترن به لا ينفك عنه.

وهذا هو الفرق بين الإيمان والكفر، إن الحق يستند إلى بنية الكون والواقع الموضوعي والوجود الموجود، والكفر ظنون وجنون وأوهام وهلوسات وافتراضات وإحالات ومناقضات.

٦- تفصيل القرآن وإجماله موضوع كبير يحتاج إلى تفصيل.

٧- العلم من أعظم قنوات وأدوات تفسير الكتاب العزيز المنير.

٨- كم نخسر من ضيق بعض العقول التي تضيق ذرعاً بالعقل.

وما يجلي القرآن بعد القرآن وصحيح السنة واللغة كالعلم والعقل.

٩- ما أشبه هذه الآية بآية الفرقان وتأمل كيف يفسر القرآن القرآن: ﴿نَبَارَكُ

الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا يَرَبًّا وَفَعَمًا مُبِينًا ۝۱۱﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَبْتَكَرَ ۚ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝۱۲﴾.

١٠- وما تزال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس.

الآية ٦:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَّقُونَ﴾

الربط والمناسبة: لا تحتاج الآية إلى طول تأمل ولا إعمال فكر شديد.. ليظهر وجه ارتباطها الوثيق بسبقها وسياقها. فالآية السابقة تتحدث عن منازل القمر وتشير ضمناً إلى أبراج الشمس مما ينشأ عنه علم الزمن.. وهذه الآية تكمل هذا الحديث. فمن اختلاف الليل والنهار كان الزمن الذي احتسبناه في الآية السابقة والآن يلفتنا النص إلى بعد مكمل، إن في هذا الكون آيات لمن أراد أن يزداد يقينا،

فالآية الأولى تتحدث عن البعد الوظيفي للزمن، وهذه تتحدث عن البعد التوظيفي الإيماني لهذا العنصر أعني الزمن.

فالآية مع السياق في منتهى الاتساق.

وهذه الآية ١٤ كلمة و٥٨ حرفاً وترتيبها ١٣٧٠.

المعنى: إن في اختلاف الليل والنهار: غالباً ما يأتي ﴿أَخْلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارَ﴾ عقب خلق السماوات والأرض، لكنه تميز هنا في سورة يونس، كما تميز قبل قليل بالانفراد بأن الشمس ضياء.

واختلاف الليل والنهار له حزمة من المعاني أول المتبادر منها تعاقبهما ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ ﴿يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وغير هذه من الآيات تلفتنا إلى ظاهرة تعاقب الليل والنهار.

هذا المتبادر الأول من المعاني، والمتبادر الثاني، اختلافهما في الطول والقصر فهذا يأخذ من هذا وهذا يأخذ من طول هذا.

فيفصل النهار أقصى قصره في الفصل البارد في الشتاء، حتى تكن الناس بيوتهم أطول فترة ممكنة، ويطول الليل وفي الصيف حيث الحرارة والثمار ومواسم الحصاد والقطاف يطول النهار لتتمكن من الأعمال وجني المحاصيل.. فسبحان من رتب هذا الترتيب. أفهذا بلا مدبر حكيم عليم؟ قتل الإنسان ما أكفره.

«وما خلق الله في السماوات والأرض»: عطف على ﴿إِنَّ فِي أَخْلَافٍ...﴾ أي فيما خلقه الله في السماوات والأرض من مخلوقات لا تحصى ولا تعد.

لآيات: دلالات واضحات وعلامات ظاهرات بارزات على الخلق والخالق والحكمة والعلم والقدرة والرحمة.

«القوم يتقون»: لكن من يستخلص ويستنبط هذه الآيات ويتوقف عندها. إنهم المتقون، فالقوم الذين يعلمون استفادوا من وظيفة الزمن الحساب، والقوم الذين يتقون استفادوا من حركة الكون اليقين وتعزيز الإيمان.

وجاءت ﴿يَتَّقُونَ﴾ عامة فلم تقترن بمفعول لتعم وتشمل..

يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال تعقياً على قوله تعالى ﴿لَقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾: «وجدان التقوى الذي يجعل هذه القلوب مستجاشة حساسة وسريعة التأثير والاستجابة لمجالي القدرة ومظاهر الإبداع ومعجزات الخلق».

يقول ابن عاشور رحمه الله: «جعلت الآيات هنا ﴿لَقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وفي آية البقرة ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [١٦٤] وفي آية آل عمران ﴿لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [١٩٠]، لأن السياق هنا تعريض بالمشركون الذين لم يهتدوا بالآيات ليعلموا أن بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات وأن نفعها حاصل للذين يتقون».

قال ابن عطية: «آية اعتبار وتنبيه، ولقطة الاختلاف تعم تعاقب الليل والنهار، وكونهما خلفه، وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض... وخصص «القوم المتقين» تشريفاً لهم؛ إذ الاعتبار فيهم يقع، ونسبتهم إلى هذه الأشياء المنظور فيها أفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتقى»^(١).

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٣، ص١٠٦.

من دروس الآية ٦:

١- تعاقب الليل والنهار مصدر معرفة السنين، ولكن وراءه ما هو أهم زيادة اليقين.

٢- اختلاف الليل والنهار والوظيفة من نور النهار العمل، ووظيفة الليل السكن لتجديد الهمم والعزم والجسم.. فتأمل كيف رتب الكون وفق احتياجاتك ومصالحك، أفهذا الترتيب بلا حكمة؟!

٣- الوجود مليء بالآيات فالمخلوقات وأنواعها آيات وكل مخلوق فيه ما لا يحصى من الآيات.

٤- من أراد اليقين فسيبيله ميسرة، ومن أراد الكفر فلا سبيل له إلا تعنت صاحبه وتعصبه وخضوعه لهواه وإنكاره المحسوس ويقاؤه كالمحبوس في القوقعة قوقعة الجمود والتحجر والنفي بلا دليل ولا سلطان ولا برهان ولا كتاب منير.

٥- ما يزال المنهج القرآني يخاطب الفطرة بمجملتها، والفطرة البشرية قلباً وعقلاً وحساً ووجداناً، تواجه هذه الدلالة وتستجيب لها.

الآية ٧:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ

آيَاتِنَا غَفْلُونَ ﴿٧﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه ﴿إِنَّ﴾ الثالثة تفتتح بها آية من أول سورة يونس، هذا من ناحية الشكل، أما عن التناسق مع السياق من حيث الفحوى والمضمون فقد عرفنا الآيات السابقة بربنا وبالرجوع إليه سبحانه يوم القيامة وعرفنا بآياته في

الكون وقد عرضتها الآيات القرآنية فهل يبقى بعد هذا جاحدون ومنكرون؟
الجواب نعم، وهذه عينة.

وهذه الآية ١٥ كلمة و ٧٠ حرفاً وترتيبها ١٣٧١.

المعنى: «إن الذين لا يرجون لقاءنا»: إن: أداة توكيد، لأهمية الخبر من ناحية ولوجود مكذبين من ناحية، هذه مبررات استخدام التوكيد، والبلاغة وعلم النفس من منبع واحد، فالبلاغة فن التأثير في النفس، فالتشكك تؤكد له، وكلما زاد شكه قويت أدوات التوكيد. قال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد، أي النفي كقوله تعالى: ﴿مَالِكٌ لَا يَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

الذين: الاسم الموصول يؤتى به لاستحضار صلته ولإبرازه من خلال هذه الصلة.

«لا يرجون لقاءنا»: هذه صلة الموصول التي تشخصه وتحدده وتضبط معاملة. وتعبير ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ عجيب، فهي تؤدي معنى لا يؤمنون ولا يوقنون، نعم، وتزيد عليه أنه لا مجال لهم أن يرجو لقاء الله بمعنى انتظار رحمته لأنهم كانوا يجحدون هذا اللقاء فكيف يرجون ثمرته؟

أما المؤمن فيملؤه الرجاء بقاء الكريم، سبحانه.

يقول الزمخشري: «لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطرונה ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم المذهلة باللذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق، أو لا يأملون حُسن لقائنا كما يأمله السعداء».

«ورضوا بالحياة الدنيا»: ألا ما أبأس وما أخسر صفقتهم، معروض عليك أن تأخذ خير الدنيا والآخرة حزمة واحدة في بيعة واحدة وبالثمن نفسه، فأبيت إلا

الدنيا فقط وهي الفانية التافهة المحدودة، وتركت الباقية القيمة العظيمة، فأبي عقل هذا؟ ويظن الكافرون بأنفسهم الظنون ذكاء وفطنة ونباهة ودقة اختيار وحسن تخطيط وهم على النقيض.. تخبطاً وتخليطاً وحقاً.

والرضا بالحياة الدنيا أي الاكتفاء بها وعدم التطلع إلى ما بعدها وعدم انتظاره وعدم الإيمان به أصلاً، ولم يطلب منهم أحد أن يتجردوا من الدنيا، إنما الذي كان مطلوباً منهم أن يوسعوا دائرة طموحهم أن يحوزوا الدنيا والآخرة ويسعدوا فيهما، هذه هي صفقة الإيمان، ما الخسارة فيها؟ ما النقص الذي يعتريها؟

«واطمأنوا بها»: الطمأنينة مسألة مهمة، وأهم أن تكون في محلها. فمن داس على لغم أرضي يتفجر إن رفع رجله فكيف يطمئن؟ يكون أحق إن شعر بهذه الطمأنينة، إن مصدر طمأنيتهم أنهم حازوا الأموال واقتنوا المقتنيات فشعروا بالقوة نتيجة التملك والحيازة والاستحواذ.. فطغوا وبدأوا يتفنون من عقولهم عقيدة القيامة وظنوا دوام النعيم في الدنيا، وما من عاقل إلا ويعلم أنها ظل زائل.

«والذين هم عن آياتنا غافلون»: الاسم الموصول مرة أخرى وحشية أخرى هي صلة الموصول هي الغفلة عن الآيات بكل معانيها: الآيات القرآنية أو الآيات الكونية و/أو معجزات المرسلين عليهم الصلوات، فهم عن كل هذا غافلون مشغولون معرضون.

والغفلة داء دوي ومرض عصي، نسأل الله السلامة، يقول سيد قطب رحمه الله في الظلال: «إن الذين لا يتدبرون النظام الكوني الموحى بأن لهذا الكون خالقاً مدبراً، لا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام، ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله ويقفون عند الحياة الدنيا ويرضونها ويستغرقون فيها».

يقول ابن عاشور رحمه الله: «معنى ﴿وَأَلْمَأُؤُتِيهَا﴾ سكنت أنفسهم وصرفوا همهم في تحصيل منافعها ولم يسعوا لتحصيل ما ينفع في الحياة الآخرة، لأن السكون عند الشيء يقتضي عدم التحرك لغيره».

وعن قتادة: إذا شئت رأيت الموصوف صاحب الدنيا لها يرضى، ولها يغضب، ولها يفرح، ولها يهتم ويحزن.

من دروس الآية ٧:

- ١- الإيمان صفقة الأذكاء والكفر صفقة الحمقى والمغفلين والأغبياء.
- ٢- الدين لم يطلب منك الانخلاع من الدنيا وملكها ومالها ومراكزها إنما طلب منك الإصلاح فيها.
- ٣- الإيمان بالآخرة راحة وعوض وطمأنينة قلب.
- ٤- الاطمئنان إلى الدنيا كمن يطمئن بجوار وحش مفترس!
- ٥- الغفلة عدو الإنسان وتدينه وإيمانه ووعيه ومصلحته.
- ٦- عجب غفلة الغافلين عن آيات الله الكونية التي توظف القلب وترفع الحس وتحفز إلى التطلع والكمال.

الآية ٨:

﴿أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

الربط والمناسبة: لا تحتاج الآية إلى بحث فهذه الآية متممة لسابقتها وتبين جزاء أولئك الذين ذكرتهم الآية السابقة.

وهذه الآية ٦ كلمات و٣٠ حرفاً وترتيبها ١٣٧٢.

المعنى: أولئك: اسم الإشارة لتشخيصهم واستحضارهم وتحديدهم وتعيينهم بأعيانهم.

ماواهم النار: المأوى: مكان الإيواء والاحتباء والسكن فتصور إنساناً مأواه وسكنه في لهيب النار فكيف القرار أو الاستقرار.

بما كانوا يكسبون: الباء للتعليل أي بسبب الذي كانوا يكسبونه من أعمال سيئة ومن شر.

والكسب عبارة عما يفيد جر منفعة أو دفع مضرة وهذا هو الذي ينبغي للإنسان أن يكسبه من دنياه لآخرته.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «الإتيان بـ(كان) للدلالة على أن هذا المكسوب ديدنهم، والإتيان بالمضارع للدلالة على التكرير فيكون ديدنهم تكرير ذلك الذي كسبوه».

قال السمرقندي: «لا يخافون البعث بعد الموت، ويقال: لا يرجون ثوابنا بعد الموت. واختاروا ما في الحياة الدنيا على ثواب الآخرة ورضوا بها وسكنوا إليها وآثروها وفرحوا بها... أهل هذه الصفة مصيرهم إلى النار جزاء لكفرهم وتكذيبهم»^(١).

من دروس الآية ٨:

- ١- جزاء من ينكر النار أن تكون هي مصيره حتى يؤمن بها.
- ٢- لا يظلم ربك أحداً فمن جزاء مولاه بالنار فهذا ثمرة ما غرس، فلا يستغرب من أنبت وأثمر ما زرعه شوكاً إن كان هو زرع شوكاً فكيف ينتظر العنب؟

(١) السمرقندي، بحر العلوم، ج ٢، ص ١٠٥، بتصرف يسير.

٣- الاختيار يجب أن يكون مستقراً في الأذهان أنا نختارون مجزون على هذا الاختيار.

٤- الدنيا والدين بغير جزاء مفرغان من كل مضمون.

الآية ٩:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه ﴿إِنَّ﴾ رقم ٤ في هذا السياق.

وأهم من هذا أنه بعد بيان جزاء الكافرين لا بد من بيان جزاء المؤمنين، فكانت هذه الآية.

وهذه الآية ١٥ كلمة و ٧٠ حرفاً وترتيبها ١٣٧٣.

المعنى: «إن الذين آمنوا»: أداة التوكيد والاسم الموصول وصلته اسمها.

«وعملوا الصالحات»: الإيمان شجرة وثمرتها الدائمة عمل الصالحات ولا تتصور الشجرة من دون الثمرة ولا الثمرة بلا شجرة.
وعمل الصالحات أفق مفتوح وفضاء واسع بلا حدود.

«يهديهم ربهم بإيمانهم»: يهديهم مولاهم الذي يرشدهم ويوفقهم ويهديهم لليسرى، ولحسن الاختيار، وللعمل الطيب، وللقول الطيب كما قال مولانا: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فكل هذه من ثمرات الإيمان، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾

وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ﴿٦﴾ فَسَيَّرَهُ لِلْيَمِينِ ﴿٧﴾ والهدى يستدعي مزيداً من الهدى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَتْهُمْ أَقْوَامُهُمْ﴾ [عمد: ١٧].

والكلام في هذا بحر بلا ساحل.

قال ابن الأنباري: يجوز أن يكون المعنى أن الله يزيدهم هداية بخصائص ولطائف وبصائر ينور بها قلوبهم، ويزيل بها الشكوك عنهم.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «الإتيان بالمضارع ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ للدلالة على أن الهداية لا تزال متكررة متجددة، وفي هذه الجملة ذكر تهيو نفوسهم في الدنيا لغروج مراتب الكمال». أ. هـ. بإيجاز.

وهل المقصود بيهديهم في الدنيا إلى مرشد أمورهم أم في الآخرة إلى دورهم وقصورهم، أم فيهما معاً إلى خيرهم ونورهم؟ كل ذلك.

«فجري من تحتهم الأنهار»: نقلهم مباشرة إلى الجزاء، وعجيب تقديم جري الأنهار على مكان جريها وهو الجنات فقد قال عقب هذا ﴿فِي جَنَّاتٍ أَلْوَيْهِمْ﴾ يبدو أن جري الأنهار من أجل مظاهر الجمال في الجنة فقدم الجزء على الكل باعتباره الأجل أو غير ذلك، والله أعلم. أما القول بمراعاة الفاصلة، فهذا أقل المعاني أهمية.

«في جنات النعيم»: أي مصيرهم النعيم في جنات النعيم، ومأواهم ومستقرهم في الرغد والبحبوحة، بينما أولئك في الضنك والشر والعنت والعذاب جزاء سوء اختيارهم.

يقول الزمخشري: «إن قلت: فلقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة إيمان مقيد وهو: الإيمان المقرون

بالعمل الصالح، والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور؟».

(وتعليقنا: إن خلاصنا كلام الزمخشري من اعتقاده الاعتزالي بأنه لا يقبل الإيمان بلا عمل ولا ينفع صاحبه فناخذ الفائدة منه معزولة عن اعتزاله والحكمة ضالتنا والسنة خطتنا والمذاهب المشتتة نحن في غنى عنها).

قلت: الأمر كذلك، ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها من الإيمان والعمل، كأنه قال: إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: بإيمانهم، أي: بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح وهو يبين واضح لا شبهة فيه.

من دروس الآية ٩:

١- الإيمان يستجلب مزيداً من الإيمان والهدى يستدعي مزيداً من الهدى، ونقيضهما كذلك.

٢- المنهج مهم جداً في تنظيم العقل وتنسيق التفكير أو تشويشه فمن ارتضى المادية الجدلية منهجاً لن يصل إلا إلى النتائج الوخيمة والخطائفة، أما من رضى الإيمان منهجاً فالخير ينتظره.

٣- الإيمان وعمل الصالحات شجرة مقترنة بثمرها.

٤- الجزاء من جنس العمل.

٥- ما يزال الماء ولن يزال يوحى بالخصب والري والنماء والحياة.

٦- جريان الأنهار من تحتهم أي بين أيديهم ينظرون إليها من أعالي أسرتهم وقصورهم وهذا أحسن في السرور والنزهة والفرجة.

الآية ١٠:

﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

الربط والمناسبة: هذه متممة للآية السابقة، فختمت تلك ﴿ فِي جَنَّتِ الْعِيعِ ﴾

وبدئت هذه: ﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا ﴾ فالحديث فيهما عن الجنة.

وهذه الآية ١٤ كلمة و٦٤ حرفاً وترتيبها ١٣٧٤.

المعنى: «دعواهم فيها»: أي دعاؤهم فيها أو ذكرهم وتسيحهم وليس معنى

الدعوى هنا المعروف من معنى الدعوى أي الادعاء، فلا محل له، فيها: أي في الجنة.

«سبحانك اللهم»: تنزهت يا الله يا ربنا.

«وتحييتهم فيها سلام»: تحيتهم التي يحيون بها بعضهم والتي يحيون بها من ربهم

ومن ملائكة ربهم سبحانه هي السلام. ونكرها للتعظيم والتكثير.

«وآخر دعواهم»: وآخر ما يدعون ويذكرون.

«أن الحمد لله رب العالمين»: فالحمد مفتتح الخير والحمد مختتمه.

يقول سيد قطب رحمه الله: «إنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا وشواغلها

والارتفاع عن ضروراتها وحاجاتها والرفرفة في آفاق الرضا والتسبيح والحمد

والسلام، تلك الآفاق اللائقة بكمال الإنسان.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «سياق الكلام وترتيبه مشعر بأنهم يدعون مجتمعين

ولذلك قرن ذكر دعائهم بذكر تحيتهم: فلعلهم إذا تراءوا ابتدروا إلى الدعاء

بالتسبيح فإذا اقترب بعضهم من بعض سلم بعضهم على بعض ثم إذا راموا الافتراق ختموا دعاءهم بالحمد».

قال البغوي: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، فِيهِ إِضْمَارٌ، أَي: يُرْشِدُهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ إِلَى جَنَاتٍ... وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَهْدِيهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى الْجَنَّةِ يَجْعَلُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ. وَقِيلَ: يَهْدِيهِمْ مَعْنَاهُ يُشَبِّهُهُمْ وَيَجْزِيهِمْ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ بِإِيمَانِهِمْ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ لِدِينِهِ، أَي: بِتَصْدِيقِهِمْ هَذَاهُمْ»^(١).

وقال السمعاني: «دَعَاوَهُمْ فِيهَا مَعْنَاهُ: دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ هَذَا كَلِمَةُ تَنْزِيهِ وَتَبَرُّةِ الرَّبِّ عَنِ السُّوءِ... وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ يَعْنِي: تَحِيَّةُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا يَكُونُ بِالسَّلَامِ، وَيُقَالُ مَعْنَاهُ: إِنَّ تَحِيَّةَ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ بِالسَّلَامِ، وَيُقَالُ: إِنَّ تَحِيَّةَ اللَّهِ لَهُمْ بِالسَّلَامِ»^(٢).

من دروس الآية ١٠:

- ١- اللغة بحر بلا ساحل وهنا جاءت الدعوى بمعنى الدعوة والذكر.
- ٢- الذكر في الآخرة للشكر والحمد وتقدير المنعم بالنعمة.
- ٣- تحية أهل الجنة التي بها يحْيَوْنَ ويَحْيَوْنَ هي السلام.
- ٤- الحمد مفتاح كل أمر وكل خير ومختمه.
- ٥- إضافة التحية إلى ضمير «هم» معناها التحية التي تصدر منهم أي من بعضهم لبعض.

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج ٢، ص ٤١١.

(٢) السمعاني، تفسير القرآن، ج ٢، ص ٣٦٨.

٦- وجه ذكر تخيتهم في هذه الآية الإشارة إلى أنهم في أنس وجور وذلك من أعظم لذات النفس.

٧- كان مناسباً جداً أن يختتم الربع بقوله تعالى: ﴿وَأَجِرْ دَعْوَتَهُمْ إِنَّ لَكَمُ اللَّهُ رَبًّا عَلِيمًا﴾.

الآية ١١:

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١)

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن الآخرة ونعيم أهل الجنة فيها وفي هذه حديث عن الذين ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يؤمنون بالآخرة، فتكاملت مع الآية السابقة.

ورد الناس من الدار الآخرة إلى الدنيا معهود في التعبير القرآني، وشواهد أكثر من أن تحصر أو تحصى.. فلا تطيل بذكرها ومن أرادها وجدها بيسر ووفرة.

على أن كلمة ﴿يُعَجِّلُ﴾ بهذه الصورة لم ترد إلا هنا في هذه السورة.

وهذه الآية ١٨ كلمة و ٨٥ حرفاً وترتيبها ١٣٧٥.

المعنى: ولو: الواو للاستئناف، ولو أداة شرط فعلها يعجل وجوابها لقضي إليهم.

يعجل: أي يعاقب الناس فوراً بعد ذنوبهم ولا يمهلهم. أو بعد دعائهم بالشر على أنفسهم.

يقول الله تعالى: ولو أن الله تعالى يعجل للعقاب عقب ذنوبهم، أو يعجل لهم به أي بالشر كما يستعجلونه بالخير لأنهى وجودهم في هذه الحياة وما ترك منهم أحداً، والتعبير القرآني هو: ﴿لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾ ومعنى القضاء الحسم والحكم القاطع بانتهاء الآجال، وإنما يبقيهـم على قيد الحياة رغم معاصيهم وجحودهم: أن الله حليم حكيم يمهـل العباد إلى الآجال التي حددها لهم قبل وجودهم ولا يجعله غضبه ينهيهم قبل ما حدد لهم سبحانه، وإنما يسبق حلمه غضبه، فيمهـل الناس حتى لو جحدوه سبحانه وأطاعوا أمر عدوهم وعدوه: الشيطان.

والباء في قوله ﴿يَا لَاحِبَرٍ﴾ لتأكيد اللصوق وأصله استعجالهم الخير.

﴿فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: فنذر: الفاء تفرعية و﴿فَنَذِرُ﴾ ندع وترك الذين لا يرجون لقاء أي الذين لا يؤمنون بالآخرة، وكنى عن عدم الإيمان بعدم الرجاء، لأن الرجاء متفرع عن الإيمان وناشئ عن هذا الأصل، فمن كان لا يؤمن فكيف يرجو؟

الإتيان بالموصولية ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ في تعريف الكافرين للدلالة على أن الطغيان أشده إنكارهم البعث ولأنه صار كالعلامة عليهم.

يقول ابن عاشور: «بينت هذه الآية أن الفرق جعله الله مستمراً على عباده غير منقطع عنهم لأنه أقام عليه نظام العالم إذ أراد ثبات بنائه، فالله لطيف بعباده وفي ذلك منة عظيمة عليهم».

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي غارقين في تجاوزهم وظلمهم وعدوانهم عمي البصائر والأبصار، والله في ذلك حكمة أن يزدادوا طغياناً ليكون عقابهم أفظع

وأشد. كما قال تعالى: ﴿سَتَنْدِرْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ (١) وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿﴾ «إنها أملي لهم ليزدادوا كفرًا..» ولهذا الجزء من الآية نظائر كثيرة في القرآن، أما عدم معاجلتهم فقد ذكرته آيات كثيرة كذلك.

قال الواحدي: «والمعنى: لو استجبت لهم في الشر كما يحبون أن يستجاب لهم في الخير {لقضي إليهم أجلهم} لما تواتوا وفرغ من هلاكهم» (١).

وقال البيضاوي: «فندّر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون: عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي فنذرهم إهمالاً لهم واستدراجاً» (٢).

من دروس الآية ١١:

١- الحلم من صفات الله ومن أسمائه الحليم والصبور والرشيد والحكيم ولولا هذا الحلم لعجل العقاب للناس.

٢- قد يدعو الناس على أنفسهم وأولادهم بالشر ولكن الله لا يعجل لهم ولا يجيب دعاءهم وإلا لأهلكهم كما قال في سورة الإسراء ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْغُولًا﴾.

٣- إهمال الله للناس لا يعني إهمال عقابهم على ذنوبهم، معاذ الله.

٤- الإهمال والإملاء والاستدراج ليزداد الطاغون طغياناً ليكون أخذهم شديداً وعقابهم كذلك.

(١) الواحدي، الوجيز، ص ٤٩١.

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٣، ص ١٠٦.

الآية ١٢:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِيًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن الجاحدين الذين لا يرجون لقاء الله، وكلمتنا هذه الآية عن الوجه الآخر لهؤلاء أنهم في الشدائد لا يرجون ولا يدعون إلا الله.. حتى إذا كشف الله ما يدعونه لأجله عادوا إلى طبيعتهم من الجحود وعدم رجاء لقاء الله.. وفسر ذلك السلوك بأنه تزين من الله للمُسرفين، كما بينت الآية السابقة في ختامها أيضاً أنه ترك من الله وإملاء ليزدادوا إثماً.. والتزین لذات الغرض.. ليكون مقدمة لأخذهم وعقابهم، وختمت الآيتان بالفعل المضارع يعمهون ويعملون.

وافتح تحت الآية الأولى بالشرط ﴿وَلَوْ﴾ وهذه بالشرط ﴿وَإِذَا﴾.

وفي الآية أيضاً استعجال الخير برفع الضر، فهي تلتقي مع السابقة وهذه الآية ٢٧ كلمة و ١٠٣ حرفاً وترتيبها ١٣٧٦.

المعنى: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا»: عبر السياق الكريم بإذا لأن هذا متوقع وواقع معهود مشهود لا بد منه. وعبر بالمس الذي هو أقل إصابة. يقول النص الكريم، والآية العظيمة تصور طبيعة الإنسان، ولسنا مع من يرى أن الإنسان معني بها هنا وفي أمثالها: الإنسان الكافر. لا. وإنما هو الإنسان عموماً بما جبل عليه من فطرة اللجوء لله وبما اكتسبه من أخلاق ومنها القلب والانتهازية.. إذ يتحول بعد خروجه من المأزق. والضر: مطلق ما يضر ويسوء من إصابة في البدن من مرض أو أذى، وما يصيب المال من فساد أو نقص أو خسارة أو يصيب الزرع من ضرر والأرزاق من نقص.. فالضر مطلق، وإن كان أغلب معناه ما يصيب الأبدان

من مرض وضرر. واللام في الإنسان إنما هي لام الجنس التي تفيد الاستغراق والإنسان يطلق على الذكر والأنثى من بني آدم.

وفعل الشرط إذا هو الفعل مس وجوابه الفعل دعانا، والاثنتان ماضيان.

وقد تكرر هذا المعنى في القرآن بصيغ متعددة.. وكلها تفيد تحول الإنسان وتقلبه.

دعانا: عبر هنا بنون العظمة وكررها في الآية ثلاث مرات: ﴿دَعَا﴾، ﴿كَشَفْنَا﴾، ﴿يَدْعُنَا﴾.. وفي آيات أخرى عبر بدعا ربه.. وكل ذلك مقصود، فهو يدعو الرب العظيم، ويدعو ربه العظيم.

«لجنبه أو قاعداً أو قائماً»: أي دعانا في كل أحواله سواء طرحة المرض على جنبه أو أقعده أو دعا حال الوقوف.. كناية عن الضراعة، أي دعا على كل أحواله وكل أحيائه وأوضاعه. والاحتياج واحد والمحتاج واحد والمحتاج إليه واحد.. سبحانه الواحد.

«فلما كشفنا عنه ضره»: فلما: الفاء تفيد التعقيب والسرعة ولما كذلك وفيها معنى الحين، فكأنه التقى في تصوير سرعة التحول عاملان الفاء والظرف لما.

كشفنا: أزحنا وأبعدنا عنه ضره الذي مسه والذي كان يدعونا لرفعه وكشفه.

«مر كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسه»: ما أجل هذا التعبير: وما أوجزه وما أغزر دلالاته وإيحاءاته، كأنه مر من أمام من تفضل عليه ولم يتلبث ولم يشكر ولم يلتفت حتى..

«كان لم يدعنا إلى ضرٍّ مسه»: كأنه لم يتضرع إلينا ويتذلل ويدع بأحر الدعاء، لكشف الضر الذي مسه.

«كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون»: ﴿كَذَلِكَ﴾ تكشف عن سنة وراءها، أي مثل ذلك الذي زيننا لهم نزين لكل إنسان من هذه الشاكلة.. ونزين للمسرفين المتجاوزين إسرافهم حتى يغرقوا في بحر ذنوبهم ثم نأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وبني الفعل زين للمجهول للتركيز على الفعل لا على الفاعل، لكنها قطعاً تشير إلى سنة إلهية أودعها الله في البشر أن من داوم على شيء زين له، ومن كرر الشيء تعود حتى يصبح كالأسير لما اعتاد، فحذار من الاعتياد إلا على ما يرضي رب العباد.

ومن حكم بنائه للمجهول أن يشير إلى ما أشرنا إليه من طبائع، ولا يفوتنا أيضاً أن الشيطان يزين الإسراف، ورفاق السوء يزينون، والإعلام والإعلان يزين، ووهن القيم يزين، والمجتمع المفكك يزين، والتعليم الخاطيء الواهن يزين. والبيئة والثقافة تزين.

وكل هذا أغنى عنه بناء الفعل للمجهول. فتأمل. والله أعلم وأعلى وأجل.

ملاحظة بيانية:

تكرر في الآية ﴿الْفَرْ﴾ بصيغة: الضر، ضره، ضر ٣ مرات وذلك للتركيز لأن الضر هو المحرك للدعاء.

وتكرر دعانا، يدعنا مرتين، لتصوير حال الدعاء والتضرع والاحتياج والافتقار لكشف التناقض حين يمر كأن لم يدع.

وتكرر المس مرتين: مس، مسه.. مرة لتصوير وقوعه، ومرة حين رفعه.

وعبر بالإنسان في أول الآية إشارة إلى الطبع وما غرز في الإنسان كإنسان مطلق إنسان..

ولكنه ختم الآية بذكر المسرفين، فكأن الإنسان الذي يفعل هذا مسرف على نفسه متجاوز حد الأدب مع ربه..

يقول ابن عاشور رحمه الله: «المرور هنا مجازي بمعنى استبدال حالة بغيرها، أي انتقل إلى حال كحال من لم يسبق له دعاؤنا، أي نسي حالة اضطرابه واحتياجه إلينا فصار كأنه لم يقع في الاحتياج.

قال ابن جزى: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا: عتاب في ضمنه نهى لمن يدعو الله عند الضر، ويغفل عنه عند العافية»^(١).

وقال ابن الجوزي: «كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ المعنى: كما زَيْنَ لهذا الكافر الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرِّخاء، كذلك زَيْنَ للمسرفين، وهم المجاوزون الحدَّ في الكفر والمعصية، عملهم»^(٢).

من دروس الآية ١٢:

١- في الإنسان طبائع تشكل قواسم مشتركة بين أفراد النوع والفرق أن المؤمن يضبط هذه الطبائع والنوازع، والكافر الفاجر يتفلت من الضوابط ويستجيب للنوازع.

٢- الإنسان كفور فهو في الأمن ييحد وفي الخوف يفزع إلى الله ويضرع في انتهازية غير لائقة ولا كريمة.

٣- الله يعلم أن خلقه سيتقبلون ومع هذا يجب ضراعتهم لأنه جواد كريم ولا يعامل الناس بظلمهم وجهلهم وسفههم ولكن برحمته ولطفه وحلمه وكرمه.

(١) ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٣٥٣.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير، ج ٢، ص ٣١٩.

٤- التعبير القرآني المعجز في إيجازه والمصور بالفاظه عبر بكلمة واحدة عن حالة وعن موقف في قوله تعالى ﴿مَرَّ﴾.

٥- التزيين سنة من سنن الوجود ولا ظلم فيها، فالتزيين معناه أن كل من داوم على فعل حجب إليه وزين إليه، بدلالة تكراره والعودة إليه، فليس الخطر في التزيين بذاته، وإنما في المزين، فمن تعود العادات الحسنة عاودها ومن تعود السيئة عاودها.

٦- الإسراف في الفعل كالإسراف في نفقة المال.. كلاهما مؤذ مبدد مضيع.

الآية ١٣:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

الربط والمناسبة: تبدو الآية في فهمها تريد وتحتاج بيان وجه الارتباط لأنه يبدو دقيقاً أو خفياً وأظن أنه يسير إن شاء الله، فقد ذكر السياق من خلال الآيتين السابقتين نماذج من إعراض البشر للنموذج الأول كان الاستعجال ولو أن الله عاملهم بمنهجهم في الاستعجال ﴿لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ﴾ ولكن الله تركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وفي الآية الثانية نموذج الذي يتحول عن الدعاء والاحتياج إلى التكبر والاستغناء وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم جاءت هذه الآية في محلها ومكانها وموقعها وأوانها وزمانها كأنها تقول إن هؤلاء بهذه التصرفات استحقوا العقاب، أرايت كيف فعلنا بمن سبقهم؟

وانتقلت في هذه الآية إلى خطابهم بضمير المخاطب بعد التقعيد العام بضمير الغائب في السابقتين من الآيات، وقد وصفوا في الأولى بقوله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وفي الثانية بالمسرفين وهنا وصفوا بالجرمين، فالسياق كله نسق.. والسابقتان وهذه الآية نسق، فسبحان من نسق كلامه فاتسق! وكما ختمت الآية السابقة بقوله: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ﴾ ختمت هذه بقوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وهذه الآية ١٧ كلمة و٨٦ حرفاً وترتيبها ١٣٧٧.

المعنى: «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم»:

ولقد: الواو للاستئناف كأن سائلاً سأل: ما سيفعل الله بهؤلاء المتمادين في غيهم وطنيانهم؟ وما سنة الله فيهم؟ فقال السياق: ستة فيهم ستة في سابقهم.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾

واللام بعد الواو هي لام القسم وقد للتحقيق وبخاصة بعد دخولها على الفعل الماضي كالذي هنا.

أهلكنا: استأصلنا شأفتهم وأخذناهم.

القرون: أهل القرون، والمظروفون بهذه القرون^(١).

(١) وقد وردت القرون عشر مرات بدءاً من السورة رقم ١٠ في ثماني سور إذ ورد اللفظ مرتين في سورتين هما طه والقصص.

وقد ورد ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونُ﴾ في (٧) مرات وما في يونس من لفظ ﴿الْقُرُونُ﴾ هو الأول في القرآن وآخر لفظ في الأحقاف (سورة ٤٦) وقبلها يس (سورة ٣٦).

وكل موارد لفظ ﴿الْقُرُونُ﴾ من سور الحروف المقطعة عدا مرة واحدة في سورة الإسراء.

أما المواطن التي ذكرت إهلاك القرون فهي:

١ - ما في سورة يونس.

لما ظلموا: عندما ظلموا ولما تفيد أول حدوث الشيء والظلم تجاوز العدل إلى الجور والحيف.

«وجاءتهم رسلهم بالبينات»: الواو لعلها في هذا الموطن تصلح مثلثة: أي للحال والعطف والاستئناف. وإن كان الأرجح عندي أنها للحال.. والوجهان الآخران يصلحان.

وعبر بلفظ المجيء المفيد القرب، وعبر عن الرسل بالتذكير ليضيف إليهم ضمير (هم). فيتعرفوا بالإضافة.

ووصف ما جاؤوا به ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات الواضحة وهي تصدق على آيات الكتاب الذي بلغوه، أو الآيات بمعنى المعجزات إضافة للكتاب، والاثنان محتملان.

«وما كانوا ليؤمنوا»: والواو هنا كالواو السابقة.

هذا وصف للواقع لا أنه حتم عليهم مفروض ألا يؤمنوا.

لكن بحسب جودهم على تقاليدهم واستمرائهم ما هم فيه من تخلف واتباع للأهواء والشهوات، فإن هذا الحال لا يمكنهم من الإيمان بحال.

٢- ما في الإسراء ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾.

٣- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ [طه: ١٢٨].

٤- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا نُوحَ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣].

٥- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَكَثَرَتْ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨].

٦- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦].

٧- ﴿الَّذِينَ ذَكَرْنا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

فما في سورة يونس هو الموضع الوحيد الذي جاء بضمير الخطاب ﴿الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

«كذلك نحزي القوم المجرمين»:

هذا التذييل عجيب، فهل هو عائد إلى أول الآية: «أهلكنا» أم عائد إلى الأقرب من الآية وهو «وما كانوا ليؤمنوا» فاعتبر حرمانهم من الإيمان بتصلبهم وتعتهم وهو من عمل أيديهم اعتبره جزاء من ذات العمل وصاحب العمل.

أم هو أي التذييل عائد إلى الأمرين معاً: الإهلاك وما تسبب عنه من عدم الإيمان.. وهذا ما أرشحه وأرجحه.

«كذلك نحزي»: أي مثل هذا الجزاء الذي ذكرته الآية نحزي أي هي استمرارية متصلة ودأب وسنة مطردة.

نحزي ونحازي: نكافئ ونحاسب ولما كان الفعل شيئاً فالجزاء من جنس العمل. القوم المجرمين: نحزيهم على إجرامهم جزاء رهيباً فظيماً لا يقادر قدره والإجرام التجاوز الخطير.. والمجرم من ارتكب الفعل ذا الجرم، أي الجسيم المهول.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «تفسير المجرمين بالمشركين والكافرين هو في الغالب، ولا تنسَ أن في المسلمين مجرمين يقترفون الكبائر والمنكرات، ويفعلون الشنيع من السيئات ولا سيما في هذا العصر الذي طغت فيه المادة وران على قلوب أكثر المسلمين حب المال والمنصب والجاه وغير ذلك».

من دروس الآية ١٣:

١- يحذر الله عباده بعرض عاقبة من سبقوهم فقد أهلك الأولين فمن يضمن ألا يلحق بهم الآخرين؟

٢- من مجازات القرآن التعبير بالقرون وإنما المراد أهلها، فالزمان لا خطأ منه ولا حساب عليه وإنما المهلك من في الزمان.

- ٣- لا يظلم ربك أحداً وإنما أهلك من أهلكهم بظلمهم لا أنه ظلمهم.
- ٤- لا يهلك الله قوماً ولا أحداً إلا بعد إقامة البينة والحجة وإتيان الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.
- ٥- من سنة الله في الأقوام الكافرة أن تزيين ما هي فيه في نفوس القوم يحرمهم من الهدى والإيمان.
- ٦- يحذر الله الناس من سوء المصير لكنهم يسرون بأرجلهم إلى التهلكة.
- ٧- جمع القوم المهلكون بين صفتي الظلم والإجرام فكان الانتقام.

الآية ١٤:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

الربط والمناسبة: الربط محكم وظاهر لا يحتاج إلى تأمل، فبمجرد النظر ترى أن الحديث موصل فبعد إهلاك الظالمين المجرمين كما سماهم القرآن في الآية السابقة تخاطب هذه الآية الأخلاف من بعد الأسلاف المهلكين فتقول لهم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ويستمر ضمير المخاطب بين السابقة واللاحقة فقد قال في الآية السابقة: ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

وختام الآية هناك ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وختام الآية هنا ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هل تعلمتم الدرس فتجنبتم الإجرام ولا تفعلون فعلهم وتعملون مثلهم... هذا ما استبثونه أنتم أو تنقضونه.

وقد ختمت الآية ١٢ بكلمة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ وختمت هذه بكلمة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وهذه الآية ١٠ كلمات و٤٠ حرفاً وترتيبها ١٣٧٨.

المعنى: ثم: حرف عطف يفيد التراخي الزمني أو الرتبي كما هو أصل معناه، والظاهر هنا هو التراخي الزمني، أي بعد إهلاكهم جعلناكم خلائف وهذا لا يتم بين عشية وضحاها ويوم وليلة وإنما يستغرق أجيالاً. فقد بقي المؤمنون من بعد المهلكين لكن ذراري هؤلاء لا يلبثون أن تنشأ بينهم في المجتمع مراكز قوى تنحرف بالمجتمع وتتحكم بمفاصله ومصلحه وعقائده وتريد أن تعبد الناس لها من دون الله، ويرسل الله الرسل ليحرر العباد من كل شرك وطاغوت، فيقوم الصراع مجدداً وتنتهي الحلقة التالية بما انتهت به حلقة الأمس، إهلاك المكذبين المفسدين الجرمين.

وهكذا دواليك... وتدور الأيام وتتعاقب الأجيال ولا تعلم من كرور التجارب.

وقد تصلح ثم للتراخي الرتبي، فمن بقي بعد المهلكين هم جماعة المؤمنين وشتان، لكن هؤلاء سيعقبهم من ينحرف عن الجادة ويحيد عن الطريق وسواء السبيل.

«جعلناكم»: وردت جعلناكم في القرآن ٤ مرات أولها في البقرة ثم يونس فالإسراء فالحجرات، لكن ﴿جَعَلْنٰكُمْ خَلَآئِفَ﴾ لم ترد إلا هنا والجعل تصيير بعد إيجاد. وعبر بنون العظمة لأن هذا الجعل مينة كبرى تستحق التفضيم بتعظيم من وهبها من خلال التعبير بنون الجمع التي للتعظيم كما هو معلوم.

«خلائف»: تخلفون من سبقكم وتستخلفون من بعدهم بمعنى وظيفة الخلافة وليس مجرد وجود بعد مفقود.

وقد وردت خلائف كأختها جعلناكم ٤ مرات في القرآن وقد استأثرت سورة يونس بنصفها وسبقها ختام الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ثم هذه الآية في يونس ثم منها أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس: ٧٣] ثم فاطر: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩].

فهذا كل ما في القرآن من هذه الكلمة والمواضع كلها مكية.

«في الأرض»: الأرض هنا عام مخصوص إن أريد به الاستخلاف مكان المعذنين، وهو مطلق عام إن أريد به النوع الإنساني على العموم وإن كان المرشح المرجح في ضوء السياق هو الأول.

«من بعدهم»: من بعد المهلكين المبعدين المعذنين.

«لنتظر كيف تعملون»: اللام للتعليل، والله يعلم سبحانه دون وساطة من عملنا، يعلم سلفاً ومطلقاً ما سيكون، لكنه لا يحاسبنا بما يعلم منا قبل أن نعمله، ولكن عدله المطلق يعاملنا بغير هذا، فلا يحاسبنا إلا بعد أن يرى عملنا.

يقول ابن عاشور: «النظر: مستعمل في العلم المحقق لأن النظر أقوى طرق المعرفة، فمعنى ﴿لِنَنْظُرَ﴾ لتتعلم أي لنعلم علماً متعلقاً بأعمالكم. أ. هـ.».

وقد عبر عن هذا المعنى بصيغ متعددة ففي آل عمران على سبيل المثال لا الحصر: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ أي علم انكشاف بالعمل، لا بالعلم المطلق الذي يسبق عملكم.

«كيف تعملون»: المهم كيفية العمل، فالكل يعمل، والمفسد يعمل والمصلح يعمل ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ﴾ لكن النظر إلى الكيفية، أبالإحسان أم بالسوء.. أبالإخلاص

أم بالرياء والسمعة.. أبالنفع العام بما ﴿يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.. أم للأنانية والفردية والمصلحة الذاتية.. اللذين أم للهوى.. الله أم للطاغوت..؟

يقول صاحب الظلال رحمه الله: إن شعور الإنسان بأنه مبتلى بأيامه التي يقضيها على الأرض وبكل شيء يملكه وبكل متاع يتاح له يمنحه مناعة ضد الاغترار والغفلة ويعطيه مناعة ووقاية من الاستغراق في متاع الحياة الدنيا.

قال النسفي: «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا: إِنْ بَقُوا وَلَمْ يَهْلِكُوا، لِأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يصرون على كفرهم، وهو عطف على ظلموا، أو اعتراض. واللام لتأكيد النفي، يعني أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إهلاكهم. بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل»^(١).

وقال أبو حيان: «وَمَعْنَى لِنَنْظُرَ: لِنَتَبَيَّنَ فِي الْوُجُودِ مَا عَمِلْنَاهُ أَوَّلًا، فَالْتَّظَرُ مَجَازٌ عَنْ هَذَا. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ التَّظَرُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَفِيهِ مَعْنَى الْمُقَابَلَةِ؟ (قُلْتَ): هُوَ مُسْتَعَارٌ لِلْعِلْمِ الْمُحَقَّقِ الَّذِي هُوَ عِلْمٌ بِالشَّيْءِ مَوْجُودٌ، أَشْبَهَ يَنْظُرُ النَّاطِرِ وَعِيَانِ الْمُعَايِنِ فِي حَقِيقَتِهِ انْتَهَى... وَقِيلَ: لِنَنْظُرَ، هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ: لِنَنْظُرَ رُسُلَنَا وَأَوَّلِيَاؤَنَا»^(٢). (والمعنى الثاني فيما أرى بعيد).

من دروس الآية ١٤:

- ١- تتعاقب الأجيال على هذه الأرض والأخلاف من بعد الأسلاف حتى يأتي الأجل الذي حدده الله لنهاية الأرض ومن على الأرض أسلافاً وأخلافاً.
- ٢- قلّ المعتبرون من أحوال الغابرين.
- ٣- تتكرر مأساة اللاحقين دون ملاحظة عبرة السابقين.

(١) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٢، ص ١٠.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٦، ص ٢٢.

٤- البشر العقلاء الذين أكرمهم الله بالروح والعقل يتصرفون كالمخلوقات التي بلا تاريخ ولا انتفاع من دروسه وعظاته وعبره، فيكررون فعل سابقهم، مع أن أهم خصائص الإنسان أنه كائن ذو تاريخ أي ذو اعتبار وانتفاع مما سبقه ولذا فهو يُراكم على معرفتهم ولو كنا نعيد الكرة من الصفر لما تقدم البشر ولا ستمتر. فلماذا في موضوع الإيمان وقضية الدين لا يراكمون ولا ينتفعون؟

٥- أن هذا التصور الذي ينشئه القرآن في القلب البشري يظل يثير فيه حساسية وتقوى هي صمام الأمن له ولجتمعه الذي يعيش فيه.

الآية ١٥

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِنَفْسِي إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْنَا إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٥﴾.

الربط والمناسبة: انتهت بالآية السابقة موجة من الآيات، وموضوع أو مقطع وابتدأ مقطع جديد موصول بطبيعة الحال، وموجة إثر موجة، فقد انتهت الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فأرانا السياق صفحة من هذا العمل بأنهم إذا تلى عليهم الآيات واضحات جليات قال الذين لا يؤمنون بقاء الله في اليوم الآخر نريد قرآنًا غير هذا، وهي صورة من استكبارهم وعنادهم وإصرارهم على الباطل وظلمهم وإسرافهم وإجرامهم الذي تكلم عنه السياق قبل قليل في الآيات الآتية.

ورجع السياق إلى ضمير الغائب بعد آيتين اتسمتا بضمير المخاطب.

وهذه الآية ٣٩ كلمة و١٣٩ حرفاً وترتيبها ١٣٧٩.

المعنى: وإذا: الواو للاستئناف أو لعطف موضوع على موضوع.

وإذا: ظرف لما يستقبل من الزمان تفيد تحقق الوقوع وهي تفيد معنى الشرط.

تتلى: فعل الشرط، ومعنى التلاوة: القراءة. وأصل معنى التلاوة المتابعة، تقول:

جاء فلان تلو فلان. فعمر تلو الصديق، رضي الله عنهم. والتلاوة متابعة الكلام جملة تلو جملة.. وبني الفعل للمجهول أي بقطع النظر عن من يتلو وهو الرسول نفسه عليه الصلوات، أم أي تال سواء... فالنتيجة واحدة، والصدود واحد.

عليهم: أي على أسماعهم، وعبر بعلينهم ليفيد الكلية، فهذا الكتاب وآياته مما

ينبغي أن تنفعل له الكينونة كلها وتستجيب له الطاقات المكنونة في الكينونة بأجمعها.

آياتنا: جمع آية، وقد سمي مولانا سبحانه نصوص كتابه آيات، أي علامات

دالة عليه سبحانه، كآياته الكونية كالشمس والسموات والأرض والقمر.. وهي معجزة كذلك المعجزات الكونية، وكذلك المعجزات المادية التي زود الله بها الرسل فكلها سماها مولانا آيات... أي علامات دالة عليه تبارك وتعالى.

بينات: أي واضحات جليات.. لا غموض في معانيها ولا تعقيد ولا تعويص

ولا صعوبة في فهمها لمن أراد الفهم.. وأراد العمل والتطبيق.

«قال الذين لا يرجون لقاءنا»: عبر عن عدم الإيمان بالآخرة بلازمه وهو عدم

رجاء اللقاء، فكيف يرجو امرؤ ثمرة شيء هو لم يغرسه ولا يؤمن بوجوده أصلاً؟ وكيف يرجو لقاء الله من لا يؤمن به؟ وكيف يرجو الجنة من لم يؤمن بها ولم يعمل لها؟

وعبر بنون الجمع «لقاءنا» لتعظيم ذاته وهو العلي العظيم المستحق التعظيم بل

لا عظيم سواء سبحانه.

ائت بقرآن غير هذا: يريدون تغييره مطلقاً بمعنى الإتيان بقرآن لعلهم يريدون كتاباً لا يصادم شركهم ومألوفهم ويقرهم على عاداتهم وظلمهم وفجورهم واستعلائهم وطبقيتهم وفحشهم وفسقهم وضلالهم، وأنى هذا؟ فما نزل القرآن إلا ليناقض كل هذا ويقر ألوهية الله وحده لا ليقر الشرك والتعدد، معاذ الله، وليرفع الظلم من حياة الناس واستعباد الناس للناس...

فكيف تطالبون بقرآن غير هذا القرآن؟

وقولهم: ائت.. ناشئ عن تصور باطل عندهم مقتضاه أن القرآن من عنديات النبي ﷺ بدلالة ائت، أي كما أئيت بهذا القرآن الذي بلغتنا إياه، ائت بسواه.

أو بدله: ما الفرق بين ﴿بَشْرًا غَيْرَ هَذَا﴾ وبين ﴿أَوْ بَدَلَهُ﴾. أعتقد أن المعنى ببساطة: ﴿غَيْرَ هَذَا﴾ أي غيرية مطلقة أي سواه بالكامل، أما التبديل فهو تغيير بعض محتوياته أو أجزائه بمعنى أنهم قد يقبلون به من حيث المبدأ لكن المطلوب تعديل بعض مواده.. كما يفعل الناس بمادة في دساتير بلادهم أو مواد، ولكنهم يقرون بجملة.. والله ولكلامه المثل الأعلى، وإنما الاقتراح شيطاني قصده تثبيت توهمهم أن القرآن ليس من عند الله وإنما هو من لدن الرسول.

وساء ظنهم واعتقادهم وتصورهم وتوهمهم.

قل: الأمر للرسول ﷺ أن يقول لمن اقترحوا عليه.

ما يكون لي: ما يحق لي بحال، ولا ينبغي، ولا يكون في وقت من الأوقات وأعتقد أن هذه الصيغة من صيغ النفي هي من أبلغ أو أبلغ صيغ النفي.

أن أبدله من تلقاء نفسي: اكتفى بنقطة واحدة من النقطتين اللتين طرحوهما، فهم اقترحوا التغيير والتبديل وجاء الجواب على المقترح بنفي الاختصاص في

مسألة التبديل.. وهذا من باب نفي الأقل ليفهم منه نفي الأكثر، ونفي الأدون ليفهم منه نفي الأعلى فتفطن!

قال الزمخشري: «فإن قلت: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن.

قلت: بلى، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز وكانوا يقولون ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ ويقولون ﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغائها إذا عجزوا عنه كان الواحد أعجز». أ. هـ.

وقوله تعالى: من تلقاء نفسي أي دون الرجوع إلى صاحب الأمر، أي من عندي وبقراري.

«إن أتبع إلا ما يوحى إلي»: لست أتبع إلا الوحي الذي أنزله إلي ربي فهو صاحب الشأن إن شاء بدل وإن شاء ثبت ولم يبدل، والواقع أنه ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤] ولا تبديل لسننه في الوجود^(١).. ولا راد لأمره ولا مغير لحكمه ﴿وَلَا يُبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وفي نص آخر قال مولانا: ﴿يَسْمَا يُوحَىٰ إِلَى رَيْتٍ﴾ واكتفى هنا بالبناء للمجهول لأنه معلوم، وليس المقصود هنا التفصيل في المصدر وإنما التركيز على نفي أنه من عند الرسول عليه الصلوات، وإنما هو من عند منزل الآيات سبحانه... وأنا مجرد متلق مبلغ.. لا غير.

«إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم»:

(١) ورد نفي تبديل سنن الله في أكثر من موضع وهذه هي: ﴿وَلَنْ يَّجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:

٦٢، والفتح: ٢٣]، ﴿فَلَنْ يَّجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَّجْدِلَ سُنَّةَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

إنما أنا عبد، أخاف إن عصيت ربي بأي أمر أو تعديت حدودي ونخطيت ما رسم لي، أو زدت أو نقصت، معاذ الله، أخاف عذاب يوم عظيم، العذاب فيه عظيم، واليوم بذاته عظيم.

فهل هذا قول صاحب أمر بتبديل أو تغيير أو قول عبد لا حول له ولا قوة في هذه المسألة؟

قال القرطبي: «الفرق بين تبديله والإتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه، والإتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه».

قال ابن كثير: «إِذَا قَرَأَ عَلَيْهِمُ الرُّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابَ اللَّهِ وَحُجَّجَهُ الْوَاضِحَةَ قَالُوا لَهُ: أَلَيْتَ يَقْرَأُ غَيْرَ هَذَا أَيْ: رُدْ هَذَا وَحِثْنَا بِغَيْرِهِ مِنْ نَمَطٍ آخَرَ، أَوْ بَدِّلْهُ إِلَى وَضْعٍ آخَرَ، قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي: أَيْ: لَيْسَ هَذَا إِلَيَّ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ، وَرَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ»^(١).

وقال السعدي: «إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ: فهذا قول خير الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه، فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين، الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد، والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟!»^(٢).

من دروس الآية ١٥:

١ - لا ترجى الثمار إذا لم تزرع الأشجار، فكيف يرجو الآخرة ولقاء الله فيها من كان لا يؤمن لا بالله ولا باليوم الآخر.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٥٣.

(٢) تفسير السعدي، ج ١، ص ٣٥٩.

- ٢- في حرب هذا الدين يخوض الكفار محاولة كسر الثوابت، وحاشا للإيمان أن يتزحزح عن ثوابته وللمؤمنين أن يزولوا عن حقائقهم.
- ٣- اقترح الكافرين تبديل القرآن أو تغييره ليوافق أهواءهم مبعثه جهودهم وكبرهم واستعلاؤهم وعدم وجود نية لديهم لتغيير ما هم عليه.
- ٤- الرد الحاسم من رسول الله ﷺ أنه لا يملك أن يغير شيئاً بأمر نفسه ومن تلقاء نفسه يؤكد عبوديته وأنه ما هو إلا مبلغ لكلمة الله.
- ٥- رسول الله متبع لما يوحى إليه وليس منشئاً شيئاً من عند نفسه فالوحي يأتيه من السماء ولا يتصرف هو بشيء منه إلا بالبلاغ والبيان.
- ٦- الرسول عبد يخاف من مولاه إن هو عصاه أن يتعرض لأليم عذابه وعظيم عقابه.
- ٧- إن هذا القرآن دستور شامل للحياة ومن يدركه على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواء أو تبديله.

الآية ١٦:

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَسْتُ فِيكُمْ

عُمَرَا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

الربط والمناسبة: الآية في علاقتها بسابقتها أوضح من أن تحتاج إلى بحث أو طول تأمل، فالكلام فيهما عن القرآن، أما السابقة فبينت أنه عليه الصلوات لا يبدل شيئاً وهذه زادت على ما هنالك أن الله لو شاء لم أتله عليكم ولا أعلمكم به

ولقد مكثت فيكم عمراً طويلاً قبله ما تكلمت منه أو قريب منه بشيء أفلا تتبهون أفلا تعقلون؟

وهذه الآية ١٨ كلمة و ٦٥ حرفاً وترتيبها ١٣٨٠.

المعنى: قل: أمر للرسول عليه الصلوات أن يقول.

لو: أداة شرط فعلها الفعل الماضي شاء، وخبره: ما تلوته.

لو شاء الله: لو أراد الله بمشيئته المطلقة ما تلوت عليكم شيئاً من هذا الكتاب أو هذا الوحي لا كُلاً ولا بعضاً، ولكنه شاء بخلاف ذلك أن أبلغكم وأن أتلو عليكم آيات هذا الكتاب فمرد الأمر إليه، ومرجع كل شيء إليه، ولا راد لمشيئته سبحانه، وهذا ما شاءه وأراده أن أكون مبلغكم.

ولو شاء الله كذلك ما أدراكم بشيء من هذا القرآن لا كُلاً ولا بعضاً لا عن طريقي ولا عن طريق غيري، ولكن واقع الأمر أنه شاء أن يبلغكموه وأن يحملكموه وأن يدعوكم للإيمان به وحل تكاليفه وأن تدعوا الناس إليه وتبلغوهم إياه.

فقد لبثت فيكم عمراً من قبله: الفاء للتفريع والتفصيل.

لبثت: عشت فيكم وأمضيت عمراً طويلاً بينكم لم أتكلم بشيء من هذا الوحي، فلو لم يكن الأمر تكليفاً وتوقيتاً إلهياً لي ولكم تأكد، لما كنت تكلمت معكم بخصوص هذا الكلام قبل هذا الوقت، لكنه لم يحصل، فلماذا إذا؟ ببساطة لأنني لم أكن حملت هذه الأمانة بعد، فمرد الأمر ليس إلي، وهذا توكيد لما مر في الآية السابقة.

ولبث تتعلق بالزمان حيثما وردت في القرآن وبالاستقراء يتضح البيان والبرهان: ﴿لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا...﴾، ﴿لَبِثْتُ فِي بَطْنِهِ﴾ إلى يوم يُعْثَرُونَ ﴿.

﴿كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةً عَامٍ﴾، ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، ﴿كَمْ لَيْتَ قَالُوا لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...﴾، ﴿كَمْ لَيْتَ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾.

﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً...﴾، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾، ﴿لَيْتَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾.. إلى آخره.

عمرًا: أي الأربعين سنة قبل التكليف بالنبوة والرسالة والبلاغ وهو أغلب عمره الشريف ﷺ.

من قبله: أي من قبل أن أحمل إليكم هذا القرآن وأبلغكم آياته.

أفلا تعقلون: الهمة للاستفهام.

والفاء للعطف والمعطوف عليه محذوف، أي أتجهلون فلا تعقلون؟

ومعنى الاستفهام المنفي الحض على التعقل والتفكير.

تعقلون: لازم يفيد الإطلاق، وإن كان متعدياً يكون المفعول محذوفاً، كأن يقول مثلاً: أفلا تعقلون هذه الحقيقة؟ والعقل والتعقل: إدراك الأشياء وفهمها.

وقد وردت تعقلون ٢٤ مرة تكاد تكون مقسومة بين الاستفهام أفلا تعقلون وبين الترجي لعلكم تعقلون. وما في سورة يونس هو الموضع رقم ١٠ وهي السورة رقم ١٠ بترتيب المصحف، ولكنها السورة رقم ٥ بترتيب مواضع ورود كلمة تعقلون، ويليهما ١٤ مرة و١٢ سورة. وأما يعقلون فقد وردت ٢٢ مرة وورد منها في يونس مرتين ولم يسبقها في عدد مرات الورد إلا سورة البقرة.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «لو شاء الله ما تلوته عليكم وتلاوته هي دليل الرسالة، لأن تلاوته تتضمن إعجازه علمياً: إذ جاء به من لم يكن من أهل العلم، وبلاغياً إذ جاء كلاماً أعجز أهل اللغة كلهم مع تضافرهم في بلاغتهم وتفاوت مراتبهم».

قال السمين الحلبي: «وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ: أي: ولا أعلمكم الله به، مِنْ ذَرَيْتُ، أي: علمتُ. ويقال: ذَرَيْتُ بِكَذَا وَأَذَرَيْتُكَ بِكَذَا، أي: أحطت به بطريق الدُّرَاية، وكذلك في «علمت به» فَتَضَمَّنَ العِلْمُ معنى الإحاطة فتَعَدَّى تَعْدِيَّتَهَا... والضمير في «قبله» عائد على القرآن. وقيل: على النزول. وقيل: على وقت النزول. و «عُمُرًا» مشبهة بظرف الزمان فانتصب انتصابه، أي: مدة متطاولة. وقيل: هو على حَذَفٍ مضاف، أي: مقدار عُمُر»^(١).

من دروس الآية ١٦:

- ١- لله المشيئة المطلقة فلو أراد ألا يبلغهم النبي هذا القرآن لم يبلغهم، ولو شاء ألا يعلم العرب به لما علموا.
- ٢- لقد لبث النبي في أمتنا عمره أربعين سنة قبل نبوته لم يتكلم من القرآن بكلمة.. فكيف لا يعتبرون.
- ٣- من يقللون من شأن العقل في إدراك النقل لا يدركون مكانة العقل في هذا الدين فقد وردت تعقلون ٢٤ مرة في القرآن ووردت يعقلون ٢٢ مرة وغيرها من مادة هذا الفعل، فعلام يدل كل هذا العدد من مرات الورد؟
- ٤- العُمُر: مدة الحياة - اشتق من العمران، لأن مدة الحياة يَعُمُرُ بها الحي العالم الدنيوي.

(١) السمين الحلبي، الدر المصون، ج٦، ص١٦٤-١٦٥.

الآية ١٧:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن القرآن وأن الله لو شاء ما تلاه النبي عليه الصلوات على قومه وأن الأمر إلى الله لا إليه ﷺ ولو شاء الله ما أدرى قوم النبي بالقرآن، والآن يستمر الحديث عن القرآن بصيغة أخرى مفادها أن من افترى على الله كذباً فلا أحد أظلم منه ومثله من كذب بآيات الله، وختمت الآية بعدم فلاح المجرمين أي الفريقين كليهما.

من افترى وزعم إلى الله ما لم يكن ومن كذب بالآيات.. فهو تنصل مما يزعمون بطريقة أخرى غير ما في السابق، على طريقة القرآن في التفنن في التعبير والإحاطة بالموضوع من كافة جوانبه وأقطاره.

وهذه الآية ١٤ كلمة و٥٤ حرفاً وترتيبها ١٣٨١.

المعنى: فمن: الفاء تفرعية على ماسبق، ومن: اسم موضوع للاستفهام.

أظلم: صيغة أفعال لبيان شدة الظلم، ومعنى الاستفهام النفي والإنكار أي لا أحد أظلم من هذا الذي سببته الآية.

من: هذه الكلمة تتكون من حرف الجر من والاسم الموصول من أي من الذي، واستخدم الاسم الموصول مرة أخرى لاستحضار صلته وتفصيل القول.

افترى على الله كذباً: ما أقرب الشبه بين هذه الآية وآية الأنعام وكم تلتقي سورة يونس مع سورة الأنعام في كثير من النصوص والموضوعات.

فهناك قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

تقرر الآية أن لا أحد أظلم ممن زعم إلى الله ما ليس له وبخاصة من كلام أو وحي فهو بهذا يضل الناس.

وحاشا لرسول الله أن يكون كذلك بل هو أعظم الهداة عليه الصلاة والسلام، ومن قال هذا القول كيف يكون ممن يستجيز الافتراء على الله.

والنص شامل مطلق على كل حال، فهو يشمل هذه الصورة من المعنى وغيرها، فمن قال كما في الأنعام: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ هو ممن افترى على الله، وفي أول الآية آفة الذكر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾.

أو كذب بآياته: عطف على ما سبق فأو للتفريع والتنويع، فلا أحد أظلم من هذا أو هذا، فالاثنان مشمولان بالأظلمية.

ولئن كان الجزء السابق يلمح إلى ما زعموه من تقول رسول الله، وحاشاه، فإن هذا الجزء من الآية يتكلم عنهم هم فهم الذين كذبوا بالآيات.

إنه لا يفلح المجرمون: هذا هو ختام الآية أو تذييلها، وهو يقرر أنه لا فلاح للمجرمين، سواء كان المجرم ممن افترى أو ممن كذب، وهذا ناموس من نواميس الله في الوجود ومن سنته في الخلق والمجتمعات، ودعوة رسول الله عليه الصلوات هي الفلاح عينه، فكيف تكون مفتراة..؟

ورسول الله أفلح المفلحين، فكيف يتفق هذا مع هذا؟ أي كيف يكتب الله له الفلاح وهو بزعمكم يقول على الله؟ لا حل إلا أنكم تفترون على رسول الله تنسبون إليه ما ليس له في الواقع ذرة من وجود.

قال ابن عادل: «والمعنى: أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله، لما كان أحدًا في الدنيا أظلم على نفسه مني، حيث افتريته على الله، ولما أقمتُ الدليلَ على أنه ليس الأمر كذلك، بل هو وحيٌّ من الله تعالى، وجب أن يقال: إنه ليس في الدنيا أحد أجهل، ولا أظلم على نفسه منكم. والمقصود: نفي الكذب عن نفسه»^(١).

من دروس الآية ١٧:

١- كثرت في القرآن صيغة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، و﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وتعددت الصور المتحدث عنها، فكيف نوفق بينها؟ والجواب أن كل واحدة من الصور مما تحدثت عنه الآيات هو قمة الظلم، فمنع مساجد الله ظلم والمانع العباد عنها أظلم العباد، والشرك ظلم والمشارك من صنف الأظلمين، والمفتري على الله كذلك والمكذب بالآيات كذلك.. وهكذا قل في كل الصور.

٢- الإنصاف في الحِجَاج والإنصاف من الذات قبل الانتصاف من أهل الخلاف.. فقد ألح إلى نفسه عليه الصلوات كما بينت الآية وعممت بطبيعة الحال، وحاشاه من ذلك، لكن يقول هذا لم حاجة قومه.

٣- ختام الآية يحسم بدايتها بمعنى طالما أن القاعدة في الخلق أن المجرمين لا يفلحون، والمفترون والمكذبون مجرمون، فكيف يفلح من كان من هؤلاء، وهذا برهان عملي على صدق رسول الله ﷺ.

٤- الظلم هنا بمعنى الاعتداء، وإنما كان أحد الأمرين أشد الظلم لأنه اعتداء على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته.

الآية ١٨

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَرَبُّوهُوَ هَهُؤُلَاءِ
شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ
وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨)

الربط والمناسبة: الحديث عن هؤلاء الكافرين المعاندين المقترحين المقترحات على خاتم النبيين والمتقولين التقولات عليه، الحديث عنهم مستمر، فكأنه في هذه الآية يبين أساس سلوكهم ذاك، وأنه منطلق من عبادتهم غير الله، فهذا أس البلاء وجذر الداء، اتباع الأهواء، وعبادة من ليس له من أثر في الأرض ولا في السماء.. فيا من تعبدون ما لا يضر ولا ينفع هل تعلمون الله بما لا يعلم، فهو لا يعلم أن له شريكاً، إذاً فلا شريك له إلا إذا زعمتم كاذبين أنكم تعلمون الله، وهذا ما لم يقله أحد منهم فنقضت كل دعاوهم.

وهذه الآية ٢٩ كلمة و١١٨ حرفاً وترتيبها ١٣٨٢.

المعنى: ويعبدون: الواو إما للاستئناف وهو كلام يجيب عن سؤال نشأ من الكلام السابق، فكان سائلاً سأل: ما حل هؤلاء على مواقفهم المتشددة من الدين والكتاب المبين وأعظم المرسلين؟ فكان الجواب لأنهم يعبدون سوى الله، وهذا يجعلهم يخطئون هذا الخط ويخطئون هذا الخلط، ويغلطون مثل هذا الغلط ويغالطون الأغاليط، أو: الواو للعطف، تعطف موضوعاً على موضوع أو قصة على قصة.

ويمكن أن نعدها للحال وهذا الاحتمال الأضعف أو أضعف احتمال كأنه قال: إنه لا يفلح المجرمون والحال أنهم يعبدون من دون الله.

والعبادة: الطاعة والامتثال والقيام بالشعائر تعبيراً عن هذا الاعتقاد أو هذا التصور والموقف الفكري والاعتقادي.

من دون الله: أي ارتضوا عبادة من سوى الله، علماً بأن الله هو الذي خلقهم وهو الذي رزقهم وهو الذي يلجؤون إليه في الشدائد كلما دهمهم شيء أو حزنهم أمر، فكيف يستوي هذا في عقل سوي والأدهى أن من يعبدونهم لا يضرّونهم ولا يملكون ذلك ولا ينفعونهم ولا يملكون ذلك كذلك، فكيف ولماذا يعبدونهم، وأنت تعبد الله لأنه الحقيق بالعبادة هذا أولاً، ولأنك تريد أن يدفع عنك أي ضرر يمسك، وأن يجلب لك كل ما تحتاج وكل ما ينفعك.

ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله: ويزعمون بلا دليل ولا إثارة من علم أن هؤلاء المعبودين أو المعبودات من دون الله هم شفعاؤهم عند الله، وأسوأ شيء أن يخترع الإنسان وهماً أو خرافة ثم يصدقها هو وهو قد اخترعها وابتدعها، وكم عجيب أمر هذا الإنسان، ألم يخترع قوم أكذوبة أنهم شعب الله المختار وصدقوها واعتنقوها واعتقدوها وهم مصنوعوها وخترعوها. والأدهى أن يطلبوا من العالم أن يصدقوها وجلّهم ممن صدّقوها، فاعجب عجباً لا ينتهي من هذا الإنسان، وكيف يضل نفسه بأحابيل وأضاليل أضل بها نفسه وأهلك بها نفسه وأهله. فتأمل.

والشفيع مفهوم ديني إن فهم على مراد الله، ومفهوم شركي وثني جاهلي إن فهم على مخترعات الأقوام وأساطير الشعوب وعقلية الوساطة والمحسوبة حتى في الأمور الدينية، فهم قد تعودوا الاستثناء من خلال الوساطة فكيف تحرّروا من هذه العقلية؟ ففرب الجاهلية بجاهلهم يغيرون اتجاه الحقائق وجاء من يلوذون بهم، هذه التصورات تصاحبهم في عقائدهم، فكانت فكرة الشفعاء بالمفهوم الجاهلي، أقرب إلى التصورات الساذجة عن الوساطة كما أسلفنا.. وكما هو مألوفهم،

فمفهوم الشفاعة بهذا الفهم وهذا التصور مرفوض مردود، فلا أحد يتدخل في أحكام الله، ولا تتغير لشفاعة أحد..

إنما المفهوم الشرعي أن الله تعالى يأذن للرسول مثلاً أن يشفع لمن أذن الله له أن يشفع فيهم، من أناس، قريين من درجة النجاح، فيعفو الله عنهم بلطفه وكرمه ويظهر للخلائق كرامة هذا النبي الكريم، أو يأذن للشهداء أن يشفعوا ببعض الأقرباء ممن هم على حواف المعدل المقبول، فيشفعون بإذن الله، ولمن أذن الله أن يشفع له ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]^(١).

فخلط المفاهيم، المقبول بغير المقبول، هذا أمر خطير وغير مقبول، وهو عند كثير من الناس مجهول.

قل أتنبئون الله بما لا يعلم: هذا الجزء من الآية رد على عبادتهم من لا يضر ولا ينفع، وزعمهم أنهم شفعاء، فالله لا يعلم أن هؤلاء آلهة أو شركاء أو شفعاء، إذا فكأنكم تعلمون الله بما لا يعلم، وهذا ما لم يقله أو يزعمه أحد، فنقض قولهم من أساسه لأنه بني على غير أساس أصلاً.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام وإعلان بأن الذي أنبأوا به باطل غير منظور تحت الصحة فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلم».

في السماوات ولا في الأرض: الله تعالى يعلم كل ما في السماوات وكل ما في الأرض، ولما كان لا يعلم عن هؤلاء الشركاء المزعومين، إذا فلا وجود لهم في

(١) لاحظ أن هذه الآية هي الوحيدة ووردت أين؟ في سورة الأنبياء. فتأمل!.

الأرض ولا في السماء، لأنه ما من حاضرة ولا غائبة ولا شاهدة إلا يعلمها، فكيف لا يعلم ما زعمتم اللهم إلا إذا كان لا وجود له البتة، وهذا هو الحق والواقع.

سبحانه وتعالى عما يشركون: تنزه الله وارتفع شأنه وقدره عما يزعم هؤلاء الزاعمون ويشرك هؤلاء المشركون ويدعي هؤلاء المدعون.

قال النيسابوري: «ثم قبح الله أصنامهم معارضة لهم بنقض مقصودهم من الالتماس فقال وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ... إن عبوده، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً معاقباً. وفيه إشعار بأنها جماد، والمعبود لا بد أن يكون أكمل من العابد، وإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله فلا تليق العبادة إلا له»^(١).

من دروس الآية ١٨:

- ١- ما أعجب أن يضل الإنسان نفسه بأوهام يخترعها ثم يعتنقها ويصدقها.
- ٢- كثير من سلوك الكافرين يفسره هذا الأمر فالصد عن سبيل الله، وتكذيب رسول الله، والكفر بآيات الله، كل ذلك مرده إلى أوهامهم التي توهموها ومخترعاتهم التي اخترعوها من نظرية الشركاء والشفعاء والآلهة المزعومين.
- ٣- لا يغيب عن علم الله شيء لا في الأرض ولا في السماء، فلما لم يعلم الله له شريكاً فيهما إذاً فلا شريك له فيهما والدعوى مردودة من الأساس لأنها بلا أساس.
- ٤- لم يزعم أحد من المشركين أنه يعلم الله أو أنه أعلم من الله ولما لم يقل أحد ذلك وقال الله إنه لا يعلم له شريكاً فقد حسمت في العقل السوي كل قضايا الشرك والشركاء.

٥- النفس البشرية حين تنحرف لا تقف عند حد من السخف.

(١) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج ٣، ص ٥٦٩.

٦- قدم ذكر الضر على النفع لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام، فإذا كانوا لا يملكون الضر فمن باب أولى لا يملكون النفع.

٧- اختيار صيغة المضارع ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ و﴿وَيَقُولُونَ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة من استمرارهم على عبادتها.

الآية ١٩

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

الربط والمناسبة: تبدو الآية تحتاج إلى تأمل لمعرفة وجه اتصالها بما سبقها، والأمر يسير بإذن الله. فقد كان النص السابق يتحدث عن شرك الذين يعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.. فجاء السياق في هذه الآية يبين أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد فاختلَفوا بعد ذلك عن هذا الجامع الذي يجمعهم. وهذه الآية ١٧ كلمة و٧٠ حرفاً وترتيبها ١٣٨٣.

المعنى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ما أشبه هذا النص بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] وإن كنت أرى أن المعنى قد يكون مختلفاً، فهناك كان الناس أمة واحدة متفقة على الكفر بدلالة قوله تعالى بعدها مباشرة ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ...﴾ فلو كانوا على التوحيد فلم يبعث النبيين؟ وهنا على العكس كان الناس أمة واحدة على الإيمان فاختلَفوا بأن تركوا النهج الذي يوحدتهم.

فما في البقرة لم يأت بصيغة الحصر والقصر كما هنا، فكونهم على الكفر لا يحتاج إلى أسلوب الحصر والقصر.

وأما الذي احتاج أسلوب الحصر والقصر فهو كونهم على الإيمان، فمغايرة الأسلوب تنبئ عن مغايرة الواقع المتحدث عنه النص. والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨، والنحل: ٩٣]، ومثله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] وورد مثله مع مغايرة ضمير الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى: ٨].

فهذه أربعة مواضع اعتقد أنها جميعاً بمعنى أمة واحدة على الإيمان، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا...﴾ فهي هنا أمة واحدة على الكفر بدلالة النص بلا اجتهاد في الفهم، فبعد جعلنا جاء ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوشِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فُضْفَةٍ﴾ فتعين المعنى أنه أمة واحدة على الكفر.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ ﴿وَلِإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فالكلام عن أمة الإسلام الواحدة المتفقة المتحددة على عبادة الله وتوحيد الله وعلى منهج الله. فهذه تسعة مواضع تتحدث عن الأمة الواحدة، ولكل موضع دلالة وسياقه ومعناه..

ونعود إلى آيتنا من سورة يونس:

وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفُوا...﴾ أي بعد التوحيد وقع الخلاف بينهم لتعدد الآلهة وتعدد المرجعيات.

ولولا كلمة سبقت من ربك: أي بأن لا يعجل للناس العقوبة والهلاك.

لقضي بينهم فيما فيه يختلفون: أي لحكم الله بين الجميع بأن عقاب المبطل والضال وكافاً المحسن والمهتدي.

ولكان حسم الأمر بفناء من يخرج على منهج الله وفطرة الله.

وقدم «كلمة» على «سبقت» لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب وعقاب.

«وأشار ذلك إلى أن هذا الأمر الذي دعوا إليه ليس أمراً طارئاً حادثاً، فيكون بحيث يتوقف فيه للنظر في عواقبه، والتأمل في مصادره وموارده، بل هو - مع ظهور دلائله، واستقامة مناهجه، وصحة مذهبها، وإلقاء الفطر أزيمة الانقياد إليه - أصل ما كان العباد عليه، وما هم فيه الآن هو الطارئ الحادث، مع ظهور فساده ووضوح سقمه، وهو ناظر إلى قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾^(١).

من دروس الآية ١٩:

١ - ما يوحد الناس وحدة المنهج وتوحيد الإله والإيمان.

٢ - يفرق الناس تفرق الآلهة والمعبودات واختلاف الأهواء والمصالح.

٣ - وردت ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بمعنى مغاير والنص واحد، فقد كانوا أمة واحدة على الكفر وكانوا أمة واحدة على الإيمان وكله قد كان، وإنما يحدد المعنى ويعينه السياق.

٤ - الفطرة في أصلها كانت على التوحيد والشرك عارض.

الآية ٢٠:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

الربط والمناسبة:

قال السياق الكريم قبل أربع آيات بعض مقولات ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وبعض مقترحاتهم التعسفية: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْبَدَلَهُ﴾ والآن يستأنف السياق هذه المقولات والمقترحات من قبلهم فهم هنا يقترحون التالي ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فالآية نسق مع السياق.

أما علاقة الآية بسابقتها مباشرة فقد كانت الآية السابقة تحدث عن استحقاقهم أن يقضي الله فيهم بأمره ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ والآن يذكر السياق حثية جديدة تجعلهم يستحقون أن يقضي فيهم بأمر الله لولا تقدير الله الأزلي المسبق.

وكذلك كانت الآية السابقة تتكلم عن الاختلاف بين الناس، ﴿فَلَا تَخْتَلَفُوا﴾ وفي آيتنا هذه صورة من صور هذا الخلاف أو الاختلاف عبروا عنه بهذا الاقتراح ليبرروا الخلاف مع أهل الإيمان أو بالأحرى عدم إيمانهم.

وأيضاً فإن الآية السابقة كانت تحدث عن القضاء بينهم وهذه الآية تقول ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ فكانها جواب على عدم تعذيبهم حتى اللحظة.

وأيضاً فإن السابقة ختمت بالفعل المضارع يختلفون وافتتحت هذه به ويقولون. فتأمل.

وهذه الآية ١٦ كلمة و٦٩ حرفاً وتسلسلها ١٣٨٤.

المعنى: ويقولون: الواو للاستئناف، واختار النص التعبير بالمضارع لتصوير حالتهم وتقولانهم.. فكأنهم يقولون ما يقولون للتو واللحظة.

لولا: هذه لولا التحضيضية، أي هلا أنزل عليه.

أنزل عليه: عبر النص الكريم بالفعل الماضي المبني للمجهول أي بقطع النظر عما ينزل عليه.. ولو قالوا لولا أنزل الله عليه لكان اعترافاً منهم بربانية القرآن وهم لا يريدون أن يقدموا هذا الدليل على أنفسهم. فالبعد النفسي للتعبير بالفعل المبني للمجهول أنهم لا يريدون الإقرار بالحق، فهم متبهنون يقظون لما يتلفظون.. ويحاسبون على اللفظة والكلمة.

آية: أي آية حسية مادية محسوسة، ولو قلنا لهم إن القرآن آيات تدل بإعجازها على الله منزلها، لقالوا: نريد دليلاً قاطعاً مادياً. ولو جاءهم لقالوا سحر ولقالوا سكرت أبصارنا.. ولقالوا.. يتذرعون لعدم إيمانهم.

من ربه: أي من الذي يقول إنه ينزل عليه القرآن، وهذا ليس اعترافاً منهم بربانية القرآن فهم مصرون على الجحود.

فقل إنما الغيب لله: أي إذا قيل لك هذا يا رسول الله فقل لهم بصيغة الحصر إنما الغيب لله، والإتيان بآية أو عدم الإتيان غيب متروك لله، لا أستطيع أن أعلمه أنا.

على كل حال، فإن الله شاء أن تكون معجزة هذا الدين معنوية هي القرآن وهي معجزة مطلقة أي لا تقتصر على البيان وإن كان أول أوجه الإعجاز.

فانتظروا: ليس معنى هذا انتظروا مجيء الآية، ولكن اعتقد أن المعنى انتظروا ما يحل بكم جراء كفركم.

إنني معكم من المنتظرين: وأنا أيضاً أنتظر معكم لنرى نتيجة الفريقين.

يقول صاحب الظلال رحمه الله في التعقيب على ﴿فَانتَظِرُوا﴾: «هو جواب في طيه الإمهال والتهديد وبيان حدود العبودية في جانب الألوهية، فإن أعظم الأنبياء والمرسلين لا يملك من أمر الغيب شيئاً فالأمر موكول إلى الله».

يقول ابن عاشور رحمه الله: «هم يفرضون أن الله سبحانه حريص على إظهار صدق رسوله ﷺ وأنه يستغفرهم إياه فيغضب ويسرع في مجازاة عنادهم ليكفوا عنه، وإن لم يفعل فقد أفحموه وأعجزوه وهو القادر، وما دروا أن الله قدر نظام الأمور تقديراً وأجرى الحوادث على النظام الذي قدره».

قال أبو السعود: «وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقاتلهم الشنعاء، والدلالة على الاستمرار، والقائلون أهل مكة ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ أرادوا آية من الآيات التي اقترحوها، كأنهم لفرط العتو والفساد، ونهاية التماذي في المكابرة والعناد، لم يعدوا البيّنات النازلة عليه ﷺ من جنس الآيات، واقترحوا غيرها، مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة، والمعجزات المتكاثرة، ما يضطرهم إلى الانقياد والقبول، لو كانوا من أرباب العقول».

من دروس الآية ٢٠ :

- ١- يطلب المشركون آية لا ليؤمنوا، وإنما لأنهم يعلمون أن آية هذا الدين معنوية فهم يريدون سبباً لتعليل عدم إيمانهم.. فهو طلب تعجيزي.
- ٢- لا يعلم الغيب إلا الله، والآية غيب وعلمه عند الله فإما أن يسوقها وإما أن يدخرها عنده ولا ينزلها فالأمر له وقد شاء أن تظل هذه المعجزة لعلها محمضة في القرآن.
- ٣- الزمن جزء من العلاج وجزء من تحصيل اليقين.. فعندما وعد الله بتمكين المؤمنين ثم تحقق هذا الأمر بعد حين كان الزمن طريقاً لتحصيل اليقين.
- ٤- الغيب ما غاب عن حواس الناس من الأشياء، والمراد هنا ما يتكون من مخلوقات غير معتادة في العالم الدنيوي من المعجزات.

الآية ٢١:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَشْرَعُ مَكْرًا

إِنَّ رَسُولَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

الربط والمناسبة: صفحة أخرى من صفحات ملف هؤلاء المشركين فقد كانوا في ما عرضت علينا الآيات السابقة يتمحلون ويطلبون الآيات، وهنا تظهر الآية وجهاً آخر من شخصياتهم هو تقلبهم، وتضرعهم حين الحاجة، وتكبرهم ومكرهم بعد أن تقضى وتنقضي المحنة، وقد مر مثل هذه الآية في سياق هذه السورة، في الآية ١٢: ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَنَ...﴾.

وهذه الآية (٢٢) كلمة و(٨٥) حرفاً وترتيبها (١٣٨٥).

المعنى: وإذا: واو الاستئناف داخلة على أداة الشرط إذا التي هي في ذات الوقت ظرف لما يستقبل من الزمان.

«أذقنا الإنسان رحمة»: عبر بالذوق وهو أول ما يلقاه الإنسان من آثار الرحمة، وعبر بالناس ليفيد الجمع أو المعنى الاجتماعي، فهذا الخلق من أسف فردي وجمعي أو جماعي وأجلى مثال له قصة قوم فرعون وما أرسله الله عليهم من آيات، فكانوا يرضخون وقت نزول الآية بهم كالطوفان والجراد ونحوه وبعد أن تنجلي الغمة تعود النفوس إلى ما اعتادته من قسوة قلب وجحود نفس.

«من بعد ضراء مستهم»: ولاحظ التعبير أيضاً عن الضر بالمس وهو أدنى ملابس أو ملازمة، والضر والضراء ما يصيب الناس أو الإنسان في بدنه أو ماله أو فيهما، وإن كان أكثر ما يراد منه: ما يصيب البدن.

«إذا لهم مكر في آياتنا»: إذا هنا الفجائية.

وتعني أنهم أول ما انكشف الضر وذاقوا الخير بدأ المكر. والمكر في الآيات، أي مكر في الصد عنها والروغان منها، والانقلاب عن ما أعلنوه من نية التزام إن انكشفت الضراء. وإضافة الآيات إلى نون العظمة: ﴿إِيَّاكَ﴾ لتعظيم شأنها.

«قل الله أسرع مكرراً»: قل يا سيد الرسل هؤلاء الذين يتقلبون ويظنون أنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر بالمخادعة.. تعالى الله.

«قل لمن مكروا في الآيات»: الله أسرع تدبيراً من تدبيركم وأنفذ وأحكم.

«إن رسلنا يكتبون ما تمكرون»: وما تفعلونه تسجله الرسل فلا شيء يخرج عن السيطرة والمراقبة والمعاقبة أيضاً.

فهم أي الرسل أي الملائكة المكلفون الموكلون بحصر وإحصاء أعمالكم يقيدون عليكم ويسجلون بالتفصيل كل ما تمكرون وتدبرون.. والله سيتولى حسابكم وعقابكم في العاجل والآجل، فلا تستعجلوا.. وهنا التفات من الغيبة إلى الخطاب. والكتابة كناية عن المحاسبة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «عجيب هذا المخلوق الإنساني لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة.. ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنها ما غشاها من شوائب إلا في ساعة الكربة فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان».

يقول ابن عاشور رحمه الله: «جملة ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديداً من الله، وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك، إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبي وأن مكرهم يمشي عليه ولا يشعر به فأعلمهم الله بأن الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك».

قال حقي: «إسناد المساس إلى الضراء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية... ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أعجل عقوبة، أي عقابه أسرع وصولاً إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق»^(١).

من دروس الآية ٢١ :

- ١- من الأخلاق الفردية والجمعية التقلب والتحول.
- ٢- عد القرآن هذا التقلب على العهود نوعاً من المكر.
- ٣- كل ما يجري في الكون مسجل مكتوب محفوظ.
- ٤- الحساب قادم على كل العمل الذي أحصته الملائكة في العاجل والآجل.
- ٥- المكر المكشوف إبطاله مضمون.
- ٦- الرحمة هنا مطلقة وهو النعمة والنفع.

الآية ٢٢:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْقِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفُلِكَ وَجَرَيْنَ بِبِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَنْ آمْنَمَنَّاهُمْ مِنْ هَذَا وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

الربط والمناسبة: تكلمت السورة عن أحوال البشر وتبدلهم وتقلبهم إذا زالت الشدة عنهم، وفي آيتنا هذه صورة أخرى لتلك الحالة وهي صورتهم إذ ركبوا البحر

(١) حقي، روح البيان، ج ٤، ص ٢٩.

وعلت الأمواج وأحرق الخطر وكيف تسارعت الألسن في الدعاء فهي استمرار ونسق مع سابقتها لا يحتاج إلى طويل إعمال فكر وعميق تأمل وتدبر.

وهذه الآية ٤١ كلمة و١٦٥ حرفاً وترتيبها ١٣٨٦.

المعنى: هو الذي يسيركم: هذه الآية مفتحة بضمير الشأن هو وكثير من الآيات مفتحة بهذا الضمير، أما في هذه السورة فهذه هي الآية الثانية، والأولى هي الآية رقم ٥ والتالية في الآية رقم ٥٦ وتاليها في الآية رقم ٦٧ وجاء في آيات الختام الثلاث ٣ مرات لكن ليس في افتتاح الآية وإنما في ثنائياها واحدة وختامها اثنتان.

الذي: عبر بالموصل ليستحضر صلته، وصلة ﴿الَّذِي﴾ لا تنتهي فنعمة وآلاؤه وأفضاله وآياته ومظاهر قدرته لا تنتهي، فكلما أراد أن يحدثنا عن جانب من هذه العظمة جاء بالذي ثم استحضر السياق ما شاء الله أن يذكر من جوانب هذه العظمة، وهنا اختار مولانا أنه الذي يسير الخلق في البر والبحر، وليس معنى يسير هنا الإجبار، وإنما هو الذي أعطاكم الاقتدار على هذا، وجعل الأرض صالحة لهذا، ويسر لكم السبل والطرق حتى في البحار والقفار، فأنتم تنتقلون بفضلته ومكنكم من الأدوات والخامات التي تصنعون منها الأدوات ففي النهاية ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ﴾.

في البر والبحر: لم يكن الهواء قد أصبح في مكنة البشر استخدامه، فكلهم المولى العظيم بما يعلمون واختار مما يعلمون ركوب البحر لأنه في نظر البشر أخطر، ولو تأملت لرأيت أن حوادث البحر أقل من حوادث البر وحوادث الجو أقل من حوادث البحر، فكلما ظننت الشيء أخطر كان الأمن فيه أكثر، أما البر فإن الإنسان استهتر فكثرت الضحايا نتيجة سلوك البشر.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف جعل الكون في الفلك غاية التسيير في البحر والتسيير في البحر إنما هو بالكون في الفلك، قلت: لم يجعل الكون في الفلك غاية

التسيير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها، كأنه يقول: يسيركم حتى إذا وقعت الحادثة وكان كذا وكذا».

«حتى إذا كتتم في الفلك»: واختار السياق من ركوب البحر هذه اللقطة، أو اللمحة ومر المشهد كالومضة: كتتم في الفلك، وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بها، جاءتها ريح عاصف.

وقد وردت كلمة الفلك في القرآن ٢٣ مرة وهذه هي الثالثة، وستأتي مرة رابعة في هذه السورة في الآية ٧٣.

ولم ترد الفلك مرتين إلا في يونس وهود أما المؤمنون فقد وردت فيها ٣ مرات وهي الوحيدة أما ما تبقى وهو ١٦ سورة فقد وردت فيها جميعاً مرة مرة وكل المواضع مكية عدا المرة الأولى في سورة البقرة وركوب البحر آية من آيات الله، فمن أودع في الماء خاصية أن تطفو عليه الأجسام أو بعضها بحيث يحمل السفن، ومن السفن الآن ما تزن بحمولتها ملايين الأطنان وتسير بسرعة تقارب السيارة على اليابسة فكيف تم هذا لولا التسخير الإلهي وما أودع في المواد من قوانين ونواميس وسنن؟!.

وقد ورد البحر في القرآن ٣٣ مرة أولها سورة البقرة وأما عدد السور فهو ٢١ سورة وأكثر سورة ورد فيها البحر هي الكهف ٥ مرات والمدني من السور التي ورد فيها هي البقرة والمائدة والنور.

حتى إذا كتتم في الفلك: أي أن القرآن اختار هذه الوسيلة من وسائل التسيير، لأن الناس يظنون أنها مخوفة بالماكاره والأخطار.. واختار منها لحظة ولقطة معبرة، الخطر فيها محقق بل ماحق لولا لطف الله.

وجرين بهم بريح طيبة: تمشي السفن الآن بأنواع مختلفة من الطاقة آخرها الطاقة النووية والمبدأ واحد، التشغيل بالطاقة، إن طاقة الرياح وإن طاقة النفط وإن طاقة الذرة والسيطرة عليها.. والجري هو السير السريع في الأرض أو في البحر.

ولم ترد الريح مفردة إلا في مواطن الشدة إلا هنا وجاءت موصوفة بالطيبة أي النافعة الهادئة غير العنيفة ولا المهلكة.

وفرحوا بها: أي أن الريح دفعتهم نحو وجهتهم وهدفهم والمكان الذي يقصدون وهي تحت السيطرة ولذا فرحوا بها.

جاءتها ريح عاصف: هبت عليهم فجأة ريح قوية خارجة عن السيطرة فانقلب فرحهم غماً ونكداً.

وجاءهم الموج: وكان الموج كان في سبات أو في حالة غياب فحضر وجاء غاضباً مزججراً مدمماً طاغياً.

من كل مكان: أي أنه سد عليهم جميع المنافذ والمهارب والمخارج، فأين المفر، وكل مكان عاصف وفيه الموج عاتٍ قاصف.

وظنوا أنهم أحيط بهم: الظن هنا على معناها، وليس كما يقال بأنها هنا وفي مثل هذا الموطن بمعنى اليقين، فهذا جذر وله معنى. وهذا جذر وله معنى آخر، أعني الجذرين: ظن، ويقن.

ولكن الظن مساحة ممتدة من تخوم الشك تمتد إلى تخوم اليقين، فما قبل اليقين بدرجة، وعلى الحدود مباشرة منطقة الظن، أما اليقين فلا. وحتى في أخطر اللحظات يظل عند الإنسان الأمل فكيف يقال باليقين بالهلكة؟

أحيط بهم: أي سدت المنافذ في وجوههم فلا مفر ولا مهرب ولا يابسة قريبة يفرعون إليها ويلجأون ويحتمون ويستقرون فغلب على الظن الهلك.. والدليل على أنه ليس اليقين هذا الدعاء مخلصين.

دعوا الله مخلصين له الدين: في الخطر يعرف الإنسان ربه ويلجأ إليه ويتبدل الحال في الأمن من أسف. وما عرف أنه كما قالت العرب «من مأمنه يؤتى الحذر» وحوادث الدهر والحياة أكثر من أن يتحدث عنها ويستشهد بتفاصيلها، فتركها بلا شواهد إذ هي في كل ذهن حاضرة وليست من الشوارد أو الأوابد حتى تحتاج إلى تقييد واستحضار الشواهد.

يقول ابن عاشور: «جملة ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ ومعنى مخلصين له الدين محضين له العبادة في دعائهم أي دعوه ولم يدعوا معه أصنامهم، وليس المراد أنهم أقلعوا عن الإشراك في جميع أحوالهم بل تلك حالتهم في الدعاء عند الشدائد». أ. هـ.

وأما الدعاء مخلصين له الدين أي أنه انزاح عنهم كل وهم، وانصهرت بنار الشدة كل الزيوف واحت كل الرواسب من المألوف الذي يتعلق به الناس من أسباب القوة واللجوء إلى من يملكها، فلم يبق في هذا الأفق اللانهائي إلا ذو القوة المتين سبحانه تلجأ إليه الناس أجمعين فهو نعم المنقذ والمعين.

لئن ألهيئتنا من هذه: لئن أخرجتنا من هذه الشدة، يا مقتدر واختصر النص تفصيل ما هذه لأنها حاضرة عتيدة محققة محدقة لا تحتاج إلى بيان، ولا إلا طول زمان في التفصيل فالموقف أسرع من ذلك، فبين لحظة واختها قد تكون النهاية.

لنكونن من الشاكرين: اللام الأولى في لئن لام القسم وإن للشرط واللام هذه في لنكونن واقعة في جوابهما أعني القسم والشرط، وعبر بالجملة الاسمية المفيدة الاستمرارية، فليس الشكر موقفاً عابراً وإنما ديمومة متصلة لها استمرار واستقرار.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «في وسط هذا الهول المتلاطم تتعري الفطرة مما ألم بها من شوائب وتنفض بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه».

يقول ابن عاشور رحمه الله: «وقد أكد وعدهم بالشكر بثلاث مؤكدات، لام توطئة القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ دون لتكونن شاكرين، لما يفيد من كونهم من هذه الزمرة التي ديدنها الشكر».

الالتفات في الآية ٢٢:

الالتفات في البلاغة من أجل أوجه البلاغة وصورها، والالتفات في القرآن هو أجل الأجل، والالتفات في هذه الآية، أرى أنه من أجل هذا الأجل.

ولاحظ كيف ابتدأ الخطاب بضمير الخطاب ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ﴾ ثم التفت عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغائب، فقال: ﴿وَجَرَيْنَ يَمِّ﴾ ولم يقل وجرين بكم وفق ما يقتضيه النسق لولا الالتفات، لكن اللفتة في الالتفات أعطت من الجمال ما لا يعطيه مراعاة النسق.

وأرى أن اللفتة هنا أنه كان يكلمهم وهم حاضرون، فلما عبر عنهم بضمير الغائبين فكأنهم غابوا في لجة البحر وتوغلوا في سفرهم، وكاد يغيبهم العباب والموج إذ عتا فعبر عنهم بما أسلفنا.

قال ابن عجيبة: «وَجَرَيْنَ يَمِّ» بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم، ففيه التفات. ومقتضى القياس: وجرين بكم برِّيح طَيِّبَةٍ: لينة الهبوب، وَفَرَحُوا بِهَا لسهولة السير بها، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ أَي: شديدة الهبوب، وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ لِهيجان البحر حينئذ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ أَي: أهلكوا، أو سُدَّتْ عَلَيْهِمْ مَسَالِكُ الْخِلَاصِ، كمن أحاط به العدو»^(١).

(١) ابن عجيبة، البحر المديد، ج ٢، ص ٤٦١.

من دروس الآية ٢٢:

- ١- تسخير الله للإنسان ما في البر والبحر عطاء لا يقدر بمقدار.
- ٢- الانتقال في البر والبحر بحثاً عن الأرزاق والمصالح فضل إلهي كبير.
- ٣- الالتفات في هذه الآية من أجل الالتفاتات في القرآن.
- ٤- استخدام القوانين الإلهية بعد اكتشافها من مؤشرات رقي الأمم وتقديمها.
- ٥- يتعرف الناس إلى ربهم في الشدائد ويعرضون في الرخاء، فالشدّة مقرّبة فهي لها وجه آخر غير ما تبدو عليه من عبوس وما تسببه من أذى.

الآية ٢٢:

﴿ فَلَمَّا أَبْجَهِتُمْ إِذَا هُمْ يَبْعَثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَيِّ يُبَايِعُهَا النَّاسُ لِمَا بَغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَنَعَ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الربط والمناسبة: تحدثت الآية السابقة عن الذين أحاط بهم الموج وظنوا الهلكة فدعوا الله مشرطين على أنفسهم: ﴿لَيْنَ أَجْبَحْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهذه الآية التي نحن بصدددها الآن تحيينا عن أسئلتنا: هل أنجاهم الله؟ هل استجاب دعاءهم؟ وهل صدقوا هم مع الله بعد أن أجاب دعاءهم؟ والمفاجأة أنهم لم ينسوا عهدهم فحسب بل ﴿إِذَا هُمْ يَبْعَثُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَيِّ﴾.

وهذه الآية ٢٥ كلمة و١١١ حرفاً وترتيبها ١٣٨٦.

المعنى: فلما أنجاهم: عطف على دعائهم في الآية السابقة بإلغاء المفيدة التعقيب وسرعة الاستجابة ثم لما المفيدة أولية حدوث الشيء، فكان اقتران الفاء بلما أفاد

سرعتين سرعة استجابة المولى لهم وسرعة انتفاضهم عن عهدهم ونكوصهم عن تعهدهم واشتراطهم على أنفسهم.

وعبر بـ ﴿أَنجَحْتُمْ﴾ دون نجاحهم لإفادة النتيجة مباشرة، فلئن أفادت نجاحهم التفصيل ونقل التفاصيل فإن أنجأهم تفيد الإجمال والنتيجة النهائية فكانها مسارعة
ثالثة..

ولم يذكر وصولهم إلى البر كما قالت سورة الإسراء:

﴿فَلَمَّا نَجَّكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧].

إذا هم: ما أشبهها بأختها في الآية ٢١ ﴿إِذَا لَهُرَ﴾ وإذا هنا هي الفجائية، فكانها تفيد سرعة رابعة يشير إليها النص.. وتأمل ﴿فَلَمَّا أُنْجِحْتُمْ إِذَا هُمْ﴾ وكيف تكرر ضمير هم لاستحضارهم متلبسين بفضل الله، ومتلبسين بنقض ميثاقهم الذي قطعه مع الله.

ييغون في الأرض بغير الحق: وعبر بالمضارع ييغون ليفيد تصوير حالهم واستحضارهم بتلبسهم بحالة البغي.

والبغي: الظلم والتجاوز، وقد وردت ﴿يَبْغُونَ﴾ في القرآن ٥ مرات ٣ منها بمعنى يريدون ويبتغون وثنان بمعنى البغي كما هنا هذه أولاهما وأخراها ما في سورة الشورى: ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

في الأرض: أي حيث كانوا منها.. وكأنهم لو تنقلوا فيها جميعاً لابتغوا نهج البغي حيثما حلوا.

بغير الحق: والبغي لا يكون بالحق، وإنما اقترن بهذا الوصف هنا كما اقترن بقتل الأنبياء بغير الحق وقتلهم لا يكون بالحق أبداً وإنما هو تسجيل عليهم وتقرير..

أن فعلهم بغير حق بل بغير الحق.. وعرفت للتشديد والتحديد.. أي الحق المعروف لكل عقل وفطرة وقلب وإنصاف. وقوله بغير الحق هو قيد كاشف لمعنى البغي إذ البغي لا يكون بحق.

يا أيها الناس: عهدنا بالنداء أن يكون في أول الآيات، ولكنه ورد أيضاً في ثانيا الآيات كهذه الآية وهكذا النداء، والنداء يفيد الاهتمام بالموضوع وتنبيه المنادى، ولفت نظره إلى أهمية الموضوع .

إنما بغيكم على أنفسكم: استخدم النص الكريم إن متصلة بما الكافة لها عن عملها والتي تحولها إلى حصر وقصر أي بغيكم ليس على أحد سواكم إنما هو مقتصر عليكم منحصر فيكم.

على أنفسكم: أي جنايتكم عليها بهذا النقض وبهذا الظلم والبغي.

متاع الحياة الدنيا: توضيح لماذا كان بغيهم وأنه لمجرد تحصيل متاع الحياة الدنيا، ولو عقلوا لعلموا أنه آتيهم بكرامة خير من أن يأتيهم بلؤم طبع ونقض عهد وخديعة وتغدير وغش وتزوير.

ثم إلينا مرجعكم: ثم للتراخي الزمني، أي بعد انتهاء مهلتكم ومدة اختباركم في هذه الحياة الدنيا تكون عودتكم إلى بارئكم سبحانه. فالمرجع والمآل والمرد إليه سبحانه.. لا إلى سواه، ممن تعظمونهم وترجونهم وهم لا يملكون شيئاً وليس الرجوع إليهم.. وآه لو أدرك الناس الحقائق لتغير وجه الحياة ووجهة الأحياء.

فنتبئكم بما كنتم تعملون: أي بالذي كنتم تعملونه، ونقضهم أحد أبرز صوره، والإنباء كناية عن الجزاء، وليس مجرد الإعلام فهم يعلمونه.

يقول صاحب الظلال رحمه الله في التعقيب على ﴿إِنَّمَا يَنْقِصُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: «إن الناس حين ييغون هذا البغي يذوقون عاقبته في حياتهم الدنيا قبل أن يذوقوا جزاءه في الدار الآخرة، يذوقوه فساداً في الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به».

يقول ابن عاشور: «استعمل الإنباء كناية عن الجزاء، لأن الإنباء يستلزم العلم بأعمالهم السيئة، والقادر إذا علم بسوء صنيع عبده لا يمنعه من عقابه مانع».

قال المظهري: «فَلَمَّا أَتَجَاهُمْ إِجَابَةٌ لِدَعَائِهِمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ» يعني فاجؤوا وسارعوا إلى ما كانوا عليه من البغي أي الظلم على الناس والتجاوز عن حدود الإباحة إلى الفساد في الأرض، بغير الحق أي مبطلين، فيه تأكيد لقوله: ييغون فإن البغي لا يكون متلبساً بالحق»^(١).

من دروس الآية ٢٣:

- ١- يتعامل بعض الناس مع الله كتعاملهم مع بعضهم بأسلوب الخداع، وما دروا أن الله لا يخادع سبحانه، وهذا يدل على جهل ذريع بالله تبارك وتعالى.
- ٢- الغدر ونقض العهد من أسوأ الصفات التي يمكن أن يتصف بها الناس.. فكيف إذا كانت مع الله.
- ٣- بغي الناس على أنفسهم ويظنون واهمين أنهم إنما يوقعون بغيهم على غيرهم.
- ٤- أساس البغي في الأرض تحصيل متاع الحياة الدنيا، وهي أهون من أن أسيء فيها.

(١) التفسير المظهري، ج ٥، ص ١٩.

٥- لو أدرك الناس أن مرجعهم إلى الله لا إلى سواه لتغيرت صفاتهم ومسلكياتهم.

الآية ٢٤:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آثَرُهَا انْبَرَأَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾

الربط والنامسة: ذكرت الآية السابقة في تفسير سلوك المتقلبين هؤلاء ممن دعوا الله ثم نقضوا ما ألزموا أنفسهم به من الإخلاص والشكر لله، وأنه كان من أجل متاع الحياة الدنيا، وفي آيتنا هذه يضرب المثل للحياة الدنيا التي انقلبوا من أجلها.

وهذه الآية ٤٣ كلمة و١٩٤ حرفاً وترتيبها ١٣٨٨.

المعنى: إنما مثل الحياة الدنيا: إنما: للحصر والقصر وقد مرت في الآية السابقة. مثل الحياة الدنيا: المثل: صورة المعنى في الواقع والطبيعة والمحسوس، وأمثال القرآن من مبتكراته، بينما المثل العربي استخدام قول قيل في حادثة ثم استعير لكل واقعة أو حادثة مشابهة، فلا لقاء.

وهنا يصور القرآن الحياة الدنيا ويمثل لها بهذا المثل المطابق الموضح المجلي للمعنى أتم تجلية فيقول إن مثلها وصورتها كالماء الذي ينزل من السماء، فتخضر الأرض به إلى حين ثم يصوح ويكون هشيماً وحطاماً، بهذه السرعة تنقضي الدنيا وبهذا المثل يصورها القرآن

والدنيا إما من الدنو بمعنى القرب، أو من الدناءة والدونية أي بالنسبة للآخرة، وليست الدنيا في ذاتها دنيئة لأنها عتبة الآخرة، والطريق إليها، فمن عمرها بتقوى الله عمر آخرته بدخول الجنة، فكيف توصف من هذا حالها بوصف الدناءة؟

كءاء أنزلناه من السماء: أي صورتها كهذا الماء ومثلها مثله، لكن المثل لم يكتمل بعد، ولم يستوف كل عناصره.

فاختلط به نبات الأرض: والتعبير بقوله تعالى ﴿فَأَخْلَطَ﴾ عجب، فكان الماء ينزل والنبات يختلط بنزوله، أي كأنه ينمو به فوراً، وفي الواقع إنه كذلك، ففي موسم الشتاء، مع أول القطر تجدد النبات الأخضر بدأ يصبغ وجه الأرض بنعومة.. ثم يبدأ في النمو والازدياد.. لكنه بالتصوير المسرع القرآني عبر عنه بقوله فاختلط وقد عرف الناس التصوير البطيء والتصوير السريع يريك النبتة تزهر وتنحي ذابلة في لحظة عين.

نبات الأرض: اللغة كالكيمياء بإضافة عنصر إلى عنصر تعطيك الكيمياء عنصراً جديداً وكذا اللغة، فإضافة النبات إلى الأرض والأصغات إلى الأحلام كما في سورة يوسف.. يعطيك النص صوراً بديعة من المعنى، والإضافة دقيقة فالنبات ابنها في حضنها نشأ وفي حضنها يترعرع ثم ينتهي في الأرض.. ثم يتجدد.. ويقوم من جديد..

مما يأكل الناس والأنعام: فصل في النبات بكلمة: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ﴾، بكل أصنافه سواء منها ما يأكله الناس وهو آلاف الأصناف، أو مما يأكل باقي المخلوقات كالأنعام مثلاً وهي كذلك أصناف عديدة.

حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت:

حتى: للغاية، أي انتهى الأمر بالغيث أن أخذت به الأرض زيتها فأضحت
 كعروس مجلوة، وإنها كذلك، فهذا الزهر ألوان وأشكال، وهذا النبات يانع بميل
 مع الريح فتحسب أنه موج بحر يتدافع، فمن الذي جعل النبات زينة لهذه الأرض،
 وزركشه كثوب مزركش مطرز دقيق الصنعة متقن مزدان بالألوان؟ إنه الله. وويل
 للجاحدين، وبُعداً للكافرين، وتُعساً للمكابرين المنكرين، والآيات تصفهم
 بالبراهين، وهم راتعون في رزق الله منكبرينه سبحانه، فأنى يستقيم لهم حال؟
 «وازينت» أصله تزينت فقلبت التاء زايأً لتدغم في الزاي فسكنت وأدغمت
 واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن.

«وظن أهلها أنهم قادرون عليها»:

أُنبتت الأرض من خيراتها وطيباتها، واستثمر الإنسان في ثرواتها فاغتنى،
 وظن أنه سيطر على الطبيعة، بحسب تعبيرهم وأنه قهرها، وأنه امتلكها، وأنها
 انقادت وأذعنت له برغمها وما درى أو تجاهل أنها سخرت له من مالك الملك،
 ليستخلفه في هذه الأرض.. فبدل أن يشكر طغى وبغى وكفر وتجبّر.. عند ذاك
 جاءه ما لم يكن يتوقع.

أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً: عبر بأتاها المفيد المجيء من بعد لأنه في تصورهم
 كذلك، أو لطول المهلة.. نسيأً، هي كذلك وإتيان أمر الله كناية عن صدوره، وفور
 صدوره نفذ وحصل كما أراد من أصدر الأمر. وأتى الأرض فأذعنت، لكن مجرد
 التعبير بالإتيان يكفي عن الإذعان فلا إطالة في البيان في القرآن.

وإتيان الأمر قد يكون في أي ساعة من ليل أو نهار فحذار أيها الإنسان حذار،
 إن هذا النظام الكوني سينهار، عندما يأتيه الأمر من القهار سبحانه، وعندئذ يبدأ
 الحساب ليكون الناس إما إلى جنة وإما إلى النار.. فالبدار البدار.

فجعلناها حصيداً: جو النبات ما زلنا فيه، مع أن السياق انتقل من المشبه به إلى المشبه أعني إلى الدنيا، لكنه عبر عن نهايتها وخرابها بجو النبات الذي كان مشبهاً به، فمن الدنيا ابتداء الحديث وبها وإليها انتهى..

أي فحولناها حطاماً كأنها أرض قد حصدت ورعت بقايا نباتها الأنعام فأصبحت ﴿كَمَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

كان لم تغن بالأمس: وهذا المنظر وهذه الصورة مكرورة يراها الناس كل سنة ولكنهم لا يرون في مرآة المثل صورة الدنيا، بل يقفون عند ظواهر الأشياء وسطوحها ولا يغوصون باللبهم إلى لبابها، ولا يكتشفون المقايسة والمقارنة، فالشيء بقرينه يتضح.. فهذا الذي ترون من هشيم محطم... هو صورة الدنيا التي أصبحت لبعضكم أو لكثير منكم كالصنم تعظم وتحترم، وهي مسخرة لخدمتكم بأمر المتفضل بالمنعم، والتعبير بـ ﴿تَغْنُ﴾ عجيب أيضاً. فالغنى كثرة المقتنيات وتنوعها، والأرض لما اكتنزت بأنواع الخيرات والنبات، فهي كالغني الذي ملأ خزائنه بأنواع العملات وأصناف الثروات والمعادن والنفائس والتحف والمدخرات. وقوله بالأمس يعني ما سبق من ازدهار، وليس اليوم الفائت مباشرة، ومعلوم أن الأمس بالتعريف يفيد التذكير، أي ما فات من أيام.

كذلك نفصل الآيات: مثل هذا التفصيل البديع والتنوع الرفيع نفصل الآيات، أي نعرضها عليكم بتفانين وتلاوين مختلفة من التعبير والتصوير والتشبيه والتمثيل لتصلكم المعاني بأجل ما يمكن وأملأ ما يمكن بالشحنة المقنعة المؤثرة المحركة التي تهز الوجدان وتنبه الأذهان ولا تمل الأذان.

هذا هو القرآن.

هذا التفصيل الرائع من يستفيد منه؟

إن المستفيد هم المتفكرون المتدبرون اليقظون العاقلون أما الغافلون فهم كالبهائم السادرة في العشب والمرعى، لا تفكر إلا في لحظتها وما تقضم وتهضم لتمتلىء. فيا أيها الإنسان، يا أرقى من خلق الرحمن، أترضى أن تكون شغوفاً بالمرعى، غير متبهِ لمن أنبت المرعى، وملاً لك الكون بالجمال ونضد الوجود كمائدة منسقة جميلة بديعة، أفلا ذلك الجمال على مصدر الجمال، أفلا ذلك الكون البديع على المبدع العظيم سبحانه؟

لقوم يتفكرون: أي للناس الذين استخدموا ما أكرمهم به من كرامة العقل في النظر فيما وراء الظاهرة إلى من أنشأها، فيعرفوني بآياتي، وينظروا إلى قدرتي ورحمتي بآثاري في مخلوقاتي.

وكم ظلم هذا الدين بتعطيل العقل والفكر بدعوى أن الدين لا يؤخذ بالعقل، وقد نسلم لهذا من وجه، لكن الدين في النهاية لا يمكن أن يفهم وتفهم أبعاده وحكمه وعظمته وشموله إلا بالعقل.

فالعقل أداة استخراج كنوز النقل، فلا تعطلوا بين الكنز وأداته ولا تفرقوهما ولا تفصلوا بينهما، وكيف تفعلون وقد قرأتم الآن أن التفصيل لن ينتفع به إلا القوم المتفكرون، فهلا عادت الأمة في وثام مع العقل وانسجام بين النقل والعقل والعلم والدين؟

وكم خسرنا بهذا الفراق! وقد آن الآن أو ان التلاق لا الطلاق على الإطلاق!

قال الشوكاني: «لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا جَاءَ بِكَلَامٍ مُسْتَأْنَفٍ يَضْمَنُ بَيَانَ حَالِهَا وَسُرْعَةَ تَقْضِيئِهَا... وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَتْلَهَا فِي سُرْعَةِ الدَّهَابِ وَالْإِثْصَافِ بِوَصْفٍ يُضَادُّ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ وَيُبَايِنُهُ، مِثْلَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الثِّبَاتِ فِي زَوَالِ رَوْتِهِ وَدَهَابِ بَهْجَتِهِ وَسُرْعَةِ تَقْضِيئِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ غَضًّا مُخْضَرًّا طَرِيًّا قَدْ تَعَانَقَتْ أَغْصَانُهُ الْمُتَمَايِلَةُ، وَزَهَتْ أَوْزَافُهُ الْمُتَصَافِحَةُ، وَتَلَالَتْ

أَنْوَارُ نوره، وَحَاكَتِ الزُّهُرُ أَنْوَاعَ زَهْرِهِ. وَلَيْسَ الْمُسْتَبْهَ بِهِ هُوَ مَا دَخَلَهُ الْكَافُ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلَّا! أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ﴾ بَلْ مَا يَفْهَمُ مِنَ الْكَلَامِ. وَالْبَاءُ فِي: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ لِلْسَّبِيَّةِ أَيْ فَاخْتَلَطَ بِسَبِيهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ، بِأَنْ اشْتَبَكَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ حَتَّى بَلَغَ إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ^(١).

من دروس الآية ٢٤:

- ١- كم يخسر الإنسان بعدم تقييم الأشياء قيمتها الحقة، فقد تغبن في سلعة زينت لك فخدعت في الثمن فتندم بقية عمرك والغبن الأعظم أن تعظم قيمة ما لا يعظم كالدينا حتى تنسيك الآخرة، وتفطن في يوم التغابن!
- ٢- كم قد ضرب القرآن للدينا وقيمتها الأمثال لتوضع موضعها وتوزن وزنها وتقيم بقيمتها، فلا تعظم ولا يبالغ في تقديرها والارتباط بها.
- ٣- المثل في القرآن من أروع ما فيه وكل ما فيه رائع بل هو الروعة ومقياسها ومسطرتها ونموذجها الأعلى ومثلها الأرفع.
- ٤- دقة المطابقة في المثل القرآني من أدهش ما فيه.
- ٥- الغفلة داء قاتل والموت في كل منعطف والنهايات قاب قوسين والناس غافلون سادرون.

٦- بين النظرة الإيمانية إلى تسخير ما في الكون والنظرة المادية المتمثلة في زعم قهر الطبيعة وانتزاع السيادة منها والهيمنة عليها، هذه النظرة المغالبة والنظرية الغالبة على العقول اليوم أساءت إلى العلاقة بين الكون والكائنات، فبدل النظر إليها على أنها الأم الرؤوم التي تحنو على الأبناء ينظر إليها على أنها شر الأعداء وأقسى الألداء.. يا للشقاء!

الآية ٢٥

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

الربط والمناسبة: كانت الآيتان السابقتان تحدثان عن الحياة الدنيا وحرص الناس عليها والمثل الذي ضربته الآية لها، وهنا ينتقل السياق إلى دعوة الله للعباد إلى الدار الباقية دار السلام، فهذه التي تستحق أن يمد الناس لها أبصارهم ويشحذوا لها همهم وعزائمهم.

وهذه الآية ١١ كلمة و٤٤ حرفاً وترتيبها ١٣٨٩.

المعنى: ما أروع هذا الختام في نهاية هذا الربع من القرآن العظيم فالختام يناسب الختام، والدعوة إلى دار السلام أروع ختام.

وافتح الآية بلفظ الجلالة أروع فاتحة لنص الختام، فالتقى الجمال على أتم التمام، والله يدعو إلى دار السلام.

والافتتاح بالاسم العظيم الأعظم لتربية المهابة للداعي وللدعوة وللمدعو إليه ثم للمدعو.. وهو هذا الإنسان، فما دعي إلى أعظم جوار إلا لكرامته، ولا يرفض دعوة الكريم إلا لثيم زعيم خصيم، عدو لنفسه مبین.

ولم يقل يدعوكم، بل ترك الدعوة دون مفعول لتعم عموم من يصح منه أن يدعى.

وكلمة ﴿يَدْعُو﴾ تدل على الاختيار لهذا الإنسان وأنه يملك قراره متى أراد، ويملك أن يستجيب أو أن لا يستجيب، وعلى اختياره يكون جزاؤه ومصيره. وزيدت الألف بعد الواو للتعظيم وزيادة أهمية الدعوة.

وسمى الآخرة والجنة فيها ﴿ذَارِ السَّلَٰمِ﴾ أي دار السلامة والخلو من كل الآفات والمنغصات والتكد والتعب والرهق.. وكل ما كان يعانيه البشر في الدنيا من مشكلات..

وحقاً إن هذا الدين دين السلام في الدنيا والآخرة، ولكن السلام لا يعني أن تستسلم لعدو السلام والذي يسمى الله عز وجل إله الحرب وإله الجنود، أفهذا هو من يليق أن يقر السلام في الأرض أو يعقد معه سلام؟

السلام مطلب عزيز ليس مؤتمناً على إقراره إلا أمة الإسلام أمة السلام.

ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم: ما قيمة أن أدعوك إلى حفل ولا تعرف الطريق الموصلة إلى مكانه؟ والله المثل الأعلى، فقد دعانا إلى دار السلام ورسم لنا بحق ووضوح خارطة الطريق الموصلة إلى تلك الدار.. وهي التزام هذا الإسلام الذي سماه الله تعالى الصراط المستقيم.. وسماه الله السلم أو السلام حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَٰمِ كَآفَّةً﴾.

والله يهدي إلى هذا الطريق من أراد ومن توجه بقلبه وإرادته إلى الاهتداء ولا يهدي من استكبر وأصر على الباطل والضلال.

والله سبحانه يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون.

والصراط: الطريق القويم الواسع النير المعبد المنبسط الميسر الواضح المعالم والأقرب بين موقعك وهدفك، ووصفه بالمستقيم كأنه كرر الاستقامة مرتين لتأكيدهما.

قال القاسمي: «ولما ذكر تعالى الدنيا وسرعة تقضيها، رغب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السَّلام، أي من الآفات والنقائص، لذكر الدنيا بما يقابله من

كونها معرضاً للآفات كما مر... ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ أي يدعو الخلق بتوحيده إلى جنته ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي دين قيم يرضاه، وهو الإسلام^(١).

من دروس الآية ٢٥:

- ١- الآخرة هي دارة السلام والأمن والسلامة والسعادة. والسعيد من عمل أن يكون فيها من السعداء.
- ٢- للبشر كرامتهم عند الله ولذلك أعد لهم دار المقامة والسلامة في الآخرة، مقابل تعبهم في هذه الدنيا، والله المثل الأعلى فمسافر قطع إليك المسافات فأول ما يصلك تبالغ في إكرامه.
- ٣- الذي دعاك إلى دار الأمن والأمان والسلامة والسلام حدد لك السبيل الموصل لها ورسم لك خارطة الطريق.
- ٤- الهدى إرادة وعزم وتوفيق من الله.

الآية ٢٦

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَىٰ ذُرِّيَّتُهُمْ وَلَا يَزَهُنَّ وَجُوهُهُمْ فَبَرٍّ وَلَدْلَةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة كانت دعوة الله عباده إلى دار السلام وفي هذه الآية تفصيل فيمن يستحقون دخول الجنة وأنهم الذين ﴿أَحْسَنُوا﴾ فلهم الحسنى وزيادة، وهم أصحاب الجنة المخلدون فيها.

(١) القاسمي، محاسن التأويل، ج ٦، ص ١٨ - ص ١٩.

وهذه الآية ١٦ كلمة و ٧٠ حرفاً وترتيبها ١٣٩٠.

المعنى: للذين أحسنوا الحسنى: قدم الخبر على المبتدأ للاهتمام بمن يتلقى الحسنى قبل جزائه بالحسنى. فهم فعلوا الحسنى على أحسن وجه، وقد ورد أحسنوا في القرآن ٦ مرات بدءاً من آل عمران فالمائدة فيونس فالتحل فالزمر فالنجم، لكن تعبير ﴿أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ لم يرد إلا هنا وفي النجم وقد جاء على هذه الصورة: ﴿وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

والإحسان أن تأتي بالشيء على أحسن وجه وأخلصه وأصفاه وأنقاه فهو بمعنى التمام والكمال، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه.. كما في الحديث الشريف.

وزيادة: معنى وزيادة هو المتبادر من الزيادة، أي لا أجزيهم على قدر عملهم، فالكريم دائماً يزيد على أجر العامل واستحقاقه، فقانون الله تعالى أن الحسنة بعشر أمثالها، ويزيد الله لمن يشاء بلا حدود وبلا حساب.. وأما ما قيل من أن الزيادة هي رؤية وجه الله فهذا التعيين لا أراه، وهذا ليس من الزيادة بل هو الأصل والأساس..

ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة: يرهق: يغشى ويغطي ويُرهِق.. وهؤلاء الكرام لا يغشى وجوههم النار، بينما قال عن الكفار: ﴿وَنَقَّصْنَاهُمْ أَلْسِنَآءَ﴾ أما المؤمنون الأبرار فهم عنها مبعدون وهي عنهم بعيدة، والفضل لله، أنهم مؤمنون لأنهم مؤمنون.. فهم في ضيافة مولاهم ويغدق عليهم من كرمه، أما أعداؤه فهم ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «وجوههم: جمع وجه، وخص سبحانه الوجوه بالذكر لأن الوجه أشرف الأعضاء الظاهرة، وفيه أكثر الحواس ولأنه موضع السجود ومظهر آثار الخشوع والخضوع».

والقتر: السواد والدخان مع الرائحة السيئة. وهو يغشى جلدة الوجه من شدة البؤس والشقاء والخوف.

ولا ذلة: ولا يغشى وجوههم ذلة، بسبب ما غشيها من القتر والجزاء السيئ هم في حماية ووقاية من كل هذا العذاب، بصورة المادية والمعنوية.

أولئك: أشار إليهم مع أنهم ملء السمع والبصر وهم محور الحديث ليعقبه بما سيقوله بعد من تمليكهم الجنة وتخليدهم فيها.

والبعد في أولئك للتعظيم والتكريم والإشارة إلى علو المنزلة.

أصحاب الجنة: مملكوها مسجلة مثبتة محققة لهم.

هم فيها خالدون^(١): والخلود بقاء بلا فناء ولذلك فإن عقيدة فناء النار أو ظن ذلك لا أساس له مع هذه المرات الـ (٨٤) سوى الأفعال، هذا لا ينبغي أن يذكر أو يشار له أصلاً.

ولو كان النعيم بليون سنة ثم تفتى الجنة لتغص أهل الجنة من أول يوم من أيام النعيم لأنه سيزول، ولو علم أهل النار أن نارهم إلى فناء وانطفاء وانتهاء لعدوا ذلك الخبر عيدهم ولظلوا ينتظرون يوم الفكاك والخلاص.. كل هذا لا يكون، وإنما هو خلود أبداً في هذه الدار إما في جنة وإما في نار.

(١) وقد ورد الخلد ٦ مرات، وخالد مرة، وخالداً ٣ وخالدين (مثنى) مرة، وخالدون ٢٥ مرة وخالدين ٤٤ مرة والخلود مرة ومخلدون مرتين.

وأنعم النعيم وأعظم النعيم الخلود في النعيم وأشق العذاب وأشد العذاب دهمومة العذاب، نسأله سبحانه لطفه بنا ونعيماً دائماً أبداً سرمداً في جواره العزيز والكريم.

وعبر بالجملة الاسمية المفيدة الدوام والثبات والاستقرار.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعبيراً على ﴿أَحْسِنُوا لَنَفْسِكُمْ﴾: «أحسنوا الاعتقاد وأحسنوا العمل وأحسنوا معرفة الصراط وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام».

يقول ابن عاشور رحمه الله: «ليس معنى نفى القتر والذلة عنهم في جملة أوصافهم مديحاً لهم، لأن ذلك لا يخطر بالبال وقوعاً بعد أن أثبت لهم الحسنى وزيادة، بل المعنى التعريض بالذين لم يهدهم الله إلى الصراط المستقيم وهم الذين كسبوا السيئات تعجيلاً للمساءة إليهم بطريق التعريض قبل التصريح».

قال صاحب المنار: «رَهَقَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ (كَتَعِبَ) أَذْرَكَهُ وَرَهَقَهُ الشَّيْءُ كَالَّذِينَ وَالِدُلُّ غَشِيَهُ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ حَتَّى غَطَاهُ وَحَجَبَهُ: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] لَا تُكَلِّفْنِي مَا يَغْسُرُ عَلَيَّ، وَالْقَتْرُ: الدُّخَانُ السَّاطِعُ مِنَ الشَّوَاءِ وَالْحَطَبِ. وَكُلُّ غَبْرَةٍ فِيهَا سَوَادٌ، أَيْ لَا يَغْسَى وَجُوهَهُمْ فِي الْآخِرَةِ شَيْءٌ مِمَّا يَغْسَى وَجُوهَ الْكَفَرَةِ الْفَجْرَةِ مِنَ الْكُفُوفِ وَالظُّلْمَةِ وَالذُّلَّةِ»^(١).

من دروس الآية ٢٦:

١ - الكريم لا يجزي على قدر العمل وإنما يجزي على قدر الكرم ﴿قَدْ كُذِّبَ عَنْ شَاكِلِيهِ﴾.

- ٢- الزيادة هي زيادة النعيم بلا انتهاء وزيادة مضاعفة الأجور على العمل في الدنيا.. ولولا الكرم العظيم فكيف تجزي على العمل المحدود بالنعيم اللامحدود؟
- ٣- خلود الجنة أعظم نعيم الجنة وخلود النار أشد من عذاب النار.
- ٤- النجاة من هول القيامة غنيمة! فما بالك بالزيادة في الفضل من الله.

الآية ٢٧

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

الربط والمناسبة: تحدثت الآية السابقة عن الذين ﴿أَحْسَنُوا الْحَسَنَى﴾ وختمت بقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وتحدثت هذه عن أصحاب النار الذين ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وختمت بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فالتقابل ظاهر واضح والتكامل جلي لا يحتاج إلى إطالة بحث ونظر وإجالة فكر وبصر، وافتتحت السابقة بالاسم الموصول الذين وهذه كذلك. والتقابل في أن الأوائل لا ترهقهم ذلة وأما هؤلاء فترهقهم ذلة، ووجوههم في هذه الآية وهذه.

وهذه الآية ٢٧ كلمة و١١٥ حرفاً وترتيبها ١٣٩١.

المعنى: والذين: الواو للعطف، عطف الذين على الذين، أو للاستئناف كأن سائلاً سأل، ذاك شأن المؤمنين فما شأن الكافرين فقيل في جوابه: ﴿وَالَّذِينَ...﴾.

كسبوا السيئات: صلة الموصول تحدده وتبينه وتوضحه، وعبر بكسبوا دون اكتسبوا لاقضاء المقام، بينما المقام اقتضى غير ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ

وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴿ فَمَا كَانَ يَبِينُ سَهولة الخير ويسره وعسر الشر، فلكل مقام مقال، وتأمل لو كان النص: والذين اكتسبوا السيئات، كم كان سيتغير وقع الكلام ورويقه وخفة نطقه وسلاسته.. وهذه بلاغة القرآن، أولاً مناسبة المقام والكلام والجرس وحسنه وحسن وقعه في الأذان والأذنان. ف سبحان من أنزل القرآن... وجعل تذوق البيان أرقى ميزات الإنسان.

وأفرد الحسنى ولم يقل الحسنات، وجمع السيئات ولم يقل السوء أو السوءى، لما قلناه قبل قليل، ولأن أفراد الحسنى دل على نوع الحسنى لا على مفرد أو مفردة منها.

جزاء سيئة بمثلها: بلا زيادة، بل سيجازون السيئة بالسيئة، أي بقدرها، ويقدرها القدير، الذي يعلم المقادير بالذرة والنقيير والقطمير، ولا يفوته صغير ولا كبير، سبحانه ﴿ فَمَنْ يَمَلِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَمَلِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾.

وهذا لا يتعارض مع حقيقة أن أئمة الكفر والشر يكتب في صحائفهم سيئات وجرائر كل من جرؤه وجراؤه على ارتكاب المعاصي، لأن هذا جزء من كسبه أو اكتسابه، فلا ظلم.. معاذ الله.

وترهقهم ذلة: تغشاهم مذلة وهوان وإهانة، فتحدي الإله لا يمر بلا ذلة، والاستكبار على الله والعباد لا يمر بلا هوان ومهانة، لا، وهذا جزء من جزائهم.. فالتواضع جزاؤه الرفعة والإكرام، والتكبر والتنفج على العباد والتعاضم جزاؤه التحقير والإذلال والامتهان.

ما لهم من الله من عاصم: والعاصم من يحمي من يدخل في عصمته وحمايته.. أما هؤلاء فلا عاصم لهم، كما قال نوح لابنه: ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾

عندما قال الولد لأبيه: ﴿سَأَرِىْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِفُ مِنْ أَفْئَةٍ﴾ فإذا كان في الدنيا ﴿لَا عَاصِمَ﴾ فكيف في الآخرة التي لا يملك فيها أحد شيئاً ولو ملك خرقة لستر نفسه بها.

كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً: ومعلوم أن المخزون في الداخل حزناً أو خوفاً أو كمداً أو رعباً يظهر ويطفح على الخارج والظاهر، والجوارح مرآة الجوانح. فنشرة السرائر تقرأها في الظواهر، فالباطن منكشف أو مفتضح من خلال مرآة التقاطيع والتقاسيم والملامح.

أما هؤلاء فوجوههم مسودة كما عبر النص في أكثر من موضع من القرآن أو ﴿زُرْقًا﴾ كما في سورة مريم ولكنه عبر هنا بالصورة والكناية... فقال ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا﴾، كناية عن اسودادها وهي صورة عجيبة تبتدئ بالتشبيه، ثم بالبناء للمجهول للتركيز على الفعل لا على الفاعل، ثم التغطية الشاملة بقوله ﴿أُغْشِيَتْ﴾، ثم العموم في ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ ثم تنكير القطع ﴿قِطْعًا﴾ للتكثير والتعظيم، أي ﴿قِطْعًا﴾ كثيرة وكبيرة من الظلام.

ومع أن الليل بطبيعته مظلم، لكنه وصفه بالظلمة فاجتمعت له مرتين حتى لا يتوهم أن فيه فسحة أو فرجة من نور أو بصيصاً من ضوء أو لمعة من ضياء.. كل ذلك ليس وارداً فهو ليل أليل، وليل بهيم مظلم داكن السواد.

قال الزمخشري: «فإن قلت: إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل فما العامل فيه: قلت: لا يخلو إما أن يكون أغشيت من قبل إن «من الليل» صفة لقوله: ﴿قِطْعًا﴾ فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإما أن يكون معنى الفعل في من الليل». أ. هـ.

وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: أي هؤلاء الذين وصفتهم الآية هم أصحاب النار أي مسجلة لهم ملتصقة بهم لا تفارقهم ولا يفارقونها، فهم ملازموها، ومواقعوها ومقيمون فيها. هم فيها خالدون: باقون ما كثون لا ينقطع عنهم العذاب أبداً، نسأل الله السلامة والعافية والمعافة من النار والنجاة منها.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «المقصود بقوله ﴿جَزَاءً سَيِّئَةٍ يَبْلُغَهَا﴾ التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات، لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها تفضلاً وتكرماً، وأما السيئات فإنها يجازى عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه وتعالى».

قال المراغي: ﴿كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي كأنما ألبست وجوههم قطعاً من أديم الليل حال كونه حالكاً مظلماً، لا بصيص فيه من نور القمر الطالع، ولا النجم الثاقب، فتشقها قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض... أولئك الذين لهم تلك الصفات هم أصحاب النار هم فيها خالدون، لا يبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها^(١).

من دروس الآية ٢٧:

١- بلاغة القرآن في كل كلمة تتجلى.. وتظهر في الاختيار، وتحقيق بالمقارنة بين مقام ومقام وكيف تختلف الألفاظ لتناسب الموقع والمقام، والبلاغة مراعاة مقتضى الحال.

٢- عدل الله يتجلى في الآخرة وفي الأولى بالطبع، فهو في الآخرة لا يجزي بالسيئة إلا مثلها ويضاعف الحسنات.. بكرمه.

(١) تفسير المراغي، ج ١١، ص ٩٦.

٣- هذا المصير المحتوم هو نفاذ لسنة الله الكونية فيمن يجيد عن الطريق، ويخالف الناموس.

الآية ٢٨

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

الربط والمناسبة: قعد السياق الكريم في الآيتين السابقتين قواعد الجزاء في الآخرة للمحسن والمسيء، وفي هذه الآية يقرر مبدأ الحشر وأنه حق، وركزت الآية على أخطر قضية في الدنيا والآخرة وهي قضية الشرك، وتبين الآية فك الارتباط بين المشركين وشركائهم ليكون هذا الموقف في الدنيا قبل الآخرة، لأنه لا ينفع في الآخرة شيء لم توصل له إيماناً وعملاً صالحاً في الدنيا ولا ينفع اكتشاف بطلان ما أنتم عليه في الآخرة، فهذا مكانه الدنيا.

وهذه الآية ١٨ كلمة و ٨٩ حرفاً وترتيبها ١٣٩٢.

المعنى: ويوم: الواو للاستئناف، كان سائلاً سأل تعقياً على ما عرضته الآيتان السابقتان فقال: ومتى يكون هذا الجزاء وهذا الحكم فقيل جواباً له: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ...﴾ وتصح أن تكون عاطفة موضوعاً على موضوع.

ويوم: ظرف زمان مفعول فيه.

نحشرهم جميعاً: استخدم النص نون العظمة لعظمة الموقف وهوله، ونحشرهم أي نجتمعهم ونبعثهم من قبورهم ليسألوا.

جميعاً: أي أولهم وآخرهم، مؤمنهم وكافرهم فلا نستثني من الحشر والنشر أحداً.

ثم نقول للذين أشركوا:

ثم: يصح أن تكون للتراخي الزمني وهو الظاهر والتراخي الرتبي أي ما هو أصعب من الحشر: السؤال.

ثم نوجه السؤال للذين أشركوا من بين من حشروا، ولاحظ تكرار نون العظمة مع أن العهد قريب، بفصل سبع حروف فقط، فنقول لهم:

مكانكم أنتم وشركاؤكم: قفوا مكانكم لا تغادروا ولا تتحركوا من موقفكم.. ووجه الخطاب للمشركين ومن اتخذوهم شركاء من دون الله.

فزيلنا بينهم: أي فصلنا بينهم وفرقنا بينهم، بعد أن كانوا تابعين ملازمين لهم، فالיום يعلمون أنهم لا ينفعونهم، وأنهم كانوا وهماً والآن تبخر هذا الوهم وتبين أنه هباء ولا شيء، فيتقطع ما بينهم.

وقال شركاؤهم: أي قال الذين كانوا يشركونهم مع الله.

ما كنتم إياناً تعبدون: يجحد الشركاء والذين كانوا يُتخذون آلهة وأرباباً يجحدون أن هؤلاء المشركين كانوا يعبدونهم، فهم عاشوا على الكذب والزور والادعاء، وما هم يعبدون الكرة الآن.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «المقصود من الخبر هو ذكر حشرهم جميعاً، ثم ما يقع في ذلك الحشر من افتضاح الذين أشركوا فكان مقتضى الظاهر أن يقول ونحشرهم جميعاً، وإنما زيد لفظ يوم في صدر الجملة لأن ذلك اليوم لما كان هو زمن الحشر وأعمال عظيمة أريد التذكير به تهويلاً وموعظة».

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هكذا يتجلى المشهد الحي في ساحة الحشر بكل حقائقه وبكل وقائعه وبكل مؤثراته واستجاباته تعرضه تلك الكلمات القلائل فتبلغ من النفس ما لا يبلغه الإخبار المجرد ولا براهين الجدل الطويل».

قال السعدي: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجتمع جميع الخلائق، لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة. وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿مَا كُنْمْ إِلَّا نَا عَبْدُونَ﴾ فإننا ننزه الله أن يكون له شريك، أو نديد^(١).

من دروس الآية ٢٨:

- ١- يوم الحشر يوم عظيم يجمع الله فيه الخلائق للحساب والجزاء.
- ٢- يوم القيامة يكفر الشركاء بشركائهم وينكرون عبادتهم إياهم.
- ٣- حقيقة أن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من دون الله ولن يملكوا لهم خلاصاً ولا نجاة.
- ٤- القرآن يسميهم شركاءهم تهكماً من جهة وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوماً شركاء لله.

٥- ﴿فَزَيْلًا﴾ زَيْل فعل للمبالغة في الزيل مثل فرق مبالغة في فرق.. بحيث انقطعت جميع الوصل التي كانت بينهم.

الآية ٢٩:

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن تبرؤ الشركاء عن شركائهم والآن تقول هذه الآية يكفي أن الله يشهد بيننا وبينكم ويحكم بيننا. وهذه الآية ١٠ كلمات و ٤٥ حرفاً وترتيبها ١٣٩٣.

المعنى: فكفى بالله شهيداً: تكررت صيغة فكفى بالله شهيداً في القرآن، وتستخدم في فصل الخطاب، إذا نازع الناس في الحق وكابروا وإذا أنكروا وأصروا، فقد تكون في حاجة النبي مع قومه، وهنا في حاجة الاتباع والمتبوعين عندما أصر المتبوعون أن الاتباع لم يتخذوهم آلهة، وإنما هو ادعاء منهم، فقالوا هذا القول. والمعنى واضح، يكفي شهادة الله في القضية المتنازع عليها، ويكفي به بعد الشهادة حكماً عدلاً، لا يظلم مثقال ذرة.

بيننا وبينكم: أي بين الاتباع والمتبوعين بين المستكبرين والمستضعفين بين المتخذين الزعماء آلهة والزعماء المتخذين - بفتح الخاء- . فهؤلاء الذين كنا نراهم في الدنيا رمز التلازم والارتباط سيكونون في الآخرة رمز الخصومة والعداوة والتلاوم والانفراط.

إن كنا عن عبادتكم لغافلين: إن: هي المخففة من إن المشددة. كأنهم قالوا إنا كنا عن عبادتكم في غفلة وذحول وشرود، ولسنا نذكرها الآن. وهبهم تذكروا أولم يتذكروا، ماذا ينفع الآن تذكر أو غفلة، مضى زمان كل ذلك.

وماذا قصدوا من قولهم هذا؟ أرادوا أنا لم نطلب منكم عبادة، ولم ننتبه أنكم كنتم تعبدوننا، ولو انتبهنا ما قبلنا منكم، ومعاذ الله أن نقبل عبادة أحد، فنحن مجرد بشر ولسنا نقبل أن يحولنا أحد إلى آلهة.. ويا للهول ويا للفتنة للذين أفنوا أعمارهم في عبادة هؤلاء ثم تخلوا عنهم في لحظة، أحوج ما يكونون إلى سند أو ظهير أو مواس أو نصير. وأنى هذا؟ انتهى زمان ينصر فيه أحد أحداً، لا نصير اليوم ولا مجادل ولا خصيم ولا ظهير ولا صديق ولا عشير.. كل ذلك انتهى الآن.. فيا أيها الإنسان استيقظ من غفلتك، هذه ليست قصة تستمتع بها، هذا مصير البشر جميعاً، أن يحشروا إلى الله ثم يسألوا عن النقيير والقطمير، وأخطر سؤال: لم عبدت غير الله وأطعته كأنه الله؟

قال الخطيب: «أي إننا لا ندري من أمركم شيئاً.. و «إن» هنا هي «إن» المؤكدة، خففت.. أي إننا كنا عن عبادتكم لغافلين. وإنكار العبودية على المشركين أنهم عبدوهم، مع أن الله سبحانه وتعالى أعلمهم بهذا - إذ جمعهم بعابديهم - هذا الإنكار يراد به أن هذه العبادة لم تكن عن علم من المعبودين، أو عن دعوة منهم لعابديهم.. فهو تقرير لواقع الأمر، حين وقعت هذه العبادة، وذلك أنهم إنما كانوا يعبدون أصناماً جامدة، وأحجاراً صماء، لا تدري من أمر عابديها شيئاً.. أو بشراً اتخذوهم آلهة لهم بعد موتهم، كما قالت اليهود عن عزيز، وكما قالت النصارى عن المسيح^(١). وما قاله الشيخ الخطيب هو أحد احتمالات المعنى.

من دروس الآية ٢٩:

- ١ - أخطر سؤال يوم القيامة سؤال العبادة لمن عبدوا غير الله.
- ٢ - من زعموا أنفسهم آلهة في الدنيا سيكونون أضعف الخلق وأضيعهم.

(١) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج ٦، ٩٩٧.

٣- المودة الحقيقية والصادقة ما تمتد إلى يوم القيامة وليست مودة ما تنتهي بتبرؤ وخصام وإنكار.

الآية ٣٠

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

الربط والمناسبة: الحديث عن الآخرة ما زال مستمراً، ولذلك ابتدأت الآية بكلمة ﴿هُنَالِكَ﴾ أي حيث كنا نبين لكم ونحدثكم عن تلك الدار.. وفي آيتنا هذه تأكيد لما في سابقتها من بطلان ألوهية من سوى الله، فتقول هذه الآية ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ﴾.

وهذه الآية ١٦ كلمة و ٦٤ حرفاً وتسلسلها ١٣٩٤.

المعنى: هنالك: ظرف مكان (ولا يعرى عن الإشارة إلى الزمان)، واللام فيه للبعد، بمعنى بعد المنزل أي بعد المكان، أو بعد المنزل بمعنى خطورة ذلك اليوم. تَبْلُوا: تختبر وتمتحن وتفحص وتعلم حقيقة الشيء.

وزيدت الألف بعد الواو وهي غير منطوقة بطبيعة الحال، لزيادة تقوية المعنى، ولا أرى الرسم إلا توقيفاً، فالقرآن ليس محلاً للخطأ من النسخ أو الاجتهاد الذي يصيب أو يطيش ويخطئ، معاذ الله -بل هو محفوظ على الجملة وعلى التفصيل فلا يقبل زيادة حرف ولا نقصان حرف. هذا ما نعتقد ولكل وجهة.

كل نفس: أي كل نفس مطلقاً مؤمنة أو كافرة، مصدقة أو مكذبة هنالك تعرف صواب أو خطأ ما قدمت.

ما أسلفت: ما قدمت قبل هذا اليوم أي في الدنيا.

وردوا إلى الله مولاهم الحق: أي ورجعوا في هذا اليوم إلى الله مولاهم الذي لا مولى على الحقيقة سواه.

والمولى بمعنى الناصر والمعين ومعاني الولي متعددة لكن هذا جوهر المعنى.

وضل عنهم ما كانوا يفترون: تاه عنهم ولم تصل معونة من كانوا يظنونهم أو يتخذونهم أولياء وشركاء وآله أحياناً، كل هذا تاه وضاع وضل سبيله ولم يسعف مربوبيه وأتباعه.

يقول الشيخ محمد طه الدرة: «لا تناقض بين قوله تعالى هنا ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ وبين قوله في سورة محمد ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ لأن ما هنا بمعنى المالك والقاهر وهو مولاهم في الرزق وإدراك النعم وأما هناك بمعنى لبس بمولاهم في المعونة والنصرة وغير ذلك».

يفترون: أي يخلقون ويدعون زوراً بلا سند من واقع أو مصداق من دليل أو حجة أو برهان، فهي محض دعاوى زور.

قال الشنقيطي: «صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْلُغُ، أَيْ: تُخْبَرُ وَتَعْلَمُ مَا أَسْلَفَتْ، أَيْ قَدَمَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَيَبَيِّنُ هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿يَبْئُؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾

[الطارق: ٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿[الإسراء: ١٣، ١٤]﴾^(١).

من دروس الآية ٣٠:

- ١- سيأتي على الناس وقت يكتشفون فيه حقيقة ما فعلوا وخطأه أو صوابه.
- ٢- لم يخلق الله الخلق ثم يتركهم بلا حساب ولا جزاء، ذلك ظن الذين كفروا إنما الناس مجزيون بما قدموا، مردودون إلى إلههم ليُجازوا.
- ٣- كل مولى سوى الله ضياع وتيه وخسران وخذلان.
- ٤- ﴿تَبَلَّوْا﴾ تختبر، وهو كناية عن التحقق وعلم اليقين.

الآية ٣١:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٣١﴾

الربط والمناسبة: منذ بدء السورة والسورة تعرفنا بالله ولا أريد أن أعدد الآيات ففي الآية ٣: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وفي الآية ٥: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ سَمًّا وَالنَّهَارَ نَبَاطًا﴾ وفي الآية ٢٢: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرْقِ﴾ وفي هذه الآية يعرفنا مولانا بذاته العلية من خلال آية الرزق وغيره من مظاهر ألوهيته وربوبيته.

وهذه الآية ٢٧ كلمة و١١٣ حرفاً وترتيبها ١٣٩٥.

المعنى: قل: أمر لسيد المأمورين ﷺ، ثم من بعده إلى كل من يصح منه الأمر، أن يقول للناس ما ستقوله الآية.

من يرزقكم من السماء والأرض: والرزق من أعظم آيات الله، فمن يرزق السبعة مليارات إنسان في هذه الأرض الآن؟ والرزق ليس الطعام والشراب فحسب ومن يرزق الحيوانات في البر والبحر وبعضها يأكل عدة أطنان في اليوم الواحد من مَلَأَ البحار بالأرزاق أسماكاً وغير أسماك؟

من يرزق الطيور، ومن يرزق أنواع المخلوقات من الحشرات والنبات وباقي الكائنات؟

ألا تعساً لمن يجحد الإله الرزاق الخلاق العظيم! ولو وجدت مائدة عليها خمسة أطباق وأنواع السلطات والمقبلات لقلت إن النادل الذي رتبها قد درب تدريباً عالياً، وأنت لا تعرفه ولم تره من قبل، أفلا يدلك ما في البر والبحر من الرزق أن إلهاً عظيماً هو الذي أودع في الكون هذه الأرزاق؟ وفعلًا، إن الكفر مكابرة وعمى وانغلاق وانطماس بصر وبصيرة.

أما رزق السماء فليس المطر فحسب، وإن كان هو المتبادر.

والاستفهام تقريرى، وجاء الاستدلال بطريقة الاستفهام والجواب، لأن ذلك في صورة الحوار فيكون الدليل الحاصل به أوقع في النفوس.

ومن أودع في الأرض كل هذه القابليات وكل أنواع النباتات وصنوف الزروع والثمار والحبوب والخضراوات والفواكه والخيرات.. من زود الأرض بالأكسجين ولماذا لا ينفد؟ ولماذا ليس في الكواكب الأخرى؟

وهذا أمر يطول لو أراد الإنسان الاسترسال فيه فهو لا حد لأخره.

أمن يملك السمع والأبصار: قل لهم أيضاً يا رسول الله وكل داع إلى الله من بعده ﷺ، من الذي خلق السمع والأبصار ومن الذي يملكهما. ومن أودع فيهما هذه القدرات وفي الدماغ هذا التمييز بين المسموعات والأصوات وبين المرئيات وسائر المبصرات؟

أم: للإضراب الانتقالي من استفهام إلى آخر.

فهذه آية أخرى من أجلى الآيات على قدرة الله وقهره سبحانه.

وأفرد السمع لأنه مصدر فهو دال على الجنس الموجود في جميع حواس الناس.

ومن يخرج الحي من الميت: وقل لهم واسألهم كذلك من الذي يخرج الحي من الميت، بدءاً من إخراج النبات من الأرض الميتة.

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَحْيِيهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

وصور هذه الآية لا تنتهي، فالبذرة التي تبدو جامدة ميتة إذا غرست في الأرض وسقيت أخرج الله منها النبات الحي الذي ينمو ويتحرك صعوداً إلى الأعلى ويتنفس وينتج الثمرات ويتكاثر.

والطيور من أخرجها من بيوض تبدو ميتة، وكثير من الكائنات كالأسماك والزواحف تتكاثر عن طريق البيوض التي تبدو ميتة، فإذا وجدت الظرف المواتي خرجت منها كائنات حية تتكاثر.

ومن الذي أخرج من التراب الميت أبانا آدم وزوجه؟

ومن المعاني المجازية من الذي أخرج المؤمنين أحياء بإيمانهم من أصلاب الكافرين الأموات بكفرهم.

والصور كما قلت متكاثرة لا تحصر ولا تحصى لمن أراد الاسترسال لكن المجال لا يتسع لتطويل المقال.

ويخرج الميت من الحيا: فهذه الأرض المزدانة بالنبات ما إن ينتهي فصل الربيع حتى تبدأ النباتات بالموت إلى أن تصبح الأرض ميتة تنتظر بعثها بما يجود عليها من غيث تقدير المولى.

ومن الذي يميتنا بعد حياة حافلة، نحن وكل بني الإنسان، ثم أصناف الحيوان وأصناف الكائنات والنباتات كلها تسير إلى موات.. حتى المجرات تموت.. والنجوم تموت: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ وفي النهاية والنتيجة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

ومن يدبر الأمر: وهذا نص مطلق، فيشمل أمر البشر وأمر الكواكب والنجوم والمجرات والأجرام وأمر البدء والمنتهى والأمر فيما نعلم وفيما لا نعلم، ومعلوم أن دائرة بأربعة موظفين تحتاج إلى إدارة وأمر يصدر الأمر للثلاثة الآخرين، فما بالك بهذا الوجود الذي سعته مئات بلايين السنين الضوئية ألا يحتاج من يدبر الأمر فيه؟ فسيقولون الله: لن يكون جوابهم إلا هذا، سيعترفون مرغمين أو طائعين أنه الله، ولو كان للأمر شركاء في كونه - وحاشا - لاضطرب ولاختل ولوقع التنازع فالانسجام يدل على الوجدانية. وإذا كابر ملحد جاحد فقال: بل هي الطبيعة تدبر نفسها، كان محتاجاً أن يعرفنا ما هي هذه الطبيعة؟ ومن أين أتت بهذه القدرة والعلم والإحاطة؟ ولماذا الهرب من المعلوم وهو الله إلى المجهول وهو الطبيعة؟ أهو العناد وراء هذا الهروب؟ وما مصلحة البشرية في هذا العناد وهذه المكابرة؟ ولماذا يشرد الناس عن ربهم ويفرون منه ولا يفرون إليه؟

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَنْقُرُونَ﴾

بدأت الآية بقل وختمت بقل. وبدأت بالاستفهام وختمت بالاستفهام.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «الفاء في قوله ﴿فَقُلْ﴾ فاء فصيحة أي: إن قالوا ذلك فقل ﴿أَفَلَا نَنْقُزُكَ﴾ والفاء في قوله ﴿أَفَلَا نَنْقُزُكَ﴾ فاء التفريع، أي يتفرع على اعترافكم بأنه الفاعل الواحد إنكار عدم التقوى عليكم، ومفعول ﴿نَنْقُزُكَ﴾ محذوف تقديره تتقون الله أي بتنزيهه عن الشرك. أ. هـ».

أفلا: الهمزة للاستفهام والفاء للعطف والمعطوف عليه محذوف بين همزة الاستفهام وفاء العطف... ويمكن أن نقدره: أنكفرون فلا تتقون.
ولا نافية، ومعنى الاستفهام المنفي هنا الإنكار والاستغراب.
تتقون: تحشون الله وتحشون عذابه.

وحذف المفعول ليعم فالحذف هنا أبلغ من الذكر ويجعل المعنى أوسع وأشمل وأعم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هم لم يكونوا ينكرون وجود الله أو ينكرون يده في هذه الشؤون الكبار، ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه».

قال الشعراوي: «وسائل العلم للكائن الحي هي الحواس، وهذه الحواس تعطي العقل معطيات تنفرز فيه لتستقر من بعد ذلك في الوجدان؛ فتصبح عقائد. إذن: فمراحل الإدراك هي: إدراك حسي، وتفكير عقلي، فانتهاه عقدي؛ ولذلك نسّمى الدين عقيدة. أي: أنك عقدت الشيء في يقينك بصورة لا تحلّه بعدها من جديد لتحلّه، فهذا يُسمى عقيدة..»

ولم يذكر بقية الحواس، بل جاء بالسيدين، وهما السمع والبصر؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية، وإبلاغ الرسل يحتاج للسمع، وهما أهم آيتين في البلاغ،

فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل»^(١).

من دروس الآية ٣١:

- ١ - ملا الله الكون بالآيات الدالة عليه سبحانه.
- ٢ - الرزق من أعظم آيات الله الدالة عليه.
- ٣ - من أراد أن يتعرف إلى الله بمظاهر قدرته في الكون فالأمر أيسر ما يكون ومن أراد أن يكابر فلا يقنعه إلا المنون.. عندما يعاين الحقائق.. وتنجلي أمام ناظريه الغيوب.
- ٤ - عظمة البلاغة القرآنية أن الآية لو فصلت لكتب فيها مجلدات.
- ٥ - الاستفهام من أهم ما يحرك العقول والأفهام.
- ٦ - قصّرنا في تعريف الناس بربهم من خلال آيات القرآن وآيات الأكوان.. ومنهما معاً.

الآية ٣٢

﴿فَذَلِّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقَّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ ۝٣٢﴾

الربط والمناسبة: مر ﴿ذَلِّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ في الآية ٣ كما سلف، والآن يعاد النص ﴿فَذَلِّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، فالآية نسق مع سياق السورة، أما علاقتها بالآية السابقة مباشرة فقد استعرضت السابقة من آيات الله في الكون، تلك الآيات الدالة عليه: الرزق، وملك السمع والأبصار، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي،

(١) تفسير الشعراوي، ج ١٠، ص ٥٩٠٧.

وتدبير الأمر في هذا الوجود، وهذه تقرر ما سبق في السابقة، وفي السابقة استفهامان وفي هذه.

وهذه الآية ١١ كلمة و٤٧ حرفاً وترتيبها ١٣٩٦.

المعنى: فذلکم الله ربکم: الفاء للتفريع.

﴿ذَلِكُمْ﴾ اسم إشارة واللام للبعد لتدل على العظمة لا البعد بمعناه المتبادر، والكاف للخطاب والميم للجمع.

الله ربکم: كثيراً ما اجتمع الاسمان الكريمان إما بتقديم فظ الجلالة الله أو بتقديم ربکم.

أما تقديم لفظ الجلالة فيعني أن السياق يعرف بالله من خلال آثار قدرته ثم يدعو الخلق أن يتخذوه رباً لهم.. يربيههم ويتولاهم ويتعهدهم، فإذا قدم لفظ ربکم، فهو ليعرفهم أنه لا يصح أن يكون لهم رب سوى الله.. الذي يملك الأمر والقدرة. الحق: هذه السورة سورة الحق بامتياز لا يضاهيها في هذه المفردة بصيغها سورة أخرى على الإطلاق.

ومعاني الحق عديدة منها مطابقتها لواقع الأمر وصدقه وثبوته.. وكل قضايا الدين حق فالله حق والقيامة حق والقرآن حق والنبيون حق والملائكة حق..

فماذا بعد الحق إلا الضلال: ماذا يكون الشيء الذي يقابل الحق ويضاده ويناقضه، ماذا يكون إلا الضلال؟ ماذا يكون ما بعد الحق؟ لن يكون إلا الضلال.. والبعد عن الخير والصواب والحق. وعبر عن الباطل بالضلال لأن الضلال أشنع أنواع الباطل.

فأني تصرفون: فأين تذهبون؟ وكيف تتبعدون عن الحق؟ وماذا يصرفكم عن هذا الحق؟

وبنى تُصرفون للمجهول ليذهب الذهن إلى الفعل دون الانتباه والانشغال بمن يصرفهم وإنما الانشغال بصرفهم أو انصرافهم لا بمن صرفهم، فالانصراف واحد والصوراف كثيرة.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «فَأَنَّى» استفهام عن المكان أي إلى أي مكان تصرفكم عقولكم، وهو مكان اعتباري، أي أنكم في ضلال وعماية كمن ضل الطريق ولا يجد إلا من ينعت له طريقاً غير موصلة فهو يصرف من ضلال إلى ضلال».

قال الأبياري في الموسوعة القرآنية: «فَذَلِكُمْ» إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله. «رَبِّكُمْ الْحَقُّ» الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر. «فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» يعنى أن الحق والضلالة لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال. «فَأَنَّى تُصْرِفُونَ» عن الحق الى الضلال^(١).

من دروس الآية ٣٢:

- ١- الدين حق وما يضاد الدين إلا أبطل الباطل.
- ٢- لا يليق بالخلق أن يتخذوا لهم رباً وإلهاً سوى الله.
- ٣- أي صارف يصرف الناس عن إلههم ومولاهم الحق؟
- ٤- الحق واحد لا يتعدد ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل وقد ضل التقدير.
- ٥- فأنى تصرفون عن الحق إلى الضلال وعن التوحيد إلى الشرك وعن السعادة إلى الشقاء.

(١) الأبياري، الموسوعة القرآنية، ج ١٠، ص ٥٨.

الآية ٣٣

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ لِمَنِ رِبْكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣)

الربط والمناسبة: الآية شديدة الاتصال بسابقتها، فقد بينت السابقة من هو الإله الحق وأن ما بعد الحق إلا الضلال وأن من ينصرف عن الحق مبطل.. فجاءت آيتنا هذه تبين سنة الله في هذا الأمر وناموساً مطرداً أن كلمته بالإضلال حقت على كل المصيرين على الباطل والفاسقين الخارجين عن أمر الله ومنهج الله. وهذه الآية ١٠ كلمات و٣٩ حرفاً وترتيبها ١٣٩٧.

المعنى: كذلك: الكاف للتشبيه ثم اسم الإشارة ثم لام البعد فكاف الخطاب للمفرد.

حقت: من صيغ الجذر حق الذي سيتردد في هذه السورة أكثر من سواها بشكل لافت، وحقت يعني ثبتت وتحققت ستتنا في خلقنا. وكذلك الحق حقت عليهم كلمة ربك مبالغة في ظهوره حتى أنه إذا أريد تشبيهه لم يشبه إلا بنفسه. كلمة ربك: أمر ربك المتمثل بكلمته، وستشرحها كلمات آخر الآية وأضافت كلمة رب إلى ضمير خطابه عليه الصلوات لتشريفه وتكريمه.

على الذين فسقوا: والفسق معناه الخروج بمعناه المطلق: خروج عن الدين والفطرة والعقل والمنهج والكون والحق.

وقدم هذه الجملة على ختام الآية لبيان المعنيين بالحكم قبل النطق بالحكم وليحدددهم قبل الحكم عليهم.

أنهم لا يؤمنون: هذا هو الذي حق عليهم ووجب وتقرر وفق سنن الله في الخلق والبشر والمجتمعات.

فالفسق مانع من الإيمان، وكيف غملاً كوباً وهو مقلوب؟

قال الزمخشري: «أي كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقت كلمة ربك».

قال دروزة: «قد تضمنت قصد تقرير كون الذين لا يؤمنون بالحق ولا يتبعونه، والذين يكابرون في الحقائق الباهرة ويتناقضون إنما هم الفاسقون الذين تعمدوا الانحراف والاعوجاج والعناد والجحود، وفسدت أخلاقهم ونياتهم، فحقت عليهم كلمة الله ولعنته وغضبه. وتضمنت بالتالي قصد تقرير كون فساد الخلق والنية وسوء الطوية في المرء هما اللذان يحولان دون اتباعه الحق. وكون الذين يهتدون بهدى الله هم ذوو النيات الحسنة والطوايا السليمة»^(١).

من دروس الآية ٣٣:

- ١- في هذه الآية سنة من سنن الله في الهدى والضلال.
- ٢- الفسق واحد من موانع الهدى والإسراف مثله والكبر والظلم.
- ٣- على الناس أن تعرف سنن الله في الهدى فهي من أهم وأخطر السنن الواجب معرفتها وتعلمها.

الآية ٣٤

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ

تُؤَفِّكُونَ ﴿٣٤﴾

الربط والمناسبة: عجيب تنقل القرآن بين موضوع وموضوع بسلاسة بالغة وربط دقيق محكم وثيق، ففي الآية ٢٨ قوله تعالى ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ

(١) دروزة، التفسير الحديث، ج ٣، ص ٤٦٧.

وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ... ﴿٣٢﴾ ثم عرفتنا الآية ٣٢ بالله الإله الحق والرب الحق فقالت: ﴿فَذَلِّكُمُ اللَّهُ رَبَّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وبينت ناليتها سنة الله في إضلال الفاسقين، وجاءت هذه الآية تحسم هذا الأمر. وكذلك فقد كثر الاستفهام قبل هذه الآية وجاءت هذه بالاستفهام، وكذا الافتتاح بالأمر ﴿قُلْ﴾ فقد مر في الآية ١٦ والآية ٣١ والآن هذه الآية والتالية.

ثم الآية ٤٩ و ٥٠ و ٥٨ و ٥٩ ثم ٦٩ ثم ١٠١ ثم ١٠٨.

وهذه الآية ١٧ كلمة و ٦٥ حرفاً وترتيبها ١٣٩٨.

المعنى: قل: هذا هو الافتتاح الثالث لآية في سورة يونس بفعل الأمر قل من بين إحدى عشرة مرة في هذه السورة، وفعل الأمر هذا يوحى بالبلاغ وبالأهمية وبالتعليم وان هذا وحى من الله وما الرسول إلا عبد مبلغ عليه الصلوات وليس من عند نفسه الوحي.. فإيماءات الكلمة العظيمة عديدة وعظيمة.

والمأمور بالفعل قل سيد من أمر وطلب منه ﷺ ثم من بعده لكل من حل هم هذه الدعوة والبلاغ وتوصيل الحق إلى الناس.

هل من شركائكم: أداة الاستفهام الأشهر هل، وجوابها بسيط كما هي، ومعنى السؤال هل تزعمون أو يزعم أحد من شركائكم الذين اتخذتموهم أنداداً وشركاء لله بزعمكم من يدعي شيئاً من خصائص الألوهية وأولها الخلق؟ والجواب عندكم وعند كل أحد بالنفي قطعاً فكيف تتخذونهم إذاً شركاء.

وأما الاستفهام بهل في اللغة والبلاغة فلطلب التصديق لا غير.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف قيل لهم ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ

يُبْدُوهُ﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها

موضع ما إن دفعه دافع كان مكابراً راداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه. دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً فيه معترفاً به عند العقلاء».

من يبدأ الخلق ثم يعيده: وأول ما يلتفت النظر هو يبدأ الخلق معناها ورسمها، أما معناها فظاهر وهو الإنشاء ابتداء، فالبشر يزرعون الآن ويهجنون الأشجار والحيوانات فيظنون أنهم صنعوا شيئاً والنعجة دوللي ما هي إلا خلية ملقحة لم يصنعوا هم لها شيئاً سوى الانتظار أن تولد بعد حقنها في النعجة الأم.. لكن الإله العظيم سبحانه بدأ الخلق من العدم، فخلق الكون وخلق الملائكة وخلق الجن والإنس والنبات والحيوان والحشرات والجماد وفجر الأنهار ووزع المجرات وحركها بسرعات تفوق الخيال، فمن غير الله يفعل هذا؟ فلم يعبد من لم يخلق ولم يصنع شيئاً؟ أما رسمها فقد زيد فيها الواو مهموزة وبعدها ألف صامته، وأعتقد أن هذا الرسم مقصود، ومعاذ الله أن يقع في كتاب الله سهو ثم يدوم ولا يزول، ويثبت ويبقى أبقي من الجبال، إلا أن يكون الحق الثابت منذ الأزل وإلى الأبد.

وهذا فيما أرى للفت النظر إلى الكلمة وزيادة الواو لتقوية السؤال وتقوية الكلمة موضع السؤال.

ثم يعيده: مَنْ مِنْ هؤلاء المزعومين شركاء من يعيد الخلق من بعد موته من يعيد بناء السماوات والأرض بعد أن ينتهي النظام الكوني الحالي من يعيد خلق الإنسان ويبعثه للحساب والجزاء؟

مَنْ مِنَ الشركاء الذين تدعونهم يقدر أن يفعل هذا وهو نفسه سيكون عدماً بعد حين، أو هو عدم منذ حين كما يزعم بعض الهنود الحمر عن أرواح أجدادهم أن فيها قوى خارقة وأنها تنزل المطر..

فأين جدك ولم لم يبعث نفسه ويبقى بينكم؟

والآية شطران كل قسم مفتتح بقل وتكاد تكون متوازنة في عدد الكلمات والحروف.

والقسم الثاني هو جواب السؤال في القسم الأول وابتدئ بقل لليلة ذاتها التي أسلفناها في الأولى.

قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده: افتتح الكلام بعد قل بلفظ الجلالة لتربية المهابة كما يقول السادة العلماء في نظائرها من القول الحكيم، وللمسارعة في الجواب ولحسمه من أول الأمر وأول الطريق..

الله يبدأ الخلق، والدليل الخلق نفسه فمن سوى الله قال إنه بدأ الخلق؟ فالوجود أبلغ دليل، ونفي نسبة الخلق إلى الله جنون مطبق، فهل يتصور أحد أن عاقلاً يقول عن ساعة يد أنها صنعت بغير صانع؟ وما هي في الكون؟ فكيف تزعم كوناً في منتهى العظمة ومنتهى الدقة وجد بلا موجد وصنع بلا صانع؟

أما الشق الآخر من الكلام وهو ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فيدل عليه الأول، وكما قال سبحانه: ﴿أَفَعَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. وكما قال أيضاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

فأني توفكون: هذا الختام كختام الآية ٣٢ لكن هناك قال فأني تصرفون، وهنا قال: توفكون. وقد وردت توفكون ٤ مرات في سورة الأنعام ويونس وما أشبههما وفاطر وغافر وما أشبههما وفي جميعها بصيغة واحدة ﴿فَأَنَّى تُؤَفَّكُونَ﴾ أي تنصرفون إلى الأفك والباطل.

أما تصرفون فوردت في القرآن مرتين هذه التي في يونس أولاها وثانيها وآخرها ما في الزمر والشتان ﴿فَأَنَّى تُصَرَّفُونَ﴾.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هم مسلمون بأن الله يبدأ الخلق وغير مسلمين بأعادته ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء ولكن حكمة الخالق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق إنها رحلة ناقصة لا تليق بخالق مدبر حكيم».

قال سيد طنطاوي: «قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، أما شركاؤكم فهم أعجز من أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له. وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ والإفك الصرف والقلب عن الشيء. يقال: أفكه عن الشيء يأفكه أفكاً، إذا قلبه عنه وصرفه. أي فكيف ساع لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق، إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر؟!».

وجاءت جملة ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ بدون حرف العطف على ما قبلها للإيذان باستقلالها في حصول المطلوب، وإثبات المقصود.

وساق - سبحانه - الأدلة بأسلوب السؤال والاستفهام، لأن الكلام إذا كان واضحاً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام، وتفويض الجواب إلى المستول كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب.

وجعل - سبحانه - إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم في التدليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها، للإيذان بسطوع أدلتها، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ﴾ فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة، نزل إنكارهم لها منزلة العدم^(١).

من دروس الآية ٣٤:

- ١- المنطق البسيط مطلوب فليست الأمور بتعقيدها وتطويلها.
- ٢- الرجوع إلى البديهيات يحسم المشكلات.
- ٣- حسم قضية الشرك بالرجوع إلى أوليات المسائل من بدأ الخلق أول مرة؟
بجواب السؤال تنتهي مسألة الشرك في العقل السوي ويبقى العناد وهذا ليس له علاج ولا يصلح معه نقاش ولا جدال ولا حجاج.
- ٤- إعادة الخلق دليلها الخلق الأول نفسه فمن خلق أول مرة يعيد الخلق مرة أخرى.
- ٥- إن بطل أن الشركاء خلقوا شيئاً وهو قطعاً باطل فقد بطل كل ما انبنى عليه وهو اتخاذهم آلهة ومشرعين ومقررين لقيم الناس وأخلاقهم ونظمهم فهذا من شأن الله وحده.

الآية ٣٥

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ

أَنْ يُنَبِّعَ أَمَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

الربط والمناسبة: بدأت الآية السابقة بقل وهذه كذلك، وسألت السابقة هل من شركائكم من يبدأ الخلق؟ وسألت هذه الآية هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟ وأجابت تلك ﴿قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ وأجابت هذه ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وختمت تلك بالاستفهام وهذه بالاستفهام.

فالآية نسق مع جارتها وهما نسق مع جو السورة وفي قمة الاتساق.

وهذه الآية ٢٨ كلمة و ٩٧ حرفاً، وترتيبها ١٣٩٩.

المعنى: تبتدئ الآية بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ والمأمور سيد المأمورين ﷺ، وإيحاء قل أنه مبلغ وليس منشأ للأمر، وإنما هو حامل أمانة الرسالة والبلاغ إلى الناس.

هل من شركائكم من يهدي إلى الحق: يريد القرآن أن يهدم الشرك في نفوس العباد بالإقناع بخطاب العقل وخطاب الفطرة، وتفعيل ما أودع الله في الإنسان من ملكات وقدرات وطاقات من أروعها هذا العقل، فإن ضل، فالويل لهذا الإنسان، تسألهم الآية الكريمة ليفكروا، من يطبق التيه والضلال؟ في واقع الأمر، أو نظرياً، لا أحد، لكن في الواقع، كثيراً ما يمارسه البشر أي يوقعون أنفسهم في الضلال، وكأنهم أعداء لهذه الأنفس وهم يزعمون أنهم يحبونها ويحبون سعادتها.. باختصار نقول: تقول الآية: هل من الذين اتخذتموهم شركاء مع الله من يهديكم إلى الحق والصواب في هذا الوجود وهذا الكون وهذه الحياة؟ وكيف يهدونكم إلى الحق وهم رمز الضلال إذ زُعموا أنداداً لله ولم يصنعوا شيئاً ولم يخلقوا بعوضة ولا ذبابة ولا ذرة؟ فكيف يهدون إلى الحق الذي مصدره الله وهم أعداء الله؟

ولم يجيبوا ولم تجب الآية إذ اعتبرت الأمر مفروغاً منه مبتوتاً منتهياً، فرتبت على السؤال ونتيجته المحسومة تقرير الحقيقة البديهية أن الله هو الهادي إلى الحق.

قل الله يهدي للحق: قل للمرة الثانية، قل وأجب عنهم فهم لن يجيبوا لأن الآية حاصرتهم، قل لهم: الله وحده يهدي للحق.

ثم رتبت الآية الكريمة على ما مر سؤالاً آخر:

﴿أَفَنُيْهِدِي إِلَىٰ آلِ الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبِّعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾

من أولى بالاتباع وأحق بأن يطاع: الذي يهدي إلى الحق الذي هو أعظم مطلب في الحياة، أم الذي لا يهدي، وعبر بـ﴿يَهْدِي﴾ بكسر الهاء وتشديد الدال، ولم يتكرر

هذا اللفظ، وإنما عبر به ليشدد نفي أن ألفتهم تهدي إلى شيء من الحق.. كقوله تعالى: ﴿يَخِصِّصُونَ﴾ في سورة يس، ولم يتكرر كذلك، ليصور شدة التخاصم.

وهؤلاء الشركاء المزعومون يحتاجون هم من يهديهم: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ فإن كان الشركاء بشراً فكيف يتخذون آلهة وهم يموتون وهم لا يهدون وهم أقوياء بكم يا من تتخذونهم آلهة، ولكنكم تستمدون الهدى من الله والقوة منه والرزق منه، فمن الأحق بأن يُتخذ إلهاً؟ الإله الحق أم الذي اصطنعه الناس زوراً إلهاً أو آلهة؟ والجواب مقطوع محسوم لو كان البشر يريدون حسم قضية الهدى والضلال.

ثم ختمت الآية بسؤال ثالث: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

والفاء في ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ تفريعية مبنية على ما قد سبق، و﴿فَمَا لَكُمْ﴾ استفهام تعجبي إنكاري وكيف: استفهام عن الكيفية التي بها تحكمون على القضايا. كيف اتخذتم آلهة مع الله مع علمكم أو إقراركم أي من عقل منكم أنهم لا يهدون إلى الحق ولم يخلقوا شيئاً.

فكيف اتخذتموهم وتركتم عبادة الإله الذي خلق وهدى؟

ما الذي حملكم على هذا؟ وأي مصلحة لكم في هذا؟

جاء في التفسير الميسر: «قل لهم: الله وحده يهدي الضال عن الهدى إلى الحق. أيهما أحق بالاتباع: من يهدي وحده للحق أم من لا يهتدي لعدم علمه ولضلاله، وهم شركاؤكم الذين لا يهدون ولا يهتدون إلا أن يهدوا؟ فما بالكم كيف سؤيتم بين الله وخلقه؟ وهذا حكم باطل»^(١).

من دروس الآية ٣٥:

- ١- للألوهية دلائلها وآياتها الباهرة منها الخلق والهدى إلى الحق، ولا يملك هذه إلا الله، فكيف يتخذ سواه.. إلهاً من دون الله؟
- ٢- من أعظم ما أودع الله في هذا الإنسان العقل، ولكنه لا يستخدمه في الوصول إلى الحق، أو يستخدمه استخداماً مغلوطاً فيوصله إلى الباطل.
- ٣- لو يفكر الإنسان كيف يفكر وكيف يحكم على الأشياء لتغير كثير من سلوك الناس وحكمهم على الأشياء.

الآية ٣٦:

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الربط والمناسبة: تكلمت الآية عن الذين اتخذوا شركاء وسألتهم هل يهدي شركاؤهم إلى الحق، وهل أولى بالاتباع من يهدي أم الذي لا يهدي، وسألت في ختامها ﴿فَالْكَوْكِفَ تَحْكُمُونَ﴾ وبينت آيتنا هذه أن أكثرهم يتبعون الظن في أحكامهم ولذا يصلون إلى النتائج المغلوطة.

وقد ورد يتبع في السابقة بضم الباء وورد يتبع في هذه بفتح الباء.

وهذه الآية ١٧ كلمة و٦٠ حرفاً وترتيبها ١٤٠٠.

المعنى: وما: الواو للاستئناف، وما نافية.

يتبع: أي أنهم يسرون في أحكامهم ومنهجية تفكيرهم خلف الظنون.

أكثرهم: دقة القرآن البالغة فلم يقل كلهم، والسؤال هنا من المقصود بكلمة

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ هل هم الكافرون؟ وإذا كانوا كذلك فالأقل المتضمنون في كلمة أكثرهم

ماذا يتبعون؟ أم أن أكثرهم تعود إلى الناس على الجملة، وأما المؤمنون فهم الأقلون الذين يتبعون منهجاً فكرياً منضبطاً، دقيقاً سديداً؟

وأرى أن أكثرهم تعود على الكافرين، أما الأقل فلما أنه بلا منهج أصلاً ولا تفكير، أو أنه كفر عناداً وتكبراً وليس عن ظن.

والاحتمالات عديدة على كل حال، وهكذا هي نصوص القرآن غنية بالمعاني زاخرة باحتمالاتها.

إلا ظناً: ما وإلا تفيد الحصر والقصر، أي لا يتبعون شيئاً إلا الظن.

وتنكير ﴿ظَنًّا﴾ للتحقير أي ظناً واهياً.

أما الظن، فهو التخمين والتهوئات، بلا دليل ولا إعمال فكر ولا استناد إلى حق ثابت، ولا نص سماوي، أو كتاب من الله.. أو علم يقيني، أو مصدر مقدر للمعرفة.

إن الظن لا يغني من الحق شيئاً: تعليق على اتباع الظن الذي يمارسه أكثرهم، وهذا حكم إلهي بأن الظن لا يجدي من الحق ولا يغني ولا يوصل إلى الحق، وعبر بـ ﴿شَيْئًا﴾ منكرًا ليفيد شيئاً أي شيء مهما ضؤل، فالتنكير هنا للتقليل. وهو مفعول مطلق مؤكد لعامله، أي لا يغني شيئاً من الإغناء.

إن الله عليم بما يفعلون: الآية ثلاثة مقاطع هذا ختامها، فالمقطع الثاني تعقيب على الأول، والأخير تعليق عليهما، وختم الثاني والثالث بإن للتوكيد.

عليم: يقال لهذه الصيغة في اللغة أنها للمبالغة، هكذا صيغة فاعل تعتبر في نظر اللغة. وليس في أسماء الله مبالغة.. فهو العليم المطلق الذي لا تغيب عنه ذرة سبحانه.

بما يفعلون: حرف الجر الباء داخل على ما الموصولية أو المصدرية.

وعبر بيفعلون المفيد الأفعال، بينما يعملون تشمل الأفعال المادية أي أفعال الجوارح وأعمال الجوانح أي أعمال القلب والعقل والنفس والروح والملكات كلها.

وأرى في هذا تنزيلاً لهم عن المستوى الأعلى والأرقى.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «إن العلم المشوب بشك لا يغني شيئاً في إثبات الحق المطلوب، وذلك ما يطلب فيه الجزم واليقين من العلوم الحاصلة بالدليل العقلي، لأن الجزم فيها ممكن لمن أعمال رأيه إعمالاً صائباً إذ الأدلة العقلية يحصل منها اليقين».

جاء في تفسير المنتخب: «وما يتبع أكثر المشركين في معتقداتهم إلا ظنوناً باطلة لا دليل عليها، والظن - على وجه العموم - لا يفيد، ولا يغني عن العلم الحق أي غناء، ولا سيما إذا كان ظناً وهمياً كظن هؤلاء المشركين. وإن الله عليم بما يفعله رؤساء الكفر وأتباعهم الذين يقلدونهم، وسيجازيهم على ذلك»^(١).

من دروس الآية ٣٦:

- ١- اتباع الظن الذي يفعله أكثر الناس ليس سبيلاً للوصول إلى الحق.
- ٢- اتباع الظن منهجية لا تليق بأصحاب العقل والذين يعملون فكرهم ويستندون في اعتقادهم وتبنيهم للأفكار إلى أدلة القضايا وبراهينها.
- ٣- أغلب الناس يبنون مواقفهم وأفكارهم وتصوراتهم على الظنون وهذه شهادة من الله عليهم، ووصف مطابق لواقعهم.
- ٤- الحق هو الثابت في نفس الأمر، والمراد به هنا معرفة الله وصفاته مما دل عليهما الدليل العقلي مثل وجوده وحياته.

(١) المنتخب في التفسير، ص ٢٩٢.

الآية ٣٧:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
الَّذِ كُتِبَ لَا رَبِّعِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧)

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن منهجية مغلوطة في البحث والتفكير واعتناق المبادئ وتبني الأفكار، وهذه المنهجية المخطوءة أوصلتهم إلى اعتقادات بشأن القرآن لا تمت إلى الحق والواقع، لكن المنهجية الرديئة أوصلتهم إلى نتائج أو استنتاجات بحقه لا تمت إلى الحق، فنفي القرآن في هذه الآية توهمات التي انبنت على المنهجية الفاسدة. فهذا القرآن حق منزل من عند الله وليس مفترى من قبل أحد^(١).

وقد ختمت الآيتان السابقتان بالفعل المضارع في كل: تؤفكون، تحكمون، وختمت هذه بالمضارع يفعلون فثم التفات في الآيات. وهذه الآية ٢٢ كلمة و٨٢ حرفاً وترتيبها ١٤٠١.

المعنى: وما كان: هذه الصيغة في العربية من أشد صيغ النفي، وإذا كانت صيغة ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ من أقوى صيغ الإثبات أو أقواها، فإن صيغة ﴿وَمَا كَانَ﴾ من أقوى صيغ النفي أو أقواها.

(١) لا نريد أن نتوقف عند خلف الله ولا أن نعكر صفو المعاني بعكر أفكاره وتلويثاته في كتابه عن القصص القرآني بإشراف طه حسين والخولي عندما كان الكتاب أطروحة جامعية للدكتوراه، فقد قال ويش ما قال: أن القرآن مفترى ولكن من قبل الله، وزعم أنه يقصد بمفترى أي أن قصصه ليست حقيقية بل هي كخيال القصاصين أهدافهم خيرة وليست واقعية وهو يزعم أنه يدافع عن القرآن فكيف لو كان يهاجمه!.

هذا القرآن: ولفظ القرآن في سورة يونس هذه هي المرة الثانية لوروده واسم الإشارة هذا للقريب وهو مستخدم هنا لتقريبه وتحديدته وتركيز الأنظار عليه والقرآن هو الاسم الأعظم لهذا الكتاب، إن جاز التعبير.

أن يفترى: هنا عطف النفي، فيستحيل أن يكون هذا القرآن مفترى مختلقاً من قبل البشر، فبقي أنه من عند الله، وإذا كان من عند الله وهو كذلك فيستحيل أن يكون مفترى من قبله، تعالى الله، لأنه لا أحد أصدق من الله قليلاً، ولماذا يفترى وحاشاه؟ إنما يفترى الضعيف والهزيل، فلم يفترى القدير الخبير القوي العليم الحكيم؟

من دون الله: أي أن يكذب على الله، أو أن يختلق وينسب إلى الله، وكيف يسمح الله لمفتر أن يفترى قرآنه وينسبه إليه، وهو قد تعهد بحفظه، وقد يقال هذه الكتب السابقة قد لعبت بها الأيدي وحرفتها وهذا صحيح، فكيف لم تصل الأيدي بالتحريف والافتراء إلى القرآن؟ ولا داعي للتفلسف في الجواب، فالواقع أبلغ جواب وأصدق جواب، ونحن نتحدى الدنيا كلها إن كان في القرآن حرف زيد أو حرف نقص، فالمنظومة العددية أو الرقمية لحروف القرآن تقطع بأنه محفوظ ليس على الجملة فحسب، وإنما في التفاصيل وفي الحروف، وما رسم مما يبدو مخالفاً للرسم، فزيد في الحروف أو نقص منها هو لحكمة بالغة، ورسم توقيفي، فلا زيادة ولا نقص.

فحرف الطاء في سورة النمل، على سبيل المثال، تكرر ٢٧ مرة وهذا هو رقم سورة النمل وحرف السين قد تكرر فيها ٩٣ مرة وهو عدد آياتها، فهل هذه مصادفات؟ وسورة النمل فاتحتها طس والأمر أكبر من هذا بكثير لكنني أحببت أن أشفع الكلام بشاهد يسير.

ولكن تصديق الذي بين يديه: إضراب عن نسبة الافتراء بحق هذا الكتاب إلى إحقاق الحق في شأنه، ولكن هذا الكتاب صادق ومصدق للحقائق التي في الكتب التي سبقتة.

فما موقف القرآن من الكتب الموجودة وقد عبث بها الأيدي؟ أقول: إن التصديق ينصرف إلى جملة القصة لا إلى تفاصيلها.

فقصة آدم يصدقها كتابنا في مجملها وأحداثها الرئيسة وخطوطها العريضة، إنه خلق من تراب الأرض وأسكن الجنة واستجاب لوسوسة الشيطان فنزل أو أنزل من الجنة..

لكن الشيطان دخل في الحية وتسلل إلى الجنة، فهذا لا يصدق كتابنا بل يرفضه بالطلق وبالقطع واليقين.

وتفصيل الكتاب: أي تفصيل جنس الكتاب الذي سبقت إليه الإشارة بقوله ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فكان ما أجمل هناك فصله هذا الكتاب هنا.

لا ريب فيه: لا شك فيه، ولا شك يتطرق إليه ولا يعتره، لا وقت نزوله، ولا بعد نزوله، إلى أن تزول الأرض، ويتنقض بنیان الوجود، وهذا الكتاب لا يزداد إلا ألفاً وبهاءً وتحققاً وتصدقه الوقائع والكشوف والعلوم.. وهو يتحدى الدنيا أن تتحدها وتحالف فيه شيئاً.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «جملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مستأنفة ردت مزاعم الذين زعموا أنه مفترى باقتلاع افترائه، وأنها مما لا يروج على أهل الفطن والعقول العادلة، فالريب المنفي عنه هو أن يكون من أحواله في ذاته ومقارناته ما يثير الريب».

من رب العالمين هذا الكتاب مصدره الله، ونزل من عند الله، رب العالمين، الذي يربي العالمين، أرواحاً وأشباحاً، أي أجساماً وأرواحاً وعقولاً وقلوباً ويزكي نفوسهم وأخلاقهم، ويهذب بقدرته وكلماته في كتابه أخلاقهم، ويظهر بواطنهم وظواهرهم فنفي أول الآية أن يكون هذا الكتاب اختلق من أي أحد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ثم أثبت في آخر الآية أنه تنزيل لا ريب في ذلك ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالتقى أول الآية وآخرها في إثبات هذه الحقيقة بنفي ضدها أولاً على منهج التخلية، وإثبات صدقها ثانياً على منهج التحلية.

فتبارك الله منزل الكتاب المبین.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «العقيدة في الله واحدة والدعوة إلى الخير واحدة، ولكن صورة هذا الخير فيها تفصيل يناسب نمو البشرية وقتها وتطورات البشرية بعدها».

قال الزمخشري: «فإن قلت بم اتصل قوله تعالى: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قلت: هو داخل في حيز الاستدراك وأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الريب كائناً من رب العالمين».

قال الصابوني: «﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإنجيل فإنها قد بشرت به»^(١).

من دروس الآية ٣٧ :

- ١- من المحال أن يكون هذا القرآن مختلفاً مفترى على الله.
- ٢- أدلة ربانية القرآن في كل آية فيه بل في كل كلمة بل في كل حرف.

(١) الصابوني، صفوة التفسير، ج ١، ص ٥٤٤.

٣- هذا القرآن من معين الحق، ولذا فهو يصدق الكتب السابقة لأن مصدر الكتب واحد.

٤- بعد أن عبثت الأيدي بالكتب السابقة فإن القرآن يصدقها على الجملة لا على التفصيل.

٥- ليس الافتراء هو المنفي!! ولكن جواز وجوده هو المنفي وهو أبلغ في النفي وأبعد.

الآية ٣٨:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَفْتَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾

الربط والمناسبة: بعد أن بينت الآية بوجه قاطع أن هذا القرآن لا يمكن أن يفترى على الله، جاءت هذه الآية تبين أن بعض المكابرين قد يستمرون في طرح الشبهات عن أن هذا القرآن مفترى وينسبون إلى رسول الله ﷺ، وحاشاه، أنه افتراء، فيجيبهم القرآن في هذه الآية.

وهذه الآية ١٦ كلمة و ٦٥ حرفاً وترتيبها ١٤٠٢.

المعنى: أم: للاستفهام التعجبي وفيها معنى الإضراب الانتقالي أي أبعد هذا البيان القاطع أنه من الله، يصر قوم فينسبونه إلى الافتراء وأن الرسول كتبه من عنديات نفسه؟ وحاشا بالطبع.

يقولون افتراه: هذا هو المستفهم عنه، وعبر بالمضارع ليفيد تصوير هذا القول المزعوم وكأنه يقال الآن، ليفيد تجدده وانتقاله من جيل إلى جيل مع أنه محض خيال. بل أيقولون اختلقه، على أن الهمزة تقرير للإلزام بالحجة عليهم.

والافتراء: الاختلاق والكذب.. وهل كلام مكذوب يحتوي كل هذا الحق والخير والعظمة والجمال؟

قل: فعل الأمر يتكرر في سورة يونس، إن في فاتحة الآيات وإن في ثناياها. وهو يخاطب الرسول الكريم المبلغ ﷺ أن يقول لمن يردد مثل هذا الافتراء..

فأتوا بسورة مثله: جواب لهم ورد عليهم: فأتوا، أي فقولوا أو فأتوا بها بأي طريقة، بسورة مثله: يكفي سورة واحدة إن كان هو جاء بمئة وأربع عشرة سورة، والضمير في مثله لا يعود إلا على القرآن فيما أرى، ومن أرجع الضمير إلى النبي عليه الصلوات، فإنه أبعد النجعة، وكذا في قوله: ﴿سُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾.

«وادعوا من استطعتم من دون الله»: لم يته التحدي عند قوله تعالى: ﴿سُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ ولكنه زاد عليه أن يدعوا لمساعدتهم ومعاونتهم ومشورتهم من يستطيعون من الخبراء والعلماء أو من الجن والإنس أو الحواسيب في هذا العصر، أو ما شئت من عون أو وسائل.. أي كل من سوى الله. وهذا معنى قوله: ﴿مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي استعينوا بكل الخلق عدا الخالق لمعاجزة كلام الخالق ولننظر النتيجة، فهي محسومة سلفاً، والواقع أكبر برهان على هذا.. والعرب أول هذا الواقع، وأول من استسلم وسلم الزمام، وكسر الأقلام وامتشق الحسام، ولو ظن أنه بالكلام يدافع خير الكلام وأحسن الكلام ما امتشق الحسام.

وفيم يقتل العرب زعماءهم وهم يستطيعون كسب المعركة وكسر راية القرآن - وحاشا- بالكلام، ألم يقولوا: ﴿لَوْ كُنَّا لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ ألا فلتحققوا دعواكم. ألا فلتقولوا. ومحمد أمي وأنتم متعلمون أو فيكم ومنكم متعلمون، وهو فرد وأنتم جمع أو جميع.

والقرآن نزل عليه في ثلاث وعشرين سنة وأنتم خذوا الزمن كله إلى آخر الزمان، وهو أتى بقرآن كامل، فأتوا أنتم بسورة مثله.. هل هذه الشروط تعجيزية أم هي لصالحكم؟ فلماذا لا تقدمون على التحدي وتقدمتم لحثوفكم؟

إن كنتم صادقين: أي إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم تستطيعون مضاهاة القرآن ومنازلة القرآن ومعارضة القرآن. ومعنى ﴿صَادِقِينَ﴾ هنا أي في قولكم أنه افتراه لأنه إذا أمكنه أن يفتره أمكنكم معارضته.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «من بديع الأسلوب وبلغ الكلام أن قدم في الآية السابقة وصف القرآن بما يقتضي بعده عن الافتراء وبما فيه من أجل صفات الكتب، وبتشریف نسبته إلى الله تعالى، ثم أعقب ذلك بالاستفهام عن دعوى المشركين افتراءه، ليتلقى السامع هذه الدعوى بمزيد الاشمئزاز والتعجب من حماقة أصحابها فلذلك جعلت دعواهم افتراء في حيز الاستفهام الإنكاري».

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري، أن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للداء البشري حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً».

قال حجازي: «ثم انتقل القرآن الكريم لبيان عقيدتهم في القرآن، ناعياً عليهم سوء فهمهم بعد ما بين أنه أجل وأعلى من أن يفترى ويختلق. بل يقولون افتراه محمد من عنده؟! قل لهم يا محمد: إذا كان الأمر كذلك فأتوا بسورة مثله قوة

وإحكاماً وبلاغة ودقة، وادعوا من استطعتم دعاءه من دون الله، ليعينكم على عملكم، فإن الخلق مجتمعين عاجزون عن الإتيان بمثله^(١).

من دروس الآية ٣٨:

- ١- هذا القرآن معجزة مطلقة ومعجز مطلقاً أي من كل وجه وأعظم أوجه الإعجاز كما أكرر دائماً ألا تنتهي أوجه الإعجاز.
- ٢- أنصف القرآن خصوم القرآن بأن قُبل منهم التحدي والمعارضة بسورة واحدة وأن يجتمعوا لها ويدعوا لها كل من سوى الله.
- ٣- عدم الإيمان عناد ومكابرة وإصرار وتعصب وافتقار إلى المحاكمة العقلية.
- ٤- إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملة ما يطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها.

الآية ٣٩

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَهِهِ وَلَمَّا بَأْسُهُمْ تَأْوِيلَهُ كَذَّابٌ أَذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْفَٰلِٰغِينَ ﴿٣٩﴾﴾

الربط والمناسبة: كان السياق الكريم يتحدث عن يزعمون أن القرآن بشري المصدر وأنه ليس وحياً وأن النبي الكريم افتراه، وحاشاه، وهنا يبين سبب موقفهم هذا وأنه التكذيب بما لم يستوعبوه ولم يفهموه، وعدم التصديق بما سيؤول إليه أمرهم من خراب ومن عذاب، وأن عاقبة السوء تنتظرهم وينتظرونها، فالربط محكم وثيق.

(١) محمد محمود حجازي: التفسير الواضح ج ٢ ص ٦٤-٦٥.

وهذه الآية ١٩ كلمة و٧٩ حرفاً وترتيبها ١٤٠٣.

المعنى: بل: حرف إضراب، ويكون حيناً انتقالياً وحيناً إبطالياً حسب السياق، والأرجح هنا أنه إضراب إبطالي أي أنه أبطل مقولاتهم وفندها ودحض ادعاءاتهم، وعللها وفسرها وبين مصدرها.

كذبوا: والكذاب ينسب غيره إلى الكذب، ولا يرى الرسول عليه الصلوات إلا صورة عنه هو، وحاشا، فقد جاء وحي الله فيه السعادة والهدى، فكذبوا ولم يصدقوا أنه الوحي، بل طفقوا ينسبون إليه ما ليس من طبيعته.. ومصدر ذلك ومنشؤه تكذيبهم وعدم تصديقهم، ومصدر تكذيبهم طبيعتهم الكذب، فأروا غيرهم في مرآة ذاتهم.. وأنى لهم. فهم قد كذبوا قبل أن يختبروا وهذا شأن الحماقة والجهالة.

بما لم يحيطوا بعلمه: ما الذي كذبوا به؟ إنه الوحي بالطبع، لكن النص عبر عنه هنا بما تقرأ: بما: أي بالذي، فما صلة هذا الموصول؟ لم يحيطوا بعلمه: والإحاطة الإلمام والفهم المستوعب الشامل، وعدم الفهم ليس لعسر النص وعدم ان فهمه، معاذ الله، بل هو ميسر للذكر لكن أين المذكور؟

وليس لأنهم بلا عقول، بل لأنهم لا يملكون إرادة الفهم لأنه يترتب عليها تخليهم عن واقعهم الرديء الظالم السيئ، وهم لا يريدون.

ولما يأتهم تأويله: فرق لما عن لم، أن الأخيرة تفيد النفي فقط بينما الأولى تفيدة، وتفيد أن ما نفي مجيئه حتى الآن قادم.. وقريباً. والإتيان يعبر به عن المجيء من بعد.. أو استبعاد. وإذا تتبعنا موارد الكلمة في القرآن تبين لك ذلك: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ

فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ونصر الله كما هو معلوم قريب، ولا نطيل في الأمثلة.

تأويله: تحققه في الواقع وأيلولته فيه، أي ما سيؤول إليه.. ومن هنا قول الساقى ليوسف عليه السلام: ﴿يَنْتَظِرُ تَأْوِيلَهُ﴾ أي لما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا.. في واقع الحياة والناس.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

كذلك كذب الذين من قبلهم: أي مثل هذا التكذيب الذي كذبه هؤلاء ولذات الأسباب كذب الذين من قبلهم، فكانهم تعلموا على شيطان واحد، فالكفر ملة واحدة، ومصدره مرض في النفس، وعلة في القلب والعقل، وفساد في الأخلاق والطباع.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «المراد بالذين من قبلهم الأمم المكذبون رسلهم كما دل عليه المشبه به ويقصد من هذا التشبيه أمور:

أحدها: أن هذه عادة المعاندين الكافرين ليعلم المشركون أنهم مماثلون للأمم التي كذبت الرسل فيعتبروا بذلك.

الثاني: التعريض بالندارة لهم بحلول العذاب بهم كما حل بأولئك الأمم التي عرف السامعون مصيرها وشاهدوا ديارهم.

الثالث: تسلية النبي ﷺ بأنه ما لقي من قومه إلا مثل ما لقي الرسل السابقون».

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين: وهل تعلم أن ﴿عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وردت في القرآن مرتين هذه أولاهما في الآية ٣٩ والثانية في القصص في الآية ٤٠.

أما العاقبة فهي النهاية والخاتمة، ومنه العقب مؤخر القدم، والبقية من الرجل أي ذريته.. ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ﴾ فتأمل بعقلك أو بعين بصرك من خلال

النظر في الآثار كيف كان مآل وكيف كانت نتيجة الظالمين، وما محصلة أفعالهم في هذه الدنيا، وانظر غداً عاقبتهم في الآخرة، يا حسرة على العباد كيف لا ينظرون في مآلات الأمور؟! والمعنى انظر بعينك حالة صفتها كان عاقبة الظالمين وهي حالة خراب منازلهم خراباً نشأ من اضمحلال أهلها.

وقال حجازي: «ولسوء حظهم كذبوا بالذي لم يحيطوا علماً به، فهم لفساد طبعهم ورداءة نفسهم كذبوا به قبل بحثه والنظر فيه والإحاطة بجزئياته، وهذا شأن المعاند المعتدي. ولما يأتهم تأويله، ونتيجة ما فيه من الوعد والوعيد على تكذيب الرسل، وقد كان هذا متوقعاً وآتياً لا شك فيه، وقد كذبوا كما كذب الذين من قبلهم. فانظر كيف كان عاقبة المكذبين من جميع الأمم، وكيف كان نظام الله معهم وستته فيهم التي لا تتغير: فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ...»^(١).

من دروس الآية ٣٩:

- ١- العلم تحصين ووقاية من عواقب السوء.
- ٢- كثيراً ما يكذب الإنسان بأشياء لأنه لا يعلمها.
- ٣- صدق قول من قال: من جهل شيئاً عاداه.
- ٤- قصر النظر يحرم الناس من رؤية نتائج الأعمال وحصائد الأفعال ومصائر الأشياء ومآلات الأمور.
- ٥- المكذبون موقفهم واحد ودأبهم وعاداتهم وشنشنتهم واحدة.
- ٦- عاقبة الظلم وخيمة في الدنيا والآخرة.

(١) حجازي، التفسير الواضح، ج ٢، ص ٦٤ - ص ٦٥.

الآية ٤٠

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِمْ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِمْ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠)

الربط والمناسبة: الكلام مستمر في هذه الآية عن القرآن الكريم وقد عبر عنه بالضمير في قوله ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ والحديث مستمر عن من نزل فيهم القرآن والذين كان السياق السابق يتحدث عنهم، والآن تقول الآية إن منهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن.

وهذه الآية ١٢ كلمة و ٤٥ حرفاً وترتيبها ١٤٠٤.

المعنى: ومنهم من يؤمن به: أول ما يخطر بالبال في معنى هذه الآية السؤال عن الضمير في ﴿وَمِنْهُمْ﴾ فمن هم؟ هل هم الذين كانت الآية تتحدث عنهم، وهم الذين ﴿يَقُولُونَ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ كما في النص السابق، فما معنى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِمْ﴾؟ أرى أنه باعتبار ما سيكون، فإن فريقاً لا بأس به من الذين كانوا يعتقدون في القرآن والرسول عليه الصلوات عقائد فاسدة غيروا وبدلوا وآمنوا وصدقوا وارتقوا وتفوقوا.. أم إن ﴿وَمِنْهُمْ﴾ عامة أي من نزل فيهم القرآن؟ أعتقد أن هذا ممكن وهذا ممكن، وإن كنت أرجح الأول، ولا أستبعد الثاني.

ومعنى يؤمن به يصدق بحقيقته في نفسه ولكنه يظهر تكذيبه.

واختيار المضارع للدلالة على استمرار الإيمان به من بعضهم مع المعاندة، واستمرار عدم الإيمان به من بعضهم أيضاً.

ومنهم من لا يؤمن به: هذا تصوير لحالهم وقت نزول هذه الآيات، وليس حكماً على جميعهم بعدم الإيمان، ومنهم من استمر كذلك، حتى فارق هذه الحياة.

وأما الضمير في ﴿يَدِ﴾ المتكرر مرتين في ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ. وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فهو فيما أرى لا يحتمل العود إلا إلى القرآن، ومن لا يؤمن بالقرآن فهذا يتضمن عدم الإيمان بالرسول وبالعكس، ولكن السياق كان يتحدث عن القرآن، والمركة كلها على القرآن.. والقضايا لا تفك عن بعضها على كل حال.

وربك أعلم بالمفسدين: إشارة إلى الذين لا يؤمنون، فالله أعلم بهم وبنواياهم وبتائج أفعالهم ومصادرها وبواعثها ومحركاتها، فهي أي هذه البواعث قطعاً تنطلق من الفساد والإفساد. والمعنى: وربك أعلم بهم لأنه أعلم بالمفسدين الذين هم من زمريهم.

وأعلم قد يرى أنها على قاعدتها وعلى بابها من معنى أفعّل التفضيل وهو المقارنة وقد تكون للإطلاق بقطع النظر عن المقارنة، كقوله تعالى: ﴿مَقَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَلْقِينَ﴾.

قال الزحيلي: «بعد أن أبان الله تعالى طعن الكافرين في النبوة والوحي، وبعد أن أُنذَرهم بالدمار والعذاب في الدنيا بقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ذكر أنهم في الواقع فريقان: فريق يصدق بأن القرآن كلام الله، ولكنه يكابر ويعاند، وفريق لا يصدق به أصلاً لفرط غباوته وجهله، فيصرّ على تكذيب النبي لفقده الاستعداد للإيمان به، فلا أمل في إصلاحه وهدايته، فتكون المصلحة في إعطاء الفرصة للفريق الأول للإيمان دون الاستئصال»^(١).

من دروس الآية ٤٠:

١- كثيراً ما يضل الإنسان نفسه باعتناق نظريات تصده وتبعده عن الحق.

(١) الزحيلي، المنير، ج ١١، ص ١٨٢.

- ٢- التعصب للموروثات والمسلمات غير الصحيحة مصدات عن الحق.
- ٣- من كرامة هذا الإنسان أن الله تعالى ترك له حرية الاختيار ولم يجبره على الإيمان.
- ٤- بواعث عدم الإيمان إنما هي الفساد والإفساد بخاصة من قبل المنظرين والداعين لمثل هذا الفكر العدمي والهدمي.
- ٥- المفسدون هم الذين لا يؤمنون وما يقع من فساد في الأرض إلا من الدينونة لغير الله.

الآية ٤١:

﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

الربط والمناسبة: الحديث ما زال موصولاً ومستمراً مع هؤلاء المشككين والمتشككين والمكذبين والمتقولين.

والنص الآن يخاطب الرسول عنهم وبخصوصهم بقوله ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ﴾ وقد بين النص الكريم في الآية ٣٩ وصفه لهم بالتكذيب كالذين سبقوهم ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فالتكذيب منهم حاصل فما الجديد في هذه الآية؟ الجديد المفصلة بين النبي ﷺ وبينهم: فقل لي عملي ولكم عملكم، كأن هذه هي نهاية المطاف في محاجتهم.

وهذه الآية ١٥ كلمة و٦٠ حرفاً وترتيبها ١٤٠٥.

المعنى: وإن كذبوك: الواو للاستئناف، وتجاوز عاطفة موضوعاً على موضوع، والأول أولى، وإن: شرطية، كذبوك: فعل الشرط والمخاطب سيد المخاطبين وخاتم النبيين ﷺ، وفاعل التكذيب كفار قومه.

فقل لي عملي ولكم عملكم: الفاء واقعة في جواب الشرط وهي وما بعدها جواب الشرط، ومعناها تعريض أو تلميح بل تصريح بأن النقاش وصل إلى طريق مسدود من قبلهم هم بالطبع، فالنص الكريم يسوق لهم الأدلة تلو الأدلة وهم متمترسون خلف قناعاتهم بل خلف ضلالاتهم.

فإن واجهوك بهذا الإصرار العنيد، والعناد الشديد، فقل لهم: لي عملي، منطلق فيه من عقيدتي ومبادئتي ولكم عملكم تنطلقون فيه من عقائدكم وتصوراتكم وشرككم وعقلياتكم.

أنتم بريئون مما أعمل: لن تتحملوا تبعات عملي لا في الدنيا ولا في الآخرة. وأنا بريء مما تعملون: وأنا لا أتحمل تبعات عملكم كذلك، بل أنا أتبرأ إلى الله منه، لأنه عمل لا خير فيه ولا نفع للناس فيه، وإن لم تبدُ الحقيقة واضحة لكم. والبريء: الخالي عن التلبس بشيء وعن مخالطته.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هي لمسة لوجدانهم وتركهم لمصيرهم منفردين بعد بيان ذلك المصير المخيف وكثيراً ما يقلح هذا الأسلوب في التهديد».

يقول ابن عاشور: «معنى ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ المتاركة وهو مما أجري مجرى المثل، ولذلك بني على الاختصار ووفرة المعنى، فأفيد فيه معنى الحصر بتقديم المعمول وبالتعبير بالإضافة بـ ﴿عَمَلِي﴾ و﴿عَمَلُكُمْ﴾ ولم يعبر لي ما أعمل ولكم ما تعملون».

قال أبو زهرة: «كل إنسان وما يعمل، لا يؤاخذ ﷺ في كفرهم، هو بريء منهم ومن أعمالهم، ومع هذا يبرأ إلى الله من أعمالهم تنزيهاً لنفسه عن أن يشرك أو يرضى عن شركهم المستمر المتجدد، وقد عبر بالمضارع؛ لأن أعمالهم الفاسدة متجددة مستمرة التجديد»^(١).

من دروس الآية ٤١:

- ١- لا بد من حد في النقاش فلا يستمر بلا نتيجة إلى ما لا نهاية.
- ٢- المفاصلة هي نهاية المطاف، كما حصل في المباهلة في آية المباهلة، أو كما هنا بإعلان موقف حاسم نهائي، وهو استمرار كل واحد في موقعه بانتظار أن يحكم الله.
- ٣- في نهاية المطاف كل إنسان مسؤول عن عمله وتبعات هذا العمل.
- ٤- في هذه الآية قطع لأواصر القرابة وصرم للصدقة يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين.

الآية ٤٢:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ؕ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

الربط والمناسبة: الحديث مستمر وموصول حتى بعد المفاصلة، فإن منهم من يستمعون إليك، ولكنهم لا يتأثرون بما يسمعون لأنهم صم عن الحق ولا يعقلون، وقد روت كتب السيرة واسباب النزول أن نفراً من كبراء قريش كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ وتلاوته ولم يسلّموا.

(١) أبو زهرة، زهرة التفسير، ج ٧، ص ٣٥٧٦.

وهذه الآية ١١ كلمة و٤٧ حرفاً وترتيبها ١٤٠٦.

المعنى: ومنهم من يستمعون إليك: الواو إما عطف موضوع على موضوع وإما استئنافية.

وقد قال في الأنعام ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا بِآيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا من المتشابه اللفظي وقد تفنن العلماء في توجيهه وبيان حكمه وحكمته وبلاغته، والملاحظة الأولى أن آية الأنعام جاءت بالمفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾ وآية يونس بالجمع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ وتعليلي أن الأنعام سابقة لأختها سورة يونس.. فبدأ الاستماع بالمفرد ثم انتهى بجمع يسمع أو يستمع، والملاحظة الثانية أن الأنعام قالت: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وأما يونس فقد بنت على ما ورد هناك فقالت: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أفأنت تسمع الصم: استفهام تعجبي موجه للرسول ﷺ، ومقصده غسل يده منهم.. فليس في قدرتك إسماع الصم ولا في طوقك، والصم مجاز بالقطع، وإلا فهم يستمعون، لكنهم لأنهم لا يستفيدون جعلوا كأنهم لا يسمعون.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «اعتبرهم صماً لا يسمعون مع كونهم لهم آذان يسمعون بها، إذ المعنى لا يسمعون سماع قبول وتعقل واعتبرهم عمياً لا يبصرون مع كونهم لهم عيون يبصرون، إذ المعنى لا يبصرون طريق الهدى والرشاد». أ. هـ.

ولو كانوا لا يعقلون: هم جمعوا بين نقصين عدم السمع وعدم التعقل فهم حتى لو سمعوا لا يعقلون فكيف إذا كانوا لا يسمعون؟

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ليهتدوا بها فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التي لا تتخلف ولا تحابي ولقوا جزاءهم عدلاً».

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُكَ﴾ يريد بطواهيرهم، وَقُلُوبُهُمْ لَا تَعْي شَيْئاً مِمَّا يَقُوله من الحق ويتلوه من القرآن، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لَا تُسْمِعُ، فَظَاهِرُهُ الْإِسْتِفْهَامُ وَمَعْنَاهُ الثَّقْيُ، وَجَعَلَهُمْ كَالصَّمِّ لِلخْتِمِ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَالطَّبْعِ عَلَيْهَا، أَي لَا تُقَدِّرُ عَلَى هِدَايَةِ مَنْ أَصَمَّهُ اللَّهُ عَنْ سَمَاعِ الْهُدَى^(١).

يقول ابن عاشور: «في هذين الاستفهامين ترشيح لاستعارة الصم والعمي لهؤلاء الكافرين، أي أن الله عز وجل لما خلق نفوسهم مفطورة على المكابرة والعناد وبغضاء من أنعم الله عليه وحسده، كانت هاته الخصال حوائل بينهم وبين التأثير بالمسموعات والمبصرات فجيء بصيغة الاستفهام التعجبي».

من دروس الآية ٤٢:

- ١- أكرمنا الله بالحواس والعقل ولكن إن عطلناها فكأننا فقدناها.
- ٢- على الرسول البلاغ وليس بيده الإسماع.
- ٣- التشابه اللفظي فيه من الفروق واللطائف ما يفوق الوصف ويستحق التوقف.
- ٤- إن الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا وينظرون ولا يميزون ما نظروا لكثير في كل زمان ومكان.

الآية ٤٣:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٣)

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تقول ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وهذه تتمها وتكملها ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ وهناك قال: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْصِتُ الصَّمَّ﴾ وهنا قال: ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ﴾ وهناك ختم بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ وهنا ختم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ فالآيتان على درجة من التطابق الدقيق لا تحتاج معها إلى أكثر من نظرة أو لمحة بصر.

وهذه الآية ١١ كلمة ٤٥ حرفاً وترتيبها ١٤٠٧.

المعنى: ومنهم: أي ومن هؤلاء الذين يتحدث عنهم السياق من المعاندين والجاحدين الجامدين.. والواو عطف وهو الأقرب أو استئناف، وهو قريب مقبول. من ينظر إليك: ليس نظر الفهم والتدقيق والبحث ولكن النظر مع الأحكام المسبقة بالرفض وعدم القبول، فلا ينتفع الناظر لجمود عقله على أحكامه التي أعدها وتحجر عندها.

ولو نظر نظراً، ولو محايداً، ولا أقول عادلاً منصفاً، لعلم أن الرسول حق فكيف لو نظر نظراً بنية واستحضار عزم وبحث عن الحق إذاً لكان الرسول أحب الخلق إليه، فهو الرحمة والحكمة والأمانة والصدق والعدل والخير ﷺ، فكيف لا يراه كذلك هؤلاء؟!

إنها الغشاوة على الأعين والطمس على العقول.. بأيديهم، وهم المتسبون.

أفأنت تهدي العمي: هم ينظرون إليك ولكنهم عمي لا يبصرون، ومعلوم أن مركز البصر أو الإبصار في الدماغ إذا ضرب فإن العين لا تبصر، وهؤلاء لم يضرب

بصرهم ولا أدمغتهم، ولكنهم حجبا ألبصارهم ومراكز الإبصار عندهم بحجاب الإصرار والعناد والتعصب.

فهل أنت يا رسول الله تملك أن ترد بصر من فقد بصره أو تلفت شبكيته أو تلف مركز الإبصار في الدماغ؟ إنك لا تملك.

ولا تملك مع هؤلاء المعاندين الذين كأنهم فقدوا الأبصار، لا تملك لهم شيئاً.

ولو كانوا لا يبصرون: ما موقع هذا الختام للآية عما سبق؟ ألم يقل هناك ﴿أَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ فما موقع وما محل ولو كانوا لا يبصرون أهو التأكيد لعدم الإبصار.. التأكيد ليس ببعيد.

ولكن أزيد أن العمى الذي ذكرته الآية عمى مجازي لكن القرآن يريد أن يرتفع به حتى كأنه عمى حقيقي فقال ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾.

أويريد أن يقول: إنهم يبصرون على ألا يبصروا.. فكيف تهدي من لا يريد أن يبصر الحق ولا يهتدي إليه.. وقد شاء الله تعالى أن يكون الاهتداء اختياراً وكذا غيره.

«وَالْمُرَادُ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ، أَي كَمَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تُسْمِعَ مَنْ سُلِبَ السَّمْعُ وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَخْلُقَ لِلْأَعْمَى بَصَرًا يَهْتَدِي بِهِ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تُوقِفَ هَؤُلَاءِ لِلْإِيمَانِ وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُؤْمِنُوا أ. هـ.»^(١)

من دروس الآية ٤٣:

١- زودنا الله تعالى بأدوات الهدى وآليات الوصول إلى الحق وزودنا بإرادة واختيار فإذا فسدت الإرادة تعطلت الأدوات عن القيام بوظائفها.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٣٤٦.

٢- مثلما أن الإبصار لا يتم والعين سليمة إذا كان مركز الإبصار معطوباً في الدماغ، فكذلك لا يتم الإبصار إذا كان مركز القرار والإرادة مرهوناً بالتقاليد والشرك وما عليه الآباء.

٣- ليست مهمة الرسول الذي هو أعظم الرسل قاطبة، ليست فرض الهدى على الناس، وجعلهم يبصرون خارج قرارهم وفوق إرادتهم، وإنما مهمته البيان والبلاغ والإرشاد.

الآية ٤٤:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤)

الربط والمناسبة: بعد أن بينت الآيتان السابقتان تعطل سمع هؤلاء المعاندين وعطب أبصارهم، فعمل متوهماً يتوهم أن هؤلاء قد خلقوا هكذا، فبينت هذه الآية أن الله لا يظلم الناس أي ظلم وأي شيء، بل هو زودهم بكل وسائل الوصول إلى الحق وما الذي هم فيه إلا نتيجة ظلمهم لأنفسهم.

وهذه الآية ١٠ كلمات و٤٢ حرفاً وترتيبها ١٤٠٨.

المعنى: إن الله لا يظلم الناس شيئاً: إن أقوى أدوات التوكيد وعمم الناس ونكر شيئاً ليدل على أنه شيء أي شيء وأضال شيء ولو كان مثقال ذرة، فالتنكير للتقليل.

فهذا الكون قائم على العدل، ومن دخل النار فبالعدل، ومن دخل الجنة فبالفضل، ومن حرم نفسه أسباب الهدى فهو المسؤول، فالملكات أمانة عندك، ينبغي توظيفها واستخدامها وتفعيلها في أول الأهداف أن تعرف من خلقك وما علاقتك

به وكيف تعبد، فإن لم تفعل وأهملت ما أودع الله وأبدع فيك من ملكات ومواهب فأنت المسؤول والملموم والظالم لنفسك.

ولكن الناس أنفسهم يظلمون: الآية قسمان متوازنان فالقسم الأول ٢٠ حرفاً والثاني ٢١ حرفاً، والقسم الأول نفى الظلم عن الله، وحاشا لجلاله والقسم الثاني أثبت الظلم للناس أنفسهم.

ولكن: أداة استدراك وهي من توابع إن التي افتتحت بها الآية، فالقسمان مفتتحان بأداتين تعملان العمل نفسه، أعني من حيث الإعراب وقدم أنفسهم على يظلمون، للتخصيص والاهتمام، فكأنه لم يظلم هذه الأنفس أحد إلا هم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير من الرسول ﷺ في الجهد، فلا قصور فيما عنده من الحق ولكن هؤلاء كالصم العمي وما يفتح الأذان والعيون إلا الله، وهذا شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية وداخل في اختصاص الله».

يقول ابن عاشور: «هذا الاستدراك أشعر بكلام مطوي بعد نفى الظلم عن الله، وهو أن الله لا يظلم الناس بعقابه من لم يستوجب العقاب، ولكن الناس يظلمون فيستحقون العقاب».

وتقديم المفعول على عامله لإفادة تغليطهم بأنهم ما جنوا بكفرهم إلا على أنفسهم».

من دروس الآية ٤٤:

١ - الكون قائم على العدل والدين كذلك فالكون أفعال الله والدين كلامه، وكل ما ينتسب إلى الله قائم على العدل.

٢- الظلم مستحيل في حق الله، ولم يخلق خلقاً مكلفاً دون أن يعطيه ما يمكنه من الهدى.

٣- الناس تظلم نفسها بتعطيل الملكات وعدم تفعيل العقل والطاقات.

٤- فساد الإرادة يفسد الكينونة.

الآية ٤٥:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ تَرِيْلُهُمْ إِلَى السَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

الربط والمناسبة: كان السياق يتحدث عن الذين ينكرون نبوة النبي وريانية القرآن، وذلك لأنهم عطلوا عقولهم وحواسهم ثم قررت الآية السابقة أن الله لا يظلم الناس شيئاً فكان مناسباً الانتقال من هذا التقرير إلى ساحة الآخرة ومشهد من مشاهد القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ فهناك تتجلى العدالة الإلهية المطلقة.. ويأخذ كل صاحب حق حقه ويميز كل عامل بعمله.

وهذه الآية ٢٠ كلمة و٨٧ حرفاً وترتيبها ١٤٠٩.

المعنى: ويوم: الواو للاستئناف، ويوم ظرف زمان مبني على الفتح في محل نصب مفعول فيه، والمقصود الوقت الذي يحشرون فيه بقطع النظر عن كونه ساعة كما سمي القرآن الآخرة: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ﴾ أو يوماً كما هنا.

يحشرونهم: يوم يجمع الله الخلق مؤمنهم وكافرهم، وإن كان العائد الأقرب هو الكافرين.. والنص يشملهم على كل حال ويدخلون فيه دخولاً أولاً كما يقول علماؤنا في مثله.

جميعاً: تأكيد لحشرهم دون استثناء أحد أو إفلات أحد، أو نجاة أحد.

كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار: كان هؤلاء الناس الذين حشروا إلى الحساب في الآخرة لم يلبثوا في هذه الدنيا إلا ساعة من النهار، والإنسان حين تحضره الوفاة ويستعرض شريط العمر في دورة سريعة فإنه يتوقف عند محطات قليلة لن تستغرق منه دقائق وهذا هو مختصر العمر فهنيئاً لمن قضى العمر في طاعة وانسجام مع أمر الله ومع فطرته ومع الكون الذي أوجده الله فيه ومع الخلق الذين تعايش معهم.

والساعة: المقدار من الزمان والأكثر أن تطلق على الزمن القصير.

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ: كأن هذه الحياة والعمر الذي انقضى فيها هذه اللمحة القصيرة من الزمن قضاها البشر في التعارف فما أوشكوا أن يتعارفوا حتى انفض سامرهم، وانتقض جمعهم، وانفرط عقدهم، وداهمهم الموت، ثم فوجئوا المفاجأة الصاعقة بالبعث.. ويا حسرة على من خسر دنياه وآخرته.

والتعارف: تفاعل من عرف أي يعرف كل واحد منهم يومئذٍ من كان يعرفه في الدنيا ويعرفه الآخر كذلك.

قد خسر الذين كذبوا بقاء الله: وكيف ينجح أو يفوز من يجحد الامتحان ولم يستعد له؟ وكيف يفوز من أنكر لقاء الله ولم يستعد له؟ ولذلك يؤكد الله تعالى بحرف التوكيد قد وقد دخلت على الفعل الماضي خسر أي خاب وبار وطاش سهم الذي كذب بالآخرة وبقاء مولاه في تلك الدار، وستصعقه المفاجأة كما أسلفنا قبل قليل حين يحضر إلى ساحة الحساب ليحاسب على النقيير والقطمير.. والصغير والكبير.. فأين المفر من سوء المصير؟ وخسرانهم يومئذٍ بأنهم نفوا البعث فلم يستعدوا ليومه بقبول ما دعاهم إليه الرسول ﷺ.

وما كانوا مهتدين: واو عطف على خسرانهم.

والخسران ناتج عن عدم الهدى.. فكيف عطفه عليه؟ فهل الأقرب أنها واو الحال؟ هي تصلح لهذا ولهذا. والعطف لا يقتضي الترتيب بالضرورة.

يقول ابن عاشور: «وجه الشبه بين حال زمن لبثهم في القبور وبين لبث ساعة من النهار وجوه: هي التحقق والحصول، بحيث لم يمنهم طول الزمن من الحشر وأنهم حشروا بصفاتهم التي عاشوا عليها في الدنيا فكأنهم لم يفنوا، وهذا اعتبار بعظيم قدرة الله على إرجاعهم».

قال الخازن: «وأصل الحشر: إخراج الجماعة وإزعاجهم من مكانهم ﴿كَأَن لَّزِلْتُمْ﴾ إلى آسَافَةٍ مِنَ النَّهَارِ ﴿﴾ يعني كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار... لما لم يتفكروا بأعمارهم في الدنيا استقلوها. والمؤمن لما انتفع بعمره في الدنيا لم يستقله. وسبب استقلال الكفار: مدة مقامهم في الدنيا؛ أنهم لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على ما فيها ولم يعملوا بطاعة الله فيها، كان وجود ذلك كالعدم فلذلك استقلوه. وقيل: إنهم لما شاهدوا أهوال يوم القيامة وطال عليهم ذلك، استقلوا مدة مقامهم في الدنيا، لأن مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جدا»^(١).

من دروس الآية ٤٥:

١- الزمن أعظم ثروة وأعظم مهدور، ودورة الزمن تدور والناس عنها في غفلة وانعدام شعور.

٢- نسبة الزمن تتأكد في أن الحياة التي قد تظن طويلة وإنما أطاها طول الأمل، فما هي إلا لحظة عين أو انتباهتها، وما هي إلا ساعة من نهار تعارف فيها الناس ثم انفضوا.

٣- الضلال أعظم أسباب الخسران في الدنيا والآخرة.

(١) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج ٢، ص ٤٤٥.

الآية ٤٦:

﴿وَأَمَّا نُرُيتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيَتَامَ جِئْتُمُكُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدَ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ ۖ﴾ (٤٦)

نظائر الآية: هذه الآية كآختها من سورة غافر فهناك قال: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَأَيُّ نُرُيتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيَتَامَ يَرْجِعُونَ﴾، والتشابه واضح والفروق بعد التشابه لا تخفى فهناك جاءت في ثانيا الآية بعد الأمر بالصبر وهنا جاءت فاتحة آية وهناك ختمت بقوله: ﴿فَالْيَتَامَ يَرْجِعُونَ﴾ وجاء هذا المعنى هنا قبل الختام بقوله تعالى ﴿فَالْيَتَامَ جِئْتُمُكُمْ﴾.

الربط والمناسبة: عجيبة أنساق القرآن وتنقلات المعاني فيه والنقلات بعيدة، فبينما كنا في الآخرة في الآية السابقة رجعنا إلى الدنيا في هذه الآية وكم تكرر هذا في القرآن ليوحي لك بقرب الآخرة وإن كنت تراها بعيدة، وهذا يعطيك شعور الاسترخاء ولو استقربتها لسمرت، على أن الآخرة جاءت في الآية السابقة ونحن في الدنيا ما زلنا فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ ثم ردهم إلى الدنيا فقال: ﴿كَأَن لَّزِلْتُمْ إِلَى سَاعَةٍ مِّنَ النَّهَارِ يَنعَارِفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أقصد إلى القول إنا وإن كنا في الآخرة في السابقة فإن الحياة الدنيا لم تكن غائبة، وهنا ردنا إلى الحياة ومعاناتها وطمان رسوله، أن توقع أن ترى بعينيك بعض الذي وعدناهم أو لا نفعل، فالأمر إلينا، لكن أنت على كل حال في رعاية الله وحفظه والله ناصرك وناصر دينه. أضف إلى ما قيل أن ضمير الخطاب للرسول لم يغب عن الآيات السابقة ففي الآية ٤٠ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وفي الآية ٤١ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ والآية ٤٢ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَيْكَ﴾ والآية ٤٣ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ وهذه الآية ﴿وَأَمَّا نُرُيتُكَ﴾ فالآية نسق مع أخواتها.

وهذه الآية ١٥ كلمة و٦٣ حرفاً وترتيبها ١٤١٠.

المعنى: وإما: الواو للاستئناف أو لعطف موضوع على موضوع، ومنذ الآية ٣٧ إلى هذه الآية فإن سبع آيات قد افتتحت بالواو. وإما.. أو هذه للاحتتمالات، وعند الله الحق القطعي، ولكن الاحتمالات ليوطن البشر وسيد البشر أنفسهم على أيها ويقبلوا بأيها ويصبروا ويتنظروا ما تأتي به المقادير من نصر وتغيير أو ما شاء الله فإليه المصير.

نرينك: النون المشددة لتأكيد المعنى والتشديد عليه، والمقصد أنك سترى بعينيك وعد الله، يتحقق فيهم، هؤلاء الذين يكذبونك الآن، أو على الأقل سترى بعض هذا الموعود. وجواب ﴿زُرِينَا﴾ عذوف كأنه قيل وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة.

بعض الذي نعدهم: وطن نفسك يا من حملت حمل الدعوة وعبء البلاغ على أقسى الاحتمالات ولكن لا يفارقك الأمل ولا يزيالك اليقين والاستبشار معاذ الله، فإن رأيت بعض الوعد يتحقق ففضل من الله، وإلا فإن من بعدك سيرون تحقق الوعد، ولقد تحقق على زمان الرسول ﷺ بعض الوعد وأنجز إخوانه وأحبابه في زمانهم ما لم ينجز بعد في زمانه عليه الصلوات. فقد شهد نصر بدر، وشهد نصر الإيمان على الأحزاب المتحيزة، وشهد قهر يهود وإخراجهم، وشهد عليه الصلوات فتح مكة وشهد دخول الناس في دين الله أفواجاً.. لكنه ما شهد تحرير الشام والعراق وبيت المقدس مسراه، هذا أنجزه أصحابه.. عليه الصلوات وعليهم الرضوان وظهور الإسلام على الدين كله تحقق بعضه وبقي أن ينجز كله إن شاء الله.

أو نتوفينك: أي أو نتوفاك قبل أن ترى الكل أو البعض ينجز

فإلينا مرجعهم: هذه الصيغة تفيد الحصر والاختصاص أي إلينا لا إلى غيرنا سيكون مردهم ومآلهم ورجوعهم وهي جملة اسمية تفيد الدوام والثبات أي ذلك في تصرفنا دوماً.

ثم: أصل ثم للتراخي الزمني أو الرتبي، ولكنها هنا لا محل للتراخي الزمني فيها، فالله تعالى عليم مطلق شهيد لا يغيب عنه شيء ولا يتأخر عن علمه وشهادته شيء، تعالى وتقدس.

فعلل المعنى إذاً يكنى به عن الجزاء وهو أي الجزاء ما يترتب على الرجوع إلى الله، فهي على هذا للتراخي الرتبي والله أعلم.

الله شهيد: أصل صيغة فعليل كما يقال في اللغة للمبالغة ولكن لا مبالغة في أسماء الله وصفاته كما تكرر دائماً.. أي شاهد لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه وعن علمه مثقال ذرة. والشاهد والشهيد وحقيقته: المخبر عن أمر فيه تصديق للمخبر واستعمل هنا في العالم علم تحقيق.

وقد ورد ﴿وَشَاهِدٍ﴾ في البروج ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ والشاهد الله، والمشهود الشهداء الذين قتلهم أصحاب الأخدود وطاغيتهم الذي أحرق المؤمنين بالنار.

على ما يفعلون: على للاستعلاء والتمكن والعلو المطلق بحق الله، فهو العلي سبحانه وهو المتعال وهو الأعلى - وكل عال سواه أو علا على الخلق سيكون مصيره الهوان، فالله يشهد على فعله. وكلمة يفعلون تفيد أفعالهم ذات الجرم أي المحسوسة، أما يعملون فتفيد هذا وأعمال قلوبهم.

وعبر يفعلون ليفيد أن فسقهم وفجورهم وجرمهم ظاهر لكل ناظر.

يقول ابن عاشور: «طوي في الكلام جل دلت عليها الجمل المذكورة إيجازاً محكماً وصارت قوة الكلام هكذا: وإما نعجل لهم بعض العذاب فنرينك نزوله

بهم، أو نتوفينك فنؤخر عنهم العذاب بعد وفاتك، أي لانتقاء الحكمة من تعجيله فمرجعهم إلينا، أي مرجعهم ثابت إلينا دوماً.

هناك لطيفة عند المفسر ابن عرفة، فحواها: «انظر ما الفرق بين هذه، وبين قوله في سورة القتال ﴿فَلَمَّا مَتَّ بَعْدُ وَاِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوَّارَهَا﴾ عطف الثاني هناك بـ «إما» وعطفه هنا بـ «أو»، قال: وأجيب بأن إما [للتفصيل]؛ فتدخل بين المتغايرين وإن لم يكونا متناقضين، وأو لأحد الشئيين أو الأشياء فتدخل بين النقيضين، ولا شك أن المن والفداء يجتمعان، يمين على أشخاص ويفدي أشخاصاً، فدخلت إما [لتفصيل] حال هؤلاء من حال هؤلاء ورؤيته بعض الذي وعد لآ يجتمع مع وفاته بل تناقضها فحسنت فيه»^(١).

من دروس الآية ٤٦:

- ١- يجب أن يوطن الدعاة أنفسهم على نصر الله لدينه.
- ٢- قد نرى وعد الله أو بعض وعده يتحقق، وقد نتوفى قبل أن نرى، لكن اليقين لا يفارقنا، وما من أحد إلا ورأى شيئاً من آيات الله يتحقق حتى الذين آمنوا في أول الدعوة، فتثبت الله إياهم آية وازديادهم مع الضغط هذا آية.
- ٣- الكل صائر إلى الله ويا سعد من عمل صالحاً مع الإيمان، ويا بؤس من عمل قبيحاً مع الفسق والكفر.
- ٤- الله شهيد على كل ما يجري في كونه وكم تعطي هذه الحقيقة طمأنينة وهدية للقلوب التي هدها التعب وانتظار الفرج.

٥- أفعال الكافرين ظاهرة القبح وجرمها وجرمها يشهده الجميع، فليستظروا ما يأتيهم!

الآية ٤٧:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)

الربط والمناسبة: كان الخطاب في الآية السابقة للرسول ﷺ ﴿وَأَمَّا ثَرِيكَ﴾ وفي هذه الآية يبين أن الرسول ليس بدعاً من الرسل فإنه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾. وهذه الآية ١٢ كلمة و٤٩ حرفاً وترتيبها ١٤١١.

المعنى: ولكل أمة رسول: الواو استئنافية أي كما يقال عند علماء اللغة أن الاستئناف جواب عن سؤال مقدر نشأ من الكلام السابق، فكان سائلاً سأل: هل ما تكلمت عنه الآية السابقة من رؤية بعض ما يعدهم الله من مواعيد، هل هو خاص به وبأمرته عليه الصلوات أم ماذا؟ فقالت هذه الآية إنه ناموس عام: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾.

إن إرسال الرسل سنة إلهية لا تتبدل إلى أن ختمهم بمحمد عليه وعليهم السلام فلا رسل بعده لأنه أكمل بنيان الدين به.

ومقتضى رحمة الله بالعباد إرسال الرسل فهم من يجلي الدين للناس والناس بلا دين همج رعاع.

والذي قص علينا في القرآن إنما هو عينة من الرسل، أعتقد أنهم رسل منطقتنا فلم يكلمنا القرآن عن رسل الله إلى الصين مثلاً لا لأنها لم يرسل إليها رسل فهذا

مناقض لنص القرآن: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بل لأن القرآن يقص علينا رسل بيتتنا ومنطقتنا.

فمن أرسل في كل بقعة من العالم من روسيا إلى الأرجنتين؟

هذا لا مجال لأن يحويه كتاب بحجم القرآن بل يحتاج إلى مكتبة!

فإذا جاء رسولهم: فإذا بعث فيهم رسولهم وإلا فإنه يعيش بينهم قبل النبوة وبعد النبوة، هكذا الأصل، فمعنى جاء ليس على ظاهره من القدوم وإنما تحمله الدعوة وبدء بعثته.

قضي بينهم بالقسط: هل يقصد أنه حل بهم موعود الله أي وعده؟ أم المقصود أن الرسول أت ليقم المجتمع على العدل وهو نموذج العدل وميزانه في الأرض وفي المجتمع، بعد أن ملئت الأرض بالظلم، كما قال الله تعالى عن مهمة الرسل في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

فالرسل هم صورة العدل ومن مهماتهم قيام المجتمعات على العدل، ولذا قال الرسول ﷺ لمن قال له اعدل: «ويحك من يعدل إذا لم أعدل»؟ أو كما قال ﷺ: فالمعنى على هذا الوجه الثاني إشارة إلى إقامة أحكام الله في المجتمعات وأن الرسل يقيمونها بالعدل، والقسط.. والقسط أبلغ من العدل فهو إعطاء كل ذي حق حقه.. والله أعلم.

وهم لا يظلمون: وهذا التذييل يصدق على المعنيين السابقين، ونفي الظلم تأكيد لما سبقه، من ناحية، وطمأنة إلى أنه لن يقع في منهج الله إذا طبق بحق أي صورة من صور الظلم، فإن وقع فمن سوء تطبيق الناس لا من منهج رب الناس سبحانه.

يقول ابن عاشور: «المعنى أن الله يمهّل الأمة على ما هي عليه من الضلال فإذا أرسل إليها رسولاً فأرساله أمانة على أن الله تعالى أراد إقلاعهم عن الضلال فانتهى أمد الإمهال بإبلاغ الرسول إليهم مراد الله منهم فإن أطاعوه رضي الله عنهم وربحوا وإن عصوه وشاقوه قضى الله الجميع بجزاء كل قضاء حق لا ظلم فيه».

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «نقف في هذه الآية أمام حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، أن يُقال للرسول ﷺ إن أمر هذه الدعوة وأمر القوم الذين يخاطبهم كله لله، وأن ليس لك من الأمر شيء دورك فيه البلاغ أما ما وراء ذلك فكله لله».

قال الماوردي: «فيه ثلاثة أوجه: أحدها: فإذا جاء رسوله يوم القيامة قضى بينهم ليكون رسوله شاهداً عليهم، قاله مجاهد. الثاني: فإذا جاء رسوله يوم القيامة وقد كذبه في الدنيا قضى الله تعالى بينهم وبين رسوله في الآخرة، قاله الكلبي. الثالث: فإذا جاء رسوله في الدنيا داعياً بعد الإذن له في الدعاء عليهم قضى الله بينهم بتعجيل الانتقام منهم، قاله الحسن^(١). قلت: الأمر على إطلاقه، والله أعلم بمrade.

من دروس الآية ٤٧:

- ١- الرسل هم نموذج العدل ومن مهماتهم إقامة المجتمع على العدل.
- ٢- هذا أبلغ رد على من يريدون إقصاء الدين عن الحياة، بدعوى العلمانية مرة، ودعوى الحداثة والتجديد حيناً، ودعوى كثيرة فاسدة في كل الأحيان.
- ٣- التأكيد على أن الرسل من أهم مظاهر رحمة الله وعدله، فلكل أمة نذير.

(١) الماوردي، النكت والعيون، ج ٢، ص ٤٣٧.

٤- لم يقص علينا من الرسل من بُعثوا لأقوام لا نعرفها في مجتمعات لا نعلمها في كل أرجاء الأرض، وإنما قص علينا رسل بيتنا القريبة.

الآية ٤٨:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن مجيء وعد الله في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذه الآية تنمة لتلك ببيان موقف الكافرين من الموعد الذي أشير إليه في السابقة، فسجلت قولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ فالترابط أظهر من أن يحتاج إلى تجلية.

وهذه الآية ٧ كلمات و ٢٩ حرفاً وترتيبها ١٤١٢.

المعنى: ويقولون: الواو للاستئناف أو عطف موضوع على موضوع، والفاعل للقول هم من يتحدث عنهم السياق من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ...﴾ إلى هذه الآية.

متى هذا الوعد: في أي وقت مستقبلي سيتحقق هذا الوعد الذي تحدثونا عنه؟ متى ينتصر دينكم؟ متى يهلك ما ترونه باطلنا؟ متى تقوم القيامة؟ كل هذه مواعيد وغيرها بطبيعة الحال وهم يسألون عن بعضها أو عن كلها، وأسألتهم كثيرة من مثل: متى يحل بنا العذاب في الدنيا؟ وقد تكرر مثل هذا السؤال في القرآن بهذه الصيغة وبصيغ أخرى.

إن كنتم صادقين: أخبرونا عن وقت حلول مواعيدكم إن كنتم صادقين أن ما قلتم سيقع، وإلا فأنتم غير صادقين.

يقول محمد طه الدرة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فيما تعدوننا به وإنما قالوا بلفظ الجمع لأن كل أمة قالت لرسولها كذلك أو أن يكون المعنى إن كنتم صادقين أنت وأتباعك يا محمد.

من دروس الآية ٤٨:

- ١- يهرب الكافرون من الإيمان بالآخرة وسائر وعود الله المستقبلية بالسؤال عن ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾.
- ٢- تحديد موعد لن يقدم ولن يؤخر فالمؤمن آمن بدون تحديد موعد والكافر كذلك.
- ٣- منهجية التفكير الخاطئة تؤدي إلى نتائج وبيلة ووخيمة.
- ٤- استعجال الكافرين لما وعدوا من العذاب استبعاداً له.

الآية ٤٩:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩)

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تعرض سؤال المجادلين متى هذا الوعد، وفي هذه أمر للرسول أن يبين أنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف يعرف متى وعد نزول عذابكم؟

وهذه الآية ٢٢ كلمة و٨١ حرفاً، وترتيبها ١٤١٣.

المعنى: قل: أمر لسيد المأمورين ﷺ أن يقول لقومه الذين يسألون ويمجادلون ويمترو.

لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً: إنني لا أملك لنفسي وأمري أن أوقع على نفسي الضرر أو أجلب لنفسي النفع والفائدة، ومن كان لا يملك هذا لنفسه أو لغيره، وهذا نفي لعلمه بجواب ما سألوا عنه في الآية السابقة ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾، وقدم الضرر على النفع ومن العادة تقديم النفع على الضرر لأنه نفي لتقديم النفع من باب أولى، فالضرر يملكه كل أحد كما يتصور بعكس النفع.

إلا ما شاء الله: هذا الضرر والنفع لا يقع إلا إذا شاء الله أن يقع ولست أنا الفاعل الحقيقي له، ولا المالك الحقيقي لقدرة إيقاعه، فالله هو الذي يملك ذلك، فإن شاء أن يقع الضرر على نفسي بيدي وقع، وإن شاء أن يقع النفع وقع.. فإن لم يشأ لم يقع.

لكل أمة أجل: هذا الجزء من الآية مطابق لأول آية ٣٤ من سورة الأعراف فهناك قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي لوقوع العذاب بهم عليهم.

إذا جاء أجلهم: في الأعراف قال: فإذا جاء أجلهم. أي إذا حل الأوان والوقت والأجل لوقوع العذاب عليهم وقع.

فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون: في الأعراف ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ فكان السياق في الأعراف حذف الفاء من هنا وأضافها إلى فإذا.. وفي الأعراف أثبت الواو في ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ لأنها هناك استئناف وافتتحت بها آية فناسبت، وإنما جاء هنا بلا واو في لكل لأنها جاءت في درج الكلام. ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَنْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتقدم أجل حلول هذا العذاب ولا يتأخر فهو ثابت عند الله لا يبدله ولا يغيره أحد.

يقول ابن عاشور: «جملة ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ تتضمن أن سبب عدم المقدرة على ذلك هو أن الله قدر آجال أحوال الأمم ومن ذلك أجل حلول العقاب بهم بحكمة اقتضت تلك الآجال فلا يحل العقاب بهم إلا عند مجيء ذلك الأجل، فلا يقدر أحد على تغيير ما حدده الله».

قال القطان: «إن لكل أمة من الأمم فترة حدّدها الله، فإذا جاءت تجدهم لا يستطيعون التأخر عنها، ولا سبقها. فإذا كان الرسول الكريم لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فكيف يملكه لغيره، بل كيف يملك غيره لنفسه! إن الأمر لله يحقق وعيده في الوقت الذي يشاء، والأجل قد ينتهي بالهلاك المادي كما وقع لبعض الأمم السابقة، وقد ينتهي بالهلاك المعنوي، أي الهزيمة والضياع، والأمة الإسلامية بانحرافها عن دينها وخلقها قد انهزمت، ولا يمكن أن تعود إلى مجدها وعزها بدون الرجوع إلى الله»^(١).

من دروس الآية ٤٩:

- ١ - لا أحد يملك لنفسه ضرراً أو نفعاً إلا بمشيئة الله، وإذا كان رسول الله كذلك فكل من سواه بالأولى.
- ٢ - الآيات المتشابهات في القرآن بينها من الفروق الدقيقة في الحروف ما يحتاج إلى تأمل لاستخراج كنوز دقائقه.
- ٣ - كما أن للأفراد آجالاً فكذا الأمم لها آجال لهلاكها أو عذابها إن هي انحرفت وحادت.

٤ - الأجل المضروب إذا حل لا يتقدم ولا يتأخر.

٥ - هذا الكون منضبط بقوانين لا تتخلف.

(١) القطان، تيسير التفسير، ج ٢، ص ١٩٥.

الآية ٥٠:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَنَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

الربط والمناسبة: افتتحت الآية السابقة بقل وهذه كذلك فكلتاها أمر للرسول بأن يبلغ عن ربه من يجادلونه، هذا أمر. وأمر آخر أن الرسول تبرأ من أن يملك لنفسه ضرراً أو نفعاً فكيف لغيره والمقصود هم، وهنا يكمل حديثه إليهم بأمر ربه وربهم ولا يملك هو أن يأتي بهذا الذي يستخفون به من العذاب وإنما ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ فهو تأكيد لما تضمنت الآية السابقة وأمر ثالث أن الآية السابقة تضمنت وعيداً وتهديداً وتحديداً بالأجال لهذا العذاب والوعيد فقالت: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ وهنا تكمل الآية ذاك التهديد: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ تَنَارًا﴾ بمعنى فلتوقعوه في أية لحظة لاستحقاقكم له.

ورابعاً: عبر في السابقة بالجميء وفي هذه بالإتيان للمحظ بلاغي سنيته في التفسير.

وهذه الآية ١٢ كلمة و٥٢ حرفاً وترتيبها ١٤١٤.

المعنى: قل: أمر لسيد المأمورين وخاتم النبيين بأن يقول لقومه المعاندين والمجادلين.

أرايتم: استفهام بمعنى أخبروني وقد كثر هذا الاستفهام في القرآن^(١).

(١) فقد ورد إحدى وعشرين مرة، وورد مرتين بصيغة أرايتم واستأثرت بهما سورة الأنعام قريبة الشبه من سورة يونس، وقد ورد هذا الاستفهام أرايتم في ١٢ سورة وكلها مكية، والتي لها السبق في هذا من حيث مرات الورد هي سورة الواقعة ٤ مرات ثم هود ٣ مرات ومرتين في كل من يونس والقصص والأحقاف والملك ومرة في كل من الأنعام والشعراء وفاطر والزمر وفصلت والنجم.

والهمزة في رأيتم للاستفهام وهي داخلة على الفعل الماضي رأيتم، والمقصود بالرؤية إما البصرية حين حلول العذاب أو البصرية أي تصويره إذا وقع أو توقعه واستبصاره واستشعاره قبل أن يقع قياساً على ما ألم بالأمم السابقة، والقياس من أهم وظائف العقل لمن يعقل، هذا المعنى الحرفي، لكن المعنى الاصطلاحي إن جاز التعبير هو ما قلنا أي أخبروني، كأنه قال إذا رأيتم أخبروني، والله أعلم.

إن أناكم: إن شرطية، وعبر بالإتيان المفيد للمجيء من بُعد، وفي الآية السابقة قال ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وإذا للتحقيق وإن للتشكيك هذا أمر، والمجيء للقرب والإتيان للبعد.. فما الوجه البلاغي والنفسي في ذلك؟ وقلنا: والنفسي لأن البلاغة هي التأثير النفسي من خلال المعنى وظلال المعنى وإيحاءات النص وجرسه وغير ذلك.. أما الأجل فأت. والأجل بمعنى آجال الموت، فهذا محقق بدلالة مضي من مضي وسبق، والآجال إن أريد بها آجال العذاب فالجيء يفيد القرب للإيحاء بشدة استحقاقهم لذلك.. وإن كل بعيد هو في النهاية برسم الوصول ولذا قالت العرب: (كل آت قريب) والذين قالوا هذا القول من العرب ربما مضى عليهم الآن ألفان من السنين.. وكانوا يوماً ملء السمع والبصر فصاروا تاريخاً غابراً دارساً مندثراً ولم تحفظ أسماءهم، لكنهم محفوظة أفعالهم عند الذي لا تخفى عليه خافية.

أما التعبير هنا بـ﴿إِنْ﴾ وهي للتشكيك، هكذا في وضع اللغة لكنها هنا لا تفيد التشكيك، ولكن تفيد أن يأخذ الناس احتياطهم لأقل احتمال، فكم يفحص الناس للسرطان لأقل احتمال، فكما فعلوا هناك، ليفعلوا هنا، وقلت أقل احتمال إنما هو في نظرهم ومنظارهم لا بمنظار الحق والواقع.. وقد حل بكفار مكة ما كانوا يستبعدون.

ولم نقل في الآية شيئاً فظلالها وإيحاؤها فوق ما نقول بأكثر بكثير مما قلنا ونقول. عذابه: أي عذاب الله الذي تنكرونه أو تستبعدونه.

والضمير عائد إلى لفظ الجلالة الوارد في الآية السابقة.

وإضافة العذاب إلى ضميره سبحانه لتفخيم العذاب.

بيئاتاً: في حال هجودكم ونومكم، والبيات لا يقال للقلولة وإنما لنوم الليل، كما قال القرآن في سورة الأعراف: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (١٧) ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨]. الزمخشري يقول: «لأنه أريد إن أتاكم عذابه وقت بيات فيبتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون».

أو نهاراً: أي إن أتاكم العذاب نهاراً سواء في قيلولة أو في عمل أو في لعب أو هو أو فراغ أو أي ظرف.

ماذا يستعجل منه المجرمون: بماذا يستعجل المجرمون من هذا العذاب، أو أن ﴿مِنْتَهُ﴾ عامة مفتوحة لكل الاحتمالات، كأنه قال ما الذي يستعجله المجرمون من أمور أو من أمورهم أو مما هو متوقع بهم أو لهم سواء كان العذاب أو غيره؟ والله أعلم

﴿مَاذَا﴾ كلمتان هما «ما» الاستفهامية و«ذا» أصله إشارة مشار به إلى مأخوذ من الكلام الواقع بعده، وهو استفهام معناه التهويل والتعظيم، أي ما أعظم ما يستعجلون به، وقد حصل في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة.

قال الفراء: «إن شئت جعلت (ماذا) استفهاماً محضاً على جهة التعجب كقوله: ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب؟! وإن شئت عظمت أمر العذاب فقلت: بماذا استعجلوا!»^(١).

من دروس الآية ٥٠:

- ١- الإنسان يحتاج لكل هاجس أو وسواس من مرض أو خشية على الرزق ولا يحتاج لاحتمال عذاب الله وحسابه في الدنيا والآخرة.
- ٢- الاستهتار والعبث أسوأ منهج يمكن أن تنظم وفقه مواقف الناس وحياتهم.
- ٣- الاستفهام في الكلام البليغ محرك للعقول والبحث.
- ٤- إيجاز اللغة العربية وإيجاز تاج اللغة العربية القرآن أحد أوجه الإعجاز.
- ٥- الاستعجال جزء من منهج الاستخفاف.

الآية ٥١:

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ وَلَقَدْ كُنْتُمْ بِرَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

الربط والمناسبة: الحديث متصل عن العذاب الواقع أو المتوقع بالكافرين، واستفهام إثر استفهام، وفي السابقة الاستعجال وفي هذه الاستعجال.

وقوله ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ استفهام عن العذاب الذي كان يتهدد بهم في السياق السابق منذ الآية ٤٧ وحتى هذه الآية وتالياتها.

وعبر في السابقة بأن وعاد في هذه لـ «إذا» التي في سابقة السابقة.

وهذه الآية ١١ كلمة و ٤١ حرفاً وترتيبها ١٤١٥.

المعنى: هذه الآية قسمان متقاربان في عدد الحروف والكلمات، في كل منهما استفهام وفي كل منهما الضمير به وضمير المخاطب أنتم.

أثم: الحمزة للاستفهام وثم أداة عطف تفيد التراخي لا الاسترخاء بل على العكس هي تهيج للاستعداد لا للاسترخاء، وإنما المقصود من التراخي الفسحة من الوقت المعطاة للبشر من الله اللطيف بعباده ليعودوا ويسترجعوا ويستنقذوا أنفسهم من شر أنفسهم ومن مناهجهم الفاسدة، فهي تلمح إلى هذه المهلة وأنها وإن بدت تراخياً ممتدة لكنها سريعة الانقضاء كلمح البصر أو هي أقرب فاستثمروا الوقت ولا تهدروا الوقت يا أمة ويا ناساً وجودهم وقت وهم زمن إذا انقضى جزء منه انقضى جزء منهم ومن أعمارهم.

إذا ما وقع: كان النص السابق قد عبر بـ ﴿إِنْ أَتَاكُمْ﴾ وعاد هنا ليشدد الكلام عليهم فعاد لـ ﴿إِذَا﴾ وزاد ما للتوكيد والتحقيق. وقع: نزل وحق وتحقق.

آمتم به: تابعة للاستفهام الواقع في قوله ﴿أَنْتُمْ﴾ أي صدقتم بالعذاب وأيقنتم وقت أن حل بكم ووقع.. وهل ينفع تصديق بعد معاينة؟ مثلكم كمثل الطالب الذي يفتح الكتاب بعد خروجه من قاعة الامتحان ثم يعود يرجو الأستاذ أن يعيده للقاعة ليكتب الجواب، فهل يقبل منه الرجاء أو الاستعطاف؟

الآن: ألقت النظر إلى أن هذا الاستفهام سيمر بنا في هذه السورة بعد أربعين آية بالضبط، وذلك في قصة فرعون حين أدركه الغرق ﴿قَالَ أَسْنُ﴾ فقليل له ﴿الْتَنُ﴾ وهل ينفع إيمان وقت العيان؟ فات الأوان الذي يقبل منك فيه الإيمان! ^(١).

(١) وهل تعلم أن الآن داخلاً عليها حمزة الاستفهام لم ترد إلا في هذه السورة في هذين الموضعين ٥١، ٩١.

أما كلمة الآن سوى هذين الموضعين فقد وردت في القرآن ٦ مرات في ٥ سور البقرة مرتين والنساء والأنفال وهي مدنية ويوسف والجن وهي مكية

يقول ابن عاشور: «وقد جاءت ﴿ءَاثَنَ﴾ بهمزتين: الأولى همزة استفهام والثانية همزة «أل» المعرفة، وإذا اجتمع هاتان الهمزتان وجب في الثانية أحد أمرين: تسهيلها من غير ألف بينهما وبين الأولى وإبدالها مداً بقدر ثلاث ألفات. ونعود إلى الاستفهام الإنكاري في الآن أي بعد أن وقع العذاب؟ والتعبير بوقع له وقعه القوي.

ومعنى وقع حل ونزل فهو واقع لا محالة لا مجرد أنه متوقع: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾^(٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ.

وقد كتتم به تستعجلون: قال في السابقة: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وكأنه يقول هل حل بكم الذي كتتم تستعجلونه من العذاب؟ وألفت النظر كذلك إلى رسم كلمة الآن فقد جاءت عجباً، واعتقد أن الرسم توقيف، فقد رسمت همزة الاستفهام مستقلة والهمزة الثانية ليست على ألف وإنما على ياء بلا نبرة، وهذا يحتاج إلى تأمل لكن لا تقل اجتهد نساخ! والمعنى: وقد كتتم به تكذبون، لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار.

يقول ابن عاشور: «المستفهم عنه هو حصول الإيمان في وقت وقوع العذاب وهذا الاستفهام مستعمل في الإنكار بمعنى التغليب وإفساد رأيهم، فإنهم وعدوا بالإيمان عند نزول العذاب استهزاء منهم، فوقع الجواب بمجازاة ظاهر حالهم وبيان أخطائهم».

توجيه نحوي وجيه عند النحاس، قال: «وفي فتح الآن ثلاثة أقوال: منها قولان للفراء، أحدهما: أن يكون أصلها «أو ان» حذفت الهمزة منها وقلبت الواو ألفاً ثم

جاء بالآلف واللام فبنيت معها وبقيت على نصبها، والقول الثاني: أن يكون أصلها من (آن) أي حان ثم دخلتها الألف واللام وبقيت على فتحها مثل قيل وقال، وزعم أبو إسحاق أن هذا لو كان كذا ما جاز أن يكون بالآلف واللام كما يقال: نهى عن القيل والقال، والقول الثالث مذهب الخليل وسيبويه: أن سبيل الألف واللام أن يدخلوا لمعهود (والآن) ليس بمعهود وإنما معناه نحن في هذا الوقت نفعل كذا، فلما تضمنت معنى هذا وجب أن لا يعرب، ففتحت لالتقاء الساكنين^(١).

من دروس الآية ٥١:

١- لا ينفع الإيمان وقت معاناة العذاب، كما لا تنفع توبة إذا حشرجت الروح في الصدر.

٢- التصديق بالمشاهدة يستوي فيه الإنسان والحيوان، إنما الإنسان هو الذي يؤمن بالغيب لما أكرمه الله به من عقل.

٣- استأثرت سورة يونس بمرتي الاستفهام ﴿ءَأَلْتَنَ﴾ الوحيدتين في القرآن ليعطيها ذلك جزءاً من جوها الخاص.

الآية ٥٢:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلْغُلَةِ ثَمَّ يُذَبِّحُونَ لِآلِهَتِهِمْ تَكَسُّبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تحدث عما يقال للمكذبين من وعيد الله فهناك قيل لهم: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ...﴾ فالآيتان مترابطتان متسقتان بلا طول تأمل لاستخراج ذلك.

(١) النحاس، إعراب القرآن، ج ٢، ص ١٥٠.

وجيل أن تكون هذه الآية ختام ربيع جاء في ختامها تقرير حقيقة أن الجزء متكافئ مع العمل ومن جنسه ﴿هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وختمت الآيتان هذه والسابقة بالفعل المضارع: تستعجلون، تكسبون، وختمت الآيتان بالاستفهام كذلك بل إن عدد حروف الختامين واحد تقريباً (٢١، ٢٢).

وهذه الآية ١٣ كلمة و٥٣ حرفاً وترتيبها ١٤١٦.

المعنى: ثم قيل: أي بعد أن قيل لهم ما سجلناه أعلاه قيل لهم كذلك ما ستبينه الآية هذه. و«ثم» للتراخي الرتي.

للذين ظلموا: واختار من أوصافهم أنهم ظلموا ولم يأخذ وصف كفرهم أو شركهم فالظلم وخيم المرتع وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلْشَّرَكَ لَظُلْمٌ...﴾ فهما من مصدر واحد ومن جذر واحد.

ذوقوا عذاب الخلد: هذا ما يقال لهم ذوقوا: والذوق معروف معهود في الطعام والشراب لكنه يستخدم مجازاً للعذاب المادي والمعنوي كأن يقال: ذاق الهوان، ذاق الذل، ذاق الفقر ومرارته، وهنا قال ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ ولم يذكر النار بصريح اسمها لكن ذكر صفتها وأنها دار الخلد.

وهذه هي المرة الأولى في القرآن التي ترد فيها كلمة الخلد وعذاب الخلد وورد عذاب الخلد مرة أخرى في سورة السجدة، أما الخلد فقد وردت سوى هاتين ٤ مرات.

هل تجزون: استفهام تقريرى أي لا تجزون ولا تعاقبون إلا..

إلا بما كنتم تكسبون: والاستفهام و«إلا» يفيد الحصر والقصر كالنفي وإلا. والكسب والاكتساب والعمل والفعل كلها، تصب في مصب واحد وتجري على سنن واحد ونسق واحد، وبينها فروق دقيقة في المعنى ولا ريب.

يقول ابن عاشور: «جملة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ استئناف بياني لأن جملة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ تثير سؤالاً في نفوسهم عن مقدار ذلك العذاب فيكون الجواب أنه على قدر فظاعة ما كسبوه من الأعمال مع إفادة تعليل تسليط العذاب عليهم».

قال الألوسي في تفسيره روح المعاني -الجامعة القرآنية-: «﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ إلخ عطف على قيل المقدّر قبل الآن لتوكيد التوبيخ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وضعوا ما نهوا عنه من الكفر والتكذيب موضع ما أمروا به من الإيمان والتصديق، أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للهلاك والعذاب.. ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي ما تجزون اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي إلا ما استمررتم على كسبه في الدنيا من أصناف الكفر التي من جملتها ما مرّ من الاستعجال، وزاد غير واحد في البيان سائر أنواع المعاصي بناء أن الكفار مكلفون بالفروع فيعذبون على ذلك»^(١).

من دروس الآية ٥٢:

- ١- عذاب الكفار حسي مادي ونفسي معنوي.
- ٢- جزء من عذابهم المعنوي تقريع الملائكة لهم وقولهم كما هنا: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾.
- ٣- عبر عن عذاب جهنم بتعبيرات عديدة وأسماء كثيرة ومنها هنا ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾.

(١) الألوسي، روح المعاني، ج ٦، ص ١٢٨.

الآية ٥٣:

﴿وَيَسْتَعِثُّونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥٣)

الربط والمناسبة: الآية مترابطة بشكل وثيق مع السياق والسباق، فالآيات قبل هذه الآية تتحدث عن العذاب المرتقب والمتوقع لهؤلاء الجاحدين المعاندين وقد سألوا في الآية ٤٨ ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وبينت الآية ٤٩ أنه ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِيمُونَ﴾ واستمرت الآيتان ٥١ و٥٢ على النسق ذاته من محاورتهم، وتعود هذه الآية لتنقل سؤالاً لهم ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ وطرحت الآية جواب سؤالهم ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فالوشائج وثيقة والصلة متينة والتناسق بين الآيات ظاهر بلا تكلف والحمد لله رب العالمين.

وهذه الآية ١١ كلمة و٤٣ حرفاً وترتيبها ١٤١٧.

المعنى: ويستعثونك: الواو للاستئناف أو لعطف موضوع على موضوع، ومعنى الاستنباء: طلب النبا أو طلب جواب السؤال، وهذه الكلمة لم ترد إلا هنا في هذا الموضع في القرآن كله.

أحق هو: الهمزة للاستفهام والمستفهم عنه حقيقة هذا الوعد الذي تكلم عنه السياق الكريم، والمعنى: أهو واقع لا ريب في ذلك؟

والحق ما طابق الواقع وكان صدقاً وثابتاً والضمير «هو» إشارة إلى الوعد أو الموعود في الآيات السابقة.

قل: أي أمر لسيد الخلق بالقول لهؤلاء الذين يجادلونه ويعاندونه، وأما ما يقول لهم فهو ما يأتي.

إي وربي: ومعنى إي نعم وربي، فهي إقرار مشفوع بالقسم لتوكيد القول وتوثيق الكلام، وكلمة ﴿إي﴾ لم ترد كذلك إلا هنا.

وقد وردت كلمة ﴿رَبِّي﴾ ١٠١ مرة ولكن لم ترد ﴿وَرَبِّي﴾ مسبوقة بواو القسم إلا ٣ مرات هذه أولاهها، والثانية والثالثة ﴿بَلْ وَرَبِّي﴾ في فواتح سبأ آية ٣ والموضع الأخير آية ٧ من سورة التغابن.

وأضاف الرب إلى ضمير المتكلم ثقة به واعتزازاً وتشرفاً بالانتساب إليه وتشرفاً بربوبيته للقاتل ﷺ، ولكل قاتل بعده.

إنه لحق: إن أقوى أدوات التوكيد والضمير اسمها واللام داخلية على الخبر فهي لام المزحلقة لزيادة التوكيد.

وما أنتم بمعجزين: ما بمعنى ليس وتعمل عملها وأنتم اسمها وهو ضمير المخاطب الذين كانوا يجادلون.

والباء في بمعجزين مزيدة نحوياً لا بلاغياً لزيادة التأكيد، ومعنى معجزين غالبين، ومن يغالب الله؟ فكيف بالسؤال عمن يغلب؟ وحاشا لجلال الله أن يغالب أو يغلب، وقديماً قال الشاعر الصحابي: وليغلبن مغالب الغلاب، وقالوا: مغالب الغلاب مغلوب وأصدق القول قول الله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال محمود صافي: ﴿إي﴾ هي حرف جواب. وسنين ما أورده ابن هشام عنها: هي حرف جواب بمعنى (نعم) فيكون لتصديق المخبر، ولإعلام المستخبر، ولوعد الطالب... وزعم ابن الحاجب أنها تقع بعد الاستفهام كقوله تعالى:

﴿وَيَسْتَنفِثُونَكَ أَهَقٌ هُوَ قُلْ إِي وَرَيْتَ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ ولا تقع عند الجميع إلا قبل القسم كما في الآية ﴿إِي وَرَيْتَ﴾^(١).

من دروس الآية ٥٣:

- ١- في الآية كلمتان لم تردا في القرآن إلا في هذه الآية، وهذه التفردات لإعطاء كل سورة خصوصيتها وشخصيتها وتميزها.
- ٢- كثر الاستفهام في القرآن لأهميته في تنبيه العقل وهذا هو الاستفهام الثامن في هذه الصفحة (أي من الآية ٤٣-٥٣).
- ٣- القسم من وسائل التوكيد للسامع وقد فطرت النفوس على التأثر بالقسم، وما من بلد في العالم إلا ويعتمد القسم جزءاً في قضائه وأحكامه.
- ٤- وسائل التوكيد من وسائل التأثير في النفوس، ولغتنا الجميلة ملأى بوسائل التأكيد.
- ٥- كم جميل أن يكون المسلم واثقاً موقناً من كل أمر في دينه.
- ٦- استفهام الكافرين يحمل معنى الاستخفاف والاستبعاد والإنكار وذلك ليؤثروا في اتباعهم ليقوهم تحت سيطرتهم.
- ٧- إبعاد النفوس عن الإيمان إحدى وسائل الكفر في السيطرة على البشر.
- ٨- الإيمان هو الذي يحرر الناس والنفوس من كل صور الهيمنة على البشر واستعبادهم واستضعافهم!
- ٩- الله لا يعجزه شيء ولا أحد ولا قوة.

الآية ٥٤:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَفُتِحَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ۖ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤)

الربط والمناسبة: الحديث عن وعد الله وعذابه لمن كفر به ما زال موصولاً مستمراً، وقد قال السياق في الآية ٥٢ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ والآن في هذه الآية يبين هول العذاب الذي ذكرته تلك الآية بحيث لو أن أحدهم ملك ما في الأرض لافتدى نفسه به من هذا العذاب.

وقال في الآية ٥٢ نفسها ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وقال هنا: ﴿وَفُتِحَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فهو تأكيد لما قيل هناك.

وفي الآية ٥٣ كانوا يسألون وسجل القرآن سؤالهم: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ وأجاب هناك ﴿إِنِّي وَرَيْتُ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وهنا في هذه الآية تحقق هذا الحق ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ فبا لترباط هذا الكتاب.. وختمت الآية ٥٣ بقوله ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ وتبينت ضآلتهم وظهر ضعفهم حين لا يستطيعون افتداء أنفسهم.

وهذه الآية ٢١ كلمة و٨٤ حرفاً وترتيبها ١٤١٨.

المعنى: ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض: وهذا افتراض بالطبع فلا يملك أحد إلا الله ما في الأرض، وهو فرض محال والافتداء به محال لأنه لا فدية هناك فهما محالان.

والكلام ظاهر المعنى فلا لبس فيه ولا كلمة تحتاج إلى مراجع أو معجم من المعجمات.. ومعنى ظلمت إما الكفر والشرك كما في الآية الكريمة وتفسيرها

النبي: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إذ فسر الحديث الآية ﴿وَلَمْ يَكْسِبُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾
فبين معنى الآية هذه الأخيرة بالأولى.

وإما أن الظلم بمعنى اتخاذه منهجاً في الحياة كالأقوياء الذين يستعبدون عباد الله
بالبطش والقوة والتفوق ورأس المال والإعلام وأدوات الاستحواذ على الثروة
واستعباد العباد.

فقارة كفارة أفريقيا برمتها ما زالت حتى الآن في الاستعباد والنهب
والاستضعاف والظلم والتمييز وشعوب تموت وتنهب لتعيش في الرغد والرفاهية
شعوب، وإن زعمت هذه الشعوب التي تستعبد البشر أنها تدين بدين المسيح أو
موسى عليهما السلام.

فهذا الظلم المنهجي ليس كالظلم الذي يقع فيه فرد ظلم نفسه بمعصية أو ذنب
من الذنوب.

واقراً من سورة واحدة، هي سورة الشورى هذه الآيات:

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] فالبغي واقع على أمة، ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ

الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَلَمَنِ اتَّبَعَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ [الشورى: ٤١].

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

وأسروا الندامة لما رأوا العذاب: يبدو أن هذا الإسرار كان قبل أن يكتووا بالنار، أما حينئذ فلا إسرار لأنهم سيعلو صراخهم إلى عنان السماء ويبدؤون في الرجاء.. وأنى يستجاب لهم؟!

وأسروا: أي أخفوا الندامة وكنتموها ولم يصرحوا بها في مرحلة من مراحل القيامة وفي موقف لا في كل المواقف.

لما رأوا العذاب: حينما عاينوا العذاب، ولما تفيد أول وقت حدوث الشيء.

وقضي بينهم بالقسط: وحكم بينهم بحكم الله، وقضي فيهم بقضاء الله الحق العدل الذي لا حيف فيه ولا يظلم فيه أحد مثقال ذرة. واقتصر لكل مظلوم ممن ظلمه إما بالأخذ من حسنات الظالمين إن كان لهم أو بطرح السيئات التي للمظلومين على من ظلمهم بقدر ما أوقعوا من ظلم على الناس.

وهم لا يظلمون: لقد آن للناس أن يحكموا بالعدل المطلق، وقد عاشوا في الأرض في ظلم متصل من بعضهم لبعض ومن المستكبرين على المستضعفين، ولذا فإن من أول ما يسمع العباد يوم القيامة «لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد».

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعقياً على ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾: «أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط في أيديهم، والتعبير يرسم للخيال صورة الكمد يظلل الوجوه دون أن تنطق الشفاه».

قال السعدي: ﴿لَا فَنَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعها ذلك، وإغما النفع والضرر والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة. ﴿وَأَسْرُوا﴾ الذين ظلموا ﴿النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا

الْعَذَابَ ﴿ ندموا على ما قدموا، ولات حين مناص، ﴿وَفُضِّنَ بَيْنَهُمُ الْفَسْطُ﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه^(١).

من دروس الآية ٥٤:

- ١- الظلم مرتعه وخيم والظلم المنهجي خطره عظيم وعذابه أليم.
- ٢- تصور الآية هول العذاب بصورة حية هي الافتداء من هذا العذاب بكل ما في الأرض لو كان في يد صاحب الظلم.
- ٣- القيامة مواقف فما يكون في موقف لا يعني أنه في كل موقف فإسرار الندامة موقف لكنه لا ينسحب على كل مواقف القيامة.
- ٤- العدل في الآخرة عدل مطلق فيكفي الناس ما عاشوه من ظلم مطلق في هذه الحياة في هذه الدنيا.
- ٥- إن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة وكيف وهو الذي حرم الظلم على العباد وهو الذي حرمه على نفسه؟
- ٦- ظلم النفس خطير وأخطر منه بكثير أن تظلم غيرك وأخطر من كل هذا أن يوقع فرد ظلماً على شعب أو شعب يوقع ظلماً على شعب والأمثلة الصارخة في الواقع لا تحتاج إلى استحضار.
- ٧- الأسلوب القرآني ينقلنا بلحظة من الأرض إلى ساحة الحساب والجزاء وهذا من بديع القرآن.

(١) تفسير السعدي، ص ٣٦٦.

الآية ٥٥:

﴿الْأَيْنَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَئِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٥﴾

الربط والمناسبة: بين في الآية السابقة عودة البشر إلى الله والقضاء بينهم بالقسط وبين في هذه أن ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ فتكاملت الآيتان. وبين في السابقة أن أحداً من الكافرين لو ملك ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ لافتدى به، وبين في هذه أنه سبحانه هو الذي يملك ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فتكاملت أيضاً، واختتمت الآية بالفعل المضارع.

وهذه الآية ١٦ كلمة و٥٦ حرفاً وترتيبها ١٤١٩.

المعنى: ألا إن: أداة استفتاح مشهورة عند العرب يفتحون بها كلامهم شعره ونثره، والله ولكلامه المثل الأعلى، فقد افتتحت آيات عديدة بهذه الكلمة، سوى ما جاء في ثنايا الآيات كما سيأتي في هذه الآية يفتح معنى وإن لم يفتح الآية. وقد ختمت سورة الشورى بقوله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

و«إن»: معلوم أنها أقوى أدوات التوكيد وكل أخواتها تنسب إليها فيقال إن وأخواتها.

لله ما في السموات والأرض: كثرت هذه الصيغة في القرآن أو صيغة ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كما في الآية ٦٨ من هذه السورة. وملك البشر لبعض الأشياء عارية مستردة، وملك مؤقت كمثل أمين الصندوق في مصلحة يملك المال في الظاهر بمعنى أنه في حيازته لكنه يؤديه لأصحابه آخر الدوام أو آخر المطاف.. سيان.

﴿مَا﴾ عامة تشمل كل شيء، وهي موصولية بمعنى الذي وصلة الموصول ما بعده.

ويعبر القرآن أحياناً بتكرار ما وحرف الجر فيقول: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وأحياناً كما هنا يقول: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكل تعبير لمقصد ويناسب السياق الذي جاء فيه.

وفي الآية ٦٨ أعاد الموصول والجر، ولاحظ أنه هنا يقرر الحقيقة ابتداء ولكنه في الآية هناك يرد على من قالوا اتخذ الله ولداً فناسب أن يفصل الأرض بملكية خاصة فقال: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ف سبحانه من هذا كلامه!

ألا إن وعد الله حق: تكررت ألا في آية واحدة مرتين لأن الآية قررت حقيقتين فاقتضى تكرار ألا التي للتنبيه في الموضعين، والوعد كلمة عامة فهي تشمل كل مواعيد الله وعداً ووعيداً، فالرزق وعد، والأجل وعد، ونصر الحق وعد، وقهر الباطل وعد، والساعة وعد، وكل وعد حق.

والحق واقع كما في الأعراف: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨].

ولكن أكثرهم لا يعلمون: ولكن استدراك، فمع أن هذه حقيقة بدئية لدى أهل الإيمان فإنها عند المبطلين غيب عسر تصديقه عندهم... لأنهم لا يعلمون.

ودقة القرآن في قوله ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ فهم سوائهم على الجملة وإن كان بعضهم يكفر عن علم وبينه وسبق عناد وإصرار كإمامهم إبليس، فهل هو لا يعلم الحقائق؟ بل يعلمها.

ومفعول يعلمون محذوف ليعم مطلقاً، أي لا يعلمون شيئاً، أو إن شئت خصصت بما ذكر في الآية، ولا بأس حينئذ فهم لا يعلمون هاته الحقائق المذكورة هنا.

ويا لجمال القرآن إن حذف زاد في المعنى.. وإن نقصت وقلت الألفاظ.

قال المراغي: «أي أنه تعالى مالك السموات والأرض وكل من فيهما من العقلاء وغيرهم، فليس للكافرين به شيء يملكونه فيفتدون به أنفسهم من ذلك العذاب، بل الأشياء كلها لله الذي إليه عقابهم جزاء ما كسبت أيديهم... فليتذكر من نسي، وليتنبه من غفل، وليعلم من جهل، أن الله وحده جميع ما في العوالم العلوية والعوالم الأرضية يتصرف فيها كيف يشاء، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء، في يوم البعث والجزاء»^(١).

من دروس الآية ٥٥:

١- التنبيه له أدواته وتستخدم في العربية لمقصد لفت الأنظار والعقول والأفكار والإيقاظ من غفلة.

٢- ملك البشر مؤقت وبتفويض من المالك الحقيقي سبحانه.

٣- لئن ملك البشر بعض الأشياء فإن الله تعالى يملك كل الأشياء في السماوات وفي الأرض.

٤- حقيقتان مهمتان تغيبان عن أعين بني الإنسان ملك الله للسماوات وما فيها والأرض وما فيها وصدق وعد الله ووعد.

٥- يشكون ويكذبون بوعد الله من جهلهم بالله.

٦- الله سبحانه يملك الحياة والموت ويملك الرجعة والحساب.

(١) تفسير المراغي، ج ١١، ص ١٢١.

الآية ٥٦:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تعرف بالله وأنه سبحانه له ما في السماوات وما في الأرض وأن وعده حق، وهذه الآية تكمل التعريف بالله وأنه سبحانه ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والآيتان مختمتان بالفعل المضارع.

وجاءت هذه الآية قصيرة من أقصر آيات سورة يونس لأنها نهاية مقطع وبعده نداء للناس شامل عام يمتدح القرآن.

وهذه الآية ٥ كلمات و٢١ حرفاً وترتيبها ١٤٢٠.

المعنى: هو: ابتدأت الآية بضمير الشأن لمواصلة التعريف بالله وقد ذكر لفظ الجلالة في الآية السابقة مرتين، فناسب أن يربط الحديث ويعطفه ويصله بالضمير العائد على ما هنالك.

يحيي ويميت: الخلق والإماتة من أخص خصائص الألوهية، والإحياء والإماتة مشاهدان كل ساعة في كل مكان من العالم على صعيد البشر والنبات والمخلوقات كلها المشاهدة وغير المشاهدة فكل المخلوقات نهايتها الموت بما في ذلك المجرات والمحيطات والجبال والراسيات.

وإليه ترجعون: قدم المرجع على الراجع وهذا بديهي، فالمولى العظيم إليه المآل والمرد والرجوع للحساب والجزاء، فلا يعقل أن يمضي المجرمون بجريماتهم بلا جزاء والمحسنون بإحسانهم، بلا ثواب.. هذا ليس من عدل الإله الذي أقام الوجود على العدل ليشهد بصدق.

وقال الشوكاني: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يَهْبُ الْحَيَاةَ وَيَسْلُبُهَا، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَيَجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ^(١).

من دروس الآية ٥٦:

- ١- من أعظم عقائد هذا الدين البعث للحساب.
- ٢- دليل البعث الأول الحياة الأولى.
- ٣- أدل دلائل الألوهية الإحياء والإماتة.
- ٤- الكون قائم على العدل ليدل هذا الإنسان أنه لا بد من ساحة تنصب لإنصاف العباد بعضهم من بعض وإقامة العدل الذي غاب عنهم في حياتهم الدنيا.

الآية ٥٧:

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكُفُّكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

الربط والمناسبة: هذا هو النداء الثاني في هذه السورة وجاء في الآية ٢٣ في وسط الآية، وفي ختام السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ كُمْ الْحَقُّ﴾ فالنداء ان نسق، هذا أمر، وأما صلة الآية بالسابق فقد بينت الآية قبل السابقة أن الله له ما في السماوات وما في الأرض، وتاليتها أي السابقة لأيتنا مباشرة وفيها قوله ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فبعد أن أقر السياق الحقائق العظمى جاءت هذه

الآية كالتعقيب لتينك الآيتين وما قبلهما بطبيعة الحال وهي تكاد تكون في قلب السورة لتقرر ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

ويبقى هذا النداء الوحيد في هذه السورة الذي افتتحت به آية.

وهذه الآية ١٤ كلمة و٦٢ حرفاً وترتيبها ١٤٢١.

المعنى: يا أيها الناس: نداء للناس كل الناس مؤمنهم وكافرهم، وأهمية النداء لا تحتاج إلى بيان فهو يأتي لينبه إلى قضايا مهمة وليثير الطاقات والملكات للإدراك والفهم.

قد جاءكم موعظة من ربكم: تقرير وتحقيق بأداة ذلك وهي ﴿قَدْ﴾ وقد دخلت على فعل ماض ﴿جَاءَكُمْ﴾ فزادت التوكيد، واستخدام فعل المجيء ليفيد القرب، وكاف الخطاب لاستحضارهم وتهيئة عقولهم للسمع، والموعظة كلام يخاطب القلب والشعور ويرقق الإحساس ويستجيش العاطفة.

وشفاء لما في الصدور: والمقصود بالشفاء لما في الصدور أي من الأمراض المعنوية فهي الخطيرة، فمرض القلوب كما نبه القرآن غير مرة شديد الفتك عظيم الخطر وهو يزداد بسبب إسقاط صاحبه لمولاه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ ويترتب عليه العذاب كما قال الله تعالى بعد ما ذكره من زيادة المرض قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهدى ورحمة للمؤمنين: هل الشفاء لما في الصدور مرتبط بالتذليل للمؤمنين؟ أم إن التذليل مقتصر على الهدى والرحمة؟ أعتقد أن التذليل شامل لكل ما ذكرته السورة، فالشفاء والهدى والرحمة إنما تكون بهذا القرآن للمؤمنين به ولا تكون للكافرين المصيرين على كفرهم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «جاءتكم الموعظة لتحبي قلوبكم وتشفي صدوركم من الخرافة التي تملؤها والشك الذي يسيطر عليها والقلق الذي يحيرها جاءت لتفيض عليها بالعافية واليقين والسلام مع الإيمان».

من دروس الآية ٥٧:

- ١- لا ينادي رب الناس الناس إلا في موضوع مهم جلل.
- ٢- منزلة الوعظ مهمة وإن استخف به الناس لسوء بعض الممارسات وضعف أساليب من يعظون.
- ٣- القرآن شفاء من أمراض القلب والنفس والخواطر السلبية والأفكار البعيدة عن الحق والصواب.
- ٤- ﴿وَشَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ إنها لعبارة تثير حشداً، وراء حشد من المعاني والدلائل تعجز عنها لغة البشر.

الآية ٥٨:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

الربط والمناسبة: أول الأنساق مع جو السورة هذه الفاتحة بقل وقد كثرت في هذه السورة.

وثاني الأنساق أن الآية السابقة كانت تتحدث عن موعظة هذا الكتاب وشفائه لما في الصدور وهدي ورحمة للمؤمنين.. وفي هذه الفرح بفضل الله وبرحمته.. فهما موصولتان، وأعظم أفضال الله هذا الكتاب.. وأعظم الفرح به وبآياته.

وهذه الآية ١٠ كلمات و ٤٤ حرفاً وترتيبها ١٤٢٢.

المعنى: قل: أمر لسيد المأمورين عليه الصلوات أن يقول: بفضل الله وبرحمته: قدم الذي يفرح به على الفرح فقال ﴿يَقْضِلِ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ﴾ ثم قال: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾. والفضل: العطاء الذي يتفضل به المولى فضلاً منه ابتداء لا عن استحقاق ولا لمقابل.

والرحمة جزء من الفضل فلم عطفها على الفضل؟

الرحمة عالم واسع كالفضل وإن كانت من جنسه ففصلها وعطفها على الفضل لخصوصيتها وعظمتها، وأضاف الرحمة إلى ضميره سبحانه كما أضاف الفضل إلى اسمه الجليل سبحانه لمزيد العظمة فالإضافة تفيد التعظيم.

فبذلك فليفرحوا: الفاء الفصيحة تفصح عن مكنون مضمّر وكأنها واقعة في جواب الشرط، والباء في فبذلك للتخصيص والإلصاق والتعيين، وذلك اسم إشارة واللام للبعد والكاف للخطاب، فما وجه استخدام لام البعد؟ إنها هنا لبعد القدر وعلوه ورفعته.

فليفرحوا: الفاء كسابقتها واللام للأمر، والفرح المحمود المطلوب هنا هو الفرح بالفضل الإلهي وبالرحمة أما الفرح الذي ذمه القرآن مراراً فهو الفرح بالأشياء والدنيا والمعصية والكبر والمال وما يطغي البشر.

هو خير مما يجمعون: هذا الفرح بالله وفضله وبرحمته ودينه وهده هو الفرح وهو خير من فرح أولئك الفارغين الفرحين بأشائهم كفرح الأطفال بالعابهم على قلة قيمتها وتفاهة قدرها.

فكل ما يجمعه البشر أمام فضل الله على عباده بالإيمان في الدنيا والجنان في الآخرة لا يقاس ولا يقف للمقارنة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله عن معنى الفرح: «إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ويجعل الإنسان فوقها لا عبداً خاضعاً لها».

نظائر الآية: قلت: فاصلة الآية الكريمة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ورد مثلها تماماً في سورة آل عمران، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤْمِنْتُمْ لِمَعْفَرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧]، وورد مثلها أيضاً في سورة الزخرف، قال الله جلّت عظمتة: ﴿أَهَرِيقْسِيُومُون رَّحِمْتُ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْحِرًا^٤ وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وألحظ جمال الترابط، ورونق التعانق بين ذكر القرآن الكريم - الذي هو فضل الله - وبين الشهادة في سبيل الله جلّ جلاله، وأنه يمكن أن يجني العبد أجر الشهيد إن تدبر القرآن العظيم، واستمسك به، وعمل بما فيه.

والشهداء يفرحون بعد قتلهم، قال تعالى يصف حالهم: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وأهل القرآن وجب عليهم أن يفرحوا في الدنيا بمجيء الموعدة والشفاء والهدى والرحمة.. وكل ذلك في القرآن. وهذا فرح الدنيا، فكيف بفرح الآخرة! نسأل الله أن لا يجرمنا فضله.

قال القاسمي: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي تزكية نفوسكم بالوعد والوعيد، والإنذار والبشارة، والزجر عن الذنوب المورطة في العقاب، والتحريض على الأعمال الموجبة للثواب، لتعلموا على الخوف والرجاء ﴿وَشَفَاءً

لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴿١﴾ أي القلوب من أمراضها، كالشك والنفاق، والغل والغش، وأمثال ذلك، بتعليم الحقائق، والحكم الموجبة لليقين، وتصفيتها بقبول المعارف، والتنوير بنور التوحيد ﴿وَهْدَى﴾ أي لنفوسكم من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لمن آمن به بالنجاة من العذاب والارتقاء إلى درجات النعيم... ﴿قُلْ يَفْضَلِ اللَّهُ﴾ يعني القرآن الذي أكرموا به ﴿وَرَحْمَتِهِ﴾ يعني الإسلام ﴿فَإِنَّكَ﴾ أي فبمجيئهما ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي لا بالأمور الفانية القليلة المقدار، الدنيئة القدر والوقع، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي من الأموال وأسباب الشهوات، إذ لا يتنفع بجمعها ولا يدوم، ويفوت به اللذات الباقية، بحيث يحال بينهم وبين ما يشتهون.

والفاء داخلة في جواب شرط مقدر، كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فبهما فليفرحوا^(١).

من دروس الآية ٥٨:

- ١- الفرح ليس مصادراً في هذا الدين ولكن السؤال هو: بم نفرح وكيف نفرح؟
- ٢- فرح المؤمن بربه ودينه عبادة.
- ٣- البشر بلا دين كالأطفال يفرحون بالتوافه والأشياء الصغيرة.
- ٤- يجمع الناس الأشياء ويكدسونها وهم لا يحتاجون كل ما يجمعون.
- ٥- الإسلام لا يحقر أعراض الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها، إنما يزنها بوزنها ليستمتعوا بها وهم أحرار الإرادة.

(١) القاسمي، محاسن التأويل، ج٦، ص ٣٥.

٦- إن القيمة العليا يجب أن تبقى متمثلة في هدى الإنسان وفي القيم الإنسانية في الإنسان.

الآية ٥٩:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَالِ اللَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩)

الربط والمناسبة: افتتحت السابقة بقل وهذه كذلك. وأمر ثان أن الآية السابقة تكلمت عما يجمعون أي من مال وأرزاق، وجاءت هذه الآية تتكلم عما يتصرف به الناس في هذه الأرزاق.

وأمر ثالث اشتراك الآيتين بورود كلمة الفضل فيهما، ورابع ختمهما بالفعل المضارع.

وهذه الآية ٢٠ كلمة و٧٣ حرفاً وترتيبها ١٤٢٣.

المعنى: قل: أمر للنبي ﷺ أن يقول، ثم هو من بعده أمر لكل من يصلح ويصح أن يؤمر.

أرأيتم: الهمزة للاستفهام ومعناه أخبروني، ورأيتم قد تكون بمعنى الرؤية البصرية أو البصيرية، والمقصود لازم الرؤية وهو العلم ليخبروا بعده.

ما أنزل الله لكم من رزق: ما: بمعنى الذي أي موصولية وما بعدها صلة الموصول التي تبينه وتحدده، وعبر بالإنزال على عادة القرآن في التعبير عن النعم الجزيلة الجليلة، فإنه قال حتى عن الأنعام: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَوْسَجٍ﴾ وكذا

قال عن الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ والشرائع من باب أولى، فقد عبر عن جميع ذلك وغيره بالإنزال.

من: بيانية أو تبعية أي بعض رزقه.

والرزق لفظ عام يشمل كل ما يتفضل الله به على عباده من نعم.

فجعلتم منه حراماً وحلالاً: فعددتكم قسماً منه في باب المحرمات، وقسماً عددتموه في المحلات، بهواكم لا بتنزيل من ربكم وحكم منه أنزله في كتابه، والأصل أن من أنزل الرزق هو الذي ينزل حكمه حراماً أو حلالاً.

قل الله أذن لكم: هذا هو الشق الثاني من الآية ابتدئ بقل كما في الشق الأول، والقول فيه ما قيل في نظيره.

الله: أي الله، الهمزة الأولى للاستفهام والثانية موصولية لفظت همزتها لتحقيقها ثم أدغمت الهمزة في الهمزة ومدت فصار الله.. مع المد اللازم.

أذن لكم: سمح لكم وشرع لكم وأنزل لكم.

أم على الله تفترون: أم للتسوية وللإستفهام.

وقدم ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على ﴿تَفْتَرُونَ﴾ للاهتمام.

والافتراء الاختلاق والكذب والزعم بغير حق.

ولاحظ أن في الآية ٣ استفهامات:

أرايتم؟ الله أذن لكم؟ أم على الله تفترون؟

وملاحظ تكثير الإستفهام وتكثيف الإستفهام الإستغراب من سلوكهم

والاستهجان فكان الإستفهام بهذا المعنى.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق يستتبعه حتماً أن يكون الله هو الرب المعبود، وأن يكون هو الذي يحكم في أمر الناس كله ومنه أمر هذه الأرزاق التي أعطاها للبشر».

من دروس الآية ٥٩:

١- الاستفهام أحد أساليب العربية وأحد أساليب القرآن لتنبه العقول والأفهام.

٢- من أنزل الرزق هو يشرع منه الحلال والحرام وفق مشيئته وإرادته.

٣- من مظاهر تأله البشر اعتداؤهم على حق الحاكمية.

٤ التحريم من قبل البشر ظاهره التشديد على النفس بدعوى التقوى وهو أبعد ما يكون عن هذا، وإنما هو تزييد على الله وعلى النفس، وتعد على الألوهية.

الآية ٦٠:

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١٠)

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن الذين يفترون على الله الكذب فيحلون ويحرمون وفق أهوائهم، وهذه الآية تسأل عن ظن هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فهناك قال ﴿تَتَرَوْنَ﴾ بالخطاب وهنا قال ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بالغيبة فهم في ساحة الآخرة، وفي الآية هذه بالنسبة لتلك التفات.

كما أن في الآية السابقة استفهامات فبدئت وختمت بالاستفهام، وبدئت هذه بالاستفهام، وختمت تلك وهذه بالفعل المضارع.

فأوجه التناسق كثيرة، وفي تلك قال: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وفي هذه كذلك وتكرر في هذه الفضل الذي ذكر في الآية قبل السابقة، وذكر أن أكثرهم لا يشكرون.

وذكر في الآية ٥٥ في ختامها ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والآية ١٩ كلمة و٧٥ حرفاً وترتيبها ١٤٢٤.

المعنى: وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة: استفهام مقصده تنبيههم، أي وماذا يظن هؤلاء الذين يتجرأون على الله فيفترون عليه بقولهم لأنواع من الرزق: هذا حلال، وهي عند الله حرام، أو لأشياء أخرى: هذا حرام، وهي عند الله حلال، ما ظنهم وما قولهم إذ يواجهون ربهم للحساب يوم القيامة، ماذا سيكون حالهم وموقفهم في ذلك اليوم؟ أيعتدون أنهم مؤاخذون؟ أيعتدون أنهم ناجون؟ ماذا يظنون؟

إن الله للذو فضل على الناس: توكيد فضل الله على الناس كل الناس مؤمنهم وكافرهم بما أنزل لهم من رزق أولاً، وبما وسع عليهم من دائرة الحلال ثانياً، وبما ضيق من دائرة الحرام ثالثاً، فهي محرمات معدودة، ولو تفكر الناس لوجدوها جميعاً ضرراً بالغاً وخطيراً ورجساً دنساً نجساً لا تستسيغه الفطر النقية والأذواق الرفيعة والطبائع السوية.

ولكن أكثرهم لا يشكرون: كم ذكر القرآن هذا الأكثر مقترباً بعدم العلم وعدم الشكر وأشياء أخرى كعدم الإيمان وعدم الإيقان.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «والله ذو فضل على الناس ليهدي الناس إلى منهج الحياة السليم القويم الذي يزاولون به خير ما في إنسانيتهم من قوى وطاقات ومشاعر، كما ينسقون به بين فطرتهم وفطرة الكون الذي يعيشون فيه».

قال ابن عجيبة: «يقول الحق جلّ جلاله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾: أخبروني ﴿مَا أُنزِلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ بقدرته، وإن سترها بالأسباب العادية، وقوله: ﴿لَكُمْ﴾ دل على أن المراد منه: ما حلّ، ولذلك وُيُخ على التبعض بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ كالبحائر وأخواتها، ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْهَارِ خَالِصَةً لِّكُنُوزِنَا وَنَحْنُ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التحريم والتحليل، فتقولون ذلك عنه، {أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} في نسبة ذلك إليه»^(١).

وقال الجاوي: «أي شيء ظنهم يوم عرض الأفعال والأقوال، أيجسبون أنهم لا يسألون عن افتراءهم أو لا يجازون عليه، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون! كلا إنهم لفي أشد العذاب؛ لأن معصيتهم أشد المعاصي، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بإعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإمهاهم على سوء أفعالهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعم؛ فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى، ولا يقبلون دعوة أنبياء الله تعالى، ولا يتفجعون باستماع كتب الله»^(٢).

من دروس الآية ٦٠:

١- هل فكر الذين يفترون على الله الكذب بمصيرهم إذ يلقون ربهم؟ إنهم لو فكروا لتغير حالهم.

٢- فضل الله على الناس عظيم وشكر الناس على الفضل قليل.

(١) ابن عجيبة، البحر المديد، ج ٢، ص ٤٨١.

(٢) الجاوي، مراح لبيد، ج ١، ص ٤٩٠.

٣- كم ذكر أكثر الناس في مقام الذم بقلة العلم وقلة الفقه وقلة الشكر وقلة الإيمان!

٤- الكرام قليل، ولولا ندرة الذهب لصار كالتراب.

٥- صيغة الغائب في الاستفهام للشمول وهو سؤال تذوب أمامه الجبلات الصلدة القاسية.

٦- أكثر الناس لا يشكرون بل يشركون ثم يشقون في النهاية.

الآية ٦١ :

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

الربط والمناسبة: تكلم السياق في الآية السابقة عن يوم القيامة وهو ساحة الحساب، فناسب أن يتكلم في هذه الآية عن إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، وبدأ بالعلم برسوله وشؤونه ثم عمم على باقي الموجودات حتى شمل الذرة.

وهذه الآية ٤٢ كلمة و ١٤٢ حرفاً وترتيبها ١٤٢٥.

المعنى: وما تكون في شأن: مهما شغلت به من عمل أو انخرطت في أمر أو شغل أو أي شأن من شؤون الحياة.

وما تتلو منه من قرآن: هذا خصوص بعد عموم، فقراءة القرآن وتلاوة آياته من ضمن الشؤون التي سلفت الإشارة إليها، لكنه خصه بالذكر لعلو شأنه وشرفه العظيم.

ولا تعملون من عمل: وسع الدائرة الآن لتشمل لا شأن النبي وحده ﷺ، ولكن شأن الخلائق أجمعين وما يعملون من عمل دق أو جل من خير أو شر إلا كان تحت نظرنا وفي دائرة إحاطة علمنا.

إلا كنا عليكم شهوداً: إلا كنا مراقبين نشاهد ما تفعلون ونحصى ما تعملون.

إذ تفيضون فيه: إذ: ظرف لما مضى من الزمان.. داخل على المضارع فجمع بين الزمانين الماضي والحاضر بل الأزمنة فالمضارع يشمل الحاضر والمستقبل فهو يعلم عملكم في أي وقت تعملون عملكم فيه.

والشهود: جمع شاهد. وأخبر بصيغة الجمع عن الواحد وهو الله تعالى تبعاً لضمير الجمع المستعمل للتعظيم.

﴿تُفَيْضُونَ﴾ جذرها فيض وهي تعني الزيادة ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ أي تدفقتكم كمياه الفيضان، فمعنى تفيضون فيه: تعملون بتمكن أو بتوسع وفيه إشارة إلى كثرتهم أي مهما تعدد العاملون ومهما كثرت أعمالهم فإنني محيط بهم بعلمي.

ثم عمم مولانا علمه ودائرة المعلوم فقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي ولا يغيب عن علم ربك من وزن ذرة^(١)، ولا أصغر من الذرة وأما ورود ذرة في القرآن فقد وردت ست مرات أولها في سورة النساء آية ٤٠ وثانيها هنا في يونس. والعزوب: البعد. وهو مجاز هنا للخفاء وفوت العلم.

(١) لسنا مع الذين فسروا الذرة بالنملة فالأنسب في هذا الموطن أنها أصغر مكون من مكونات الوجود التي يعلمها البشر، ولعل الذرة بمعنى النمل سمي كذلك لصغره.. فالعود إلى الأصل والأشمل أولى من الفرع والأخص.

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر: أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر من الذرة والصغر مطلق والكبر كذلك فهو يعلم الأصغر مهما صغر والأكبر مهما كبر فكله من خلقه سبحانه، فكيف لا يعلمه؟

إلا في كتاب مبین: ليس فقط يعلمه، ولكنه سجل علمه في كتاب هو اللوح المحفوظ.

وتكبر كتاب للتعظيم، ووصفه بالمبین أي الظاهر الواضح فكل معلومة ظاهرة واضحة مع عظم هذا الكتاب.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «شعور مطمئن وخفيف معاً، كيف بهذا المخلوق البشري وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه شاهد أمره وحاضر شأنه».

قال الزمخشري: «إِنْ قُلْتَ: لَمْ قُدِّمَتِ الْأَرْضُ عَلَى السَّمَاءِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ سَبَأٍ ﴿عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ قُلْتَ: حَقَّ السَّمَاءُ أَنْ تَقْدَمَ عَلَى الْأَرْضِ وَلَكِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ شَهَادَتَهُ عَلَى شُؤْنِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَحْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَوَصَلَ بِذَلِكَ قَوْلَهُ: لَا يَعْزُبُ عَنْهُ لَأَمْ ذَلِكَ أَنْ قَدَّمَ الْأَرْضَ عَلَى السَّمَاءِ عَلَى أَنْ الْعُطْفَ بِالْوَاوِ حَكَمَهُ حُكْمُ التَّنْيَةِ».

قال أبو السعود: «وَمَا تَتْلَوْنَهُ» الضميرُ للشَّانِ والظرفُ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي تلاوةٌ كائنةٌ من الشَّانِ إذ هي معظمُ شؤونه عليه السلام، أو للتنزيل والإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه... ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميمٌ للخطاب إثر تخصيصه بمقتضى الكلِّ، وقد روعي في كل من المقامين ما يليق به، حيث ذُكر أولاً من الأعمال ما فيه فخامةً وجلالةً، وثانياً ما يتناول الجليلَ والحقيق، ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ

شُهُودًا ﴿ استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة، أي ما تلبسون بشيء منها في حالٍ من الأحوال إلا حال كوننا رُقباءً مَطلَّعين عليه حافظين له.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تخوضون وتندفعون فيه، وأصل الإفاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة، وحيث أريد بالأفعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضي أيضاً، أوتر في الاستثناء صيغة الماضي وفي الظرف كلمة إذ التي تفيد المضارع معنى الماضي.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب على علمه الشامل وفي التعرض لعنوان الربوبية من الإشعار باللطف ما لا يخفى... ما يعزُب عنه ما يساوي في الثقل غملة صغيرة أو هباءة، ﴿فِ الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف سواهما ممكناً، ليس على أحدهما أو متعلقاً بهما وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه تعالى بتفاصيلها، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ... كأنه قيل: لا يعزُب عن ربك شيء ما، لكن جميع الأشياء في كتاب مبين، فكيف يعزُب عنه شيء منها...»^(١).

من دروس الآية ٦١:

- ١ - إحاطة علم الله وشمول هذا العلم.
- ٢ - أعطت الآية نماذج للمعلوم لله بدأت النماذج بأشرف المخلوقات وأشرف الأعمال التلاوة ثم باقي الناس وسائر أعمالهم، ثم عمم على الكون كله حتى الذرة وما أصغر.

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج ٤، ص ١٥٧.

٣- الكبير والصغير مهما كبر هذا ومهما دق وصغر هذا في علم الله سواء لا تخفى عليه خافية.

٤- مولانا يعلم ولا يحتاج إلى كتاب يذكره، تعالى الله، ومع هذا سجل المعلوم له في الكتاب المبين.

٥- لكل كلمة في اللغة العربية معنى وظلال وإيحاء.. ومن ظلال تفيضون كثرة العاملين وكثرة الأعمال.

٦- يرتعش الوجدان إشفاقاً ورهبة ويخشع القلب إجلالاً وتقوى حتى يطامن الإيمان من الروعة والرهبة ويهدد القلب الواجب بأنس القرب من الله.

٧- إنه ليس شمول العلم وحده ولكن شمول الرعاية ثم شمول الرقابة.

الآية ٦٢:

﴿أَلَمْ يَأْتِ الْوَلِيَاءَ اللَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

الربط والمناسبة: كان السياق قبلاً يتكلم عن الذين يفترون على الله الكذب وبين مصيرهم وأن الله سيحاسبهم على افتراءهم وهو الذي لا تغيب عنه غائبة، فناسب بعد هذا أن يذكر الفريق الآخر وهم المؤمنون أولياء الله، بعد أن ذكر الكافرين أعداء الله، فإلى لتربط القرآن واتساق آياته، وإن بدا لبعض غلف القلوب والعقول بعيداً عن المنهجية والتناسق والترابط، بل هو المنهجية والاتساق والاتصال وقوة الترابط.

وقد مر الافتتاح بالآ في الآية ٥٥ فهي نسق مع تلك وختمت بالمضارع كشأن كثير من آيات السورة.

وهذه الآية ١٠ كلمات و٣٦ حرفاً وترتيبها ١٤٢٦.

المعنى: ألا إن أولياء الله: ألا أداة استفتاح أعقبها أداة التوكيد إن ثم اسمها أولياء مضافاً إلى لفظ الجلالة لتشريفهم بانتسابهم وانتمائهم للعظيم سبحانه، والولي فيه معنى القرب والمحبة والموالة والنصرة والطاعة والاتباع والتشبه (إذا كانت بحق البشر).. وما أجمع هذه اللغة العبقريّة وما أجملها!

لا خوف عليهم: لا: النافية، وخوف في موقع الابتداء، وعليهم متعلق به ولا وما بعدها في موقع خبر إن.

ولا هم يحزنون: وقد اقترن نفي الحزن معطوفاً على نفي الخوف مرات في القرآن الكريم.

قال ابن عاشور: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ هم في مأمن من أن يصيبهم مكروه يُخاف من إصابة مثله، فهم وإن كانوا قد يهجم في نفوسهم الخوف من الأعداء هجساً من جبلة تأثر النفوس عند مشاهدة بؤاد المخافة. ولا خوف يخافه خائف عليهم، وهم أنفسهم إذا اعتراهم الخوف لا يلبث أن ينقشع عنهم وتحل السكينة محله.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «كيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا في كل شأن وفي كل عمل وفي كل حركة أو سكون وهم أولياء الله المؤمنون به الأتقياء المراقبون له في السر والعلن».

من دروس الآية ٦٢:

١- الولاية كلمة جامعة تعني معاني شاملة من المحبة والتناصر والقرب.. والولاء في الله أصل من أصول الدين.. فمن والى في الله وعادى في الله فهو المؤمن.

٢- قد يتعرض أولياء الله للأذى والخوف والحزن فكيف يقول القرآن ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا التأمين في يوم الناس أحوج ما يكونون فيه إلى الأمن وعدم الحزن.

٣- إنه وإن تعرض المؤمن للظروف الصعبة والقاسية وتعرض للخوف والأحزان بفقد الخلال فهو متأسر بما يسكب الله في قلبه من السكينة والاطمئنان إلى الله وقياس الأسوة الحسنة من النبي الكريم وإخوانه الأنبياء وصحابته الكرام.

٤- لم يرد الخوف والحزن في القرآن إلا في موقع النفي أو النهي، دلالة على أنهما شعوران ينبغي السيطرة عليهما والتحكم فيهما فلا يتحكمان هما في المؤمن.

٥- الحزن هو إنكار النفس من أثر حصول المكروه عندها. فهو لا توجد حقيقته إلا بعد حصوله، والخوف يكون قبل حصوله.

الآية ٦٢:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية وسابقتها كأنهما آية واحدة، ولو لم يفصلهما المولى في آيتين لكانتا آية واحدة لشدة ارتباطهما ووثاقة اعتلاقيهما ببعضهما، فهذه تبين من هم أولياء الله، فتقول إنهم المؤمنون المتقون.

وهذه الآية ٤ كلمات و٢٢ حرفاً وترتيبها ١٤٢٧.

المعنى: الذين: اسم موصول يبين ما قبله ويبينه ويحدده ويظهره ما بعده من صلة الموصول.

آمنوا: صدقوا واعتقدوا وأيقنوا بكل ما طلب منهم أن يؤمنوا به.

وكانوا يتقون: عبر بكانوا المفيدة المضى ليفيد أنهم عريقون في التقوى متمكنون منها قديمون فيها راسخة أقدامهم في أرضها وليسوا طارئين عليها مستحدثين فيها، بل هم عتيقون عريقون.

جاء في تفسير اللباب: «قال أبو بكر الأصم: أولياء الله: هم الذين تولّى الله هدايتهم بالبرهان وتولّوا القيام بحق العبوديّة لله، والدعوة إليه.

واعلم: أن تركيب الواو، واللام، والياء يدل على معنى القرب، فولي كل شيء هو الذي كونه قريباً منه، والقرب من الله - تعالى - بالمكان والجهة محال؛ فالقرب منه إما يكون، إذا كان القلب مُستغرقاً في نور معرفة الله تعالى، فإن رأى، رأى دلائل قُدرة الله، وإن سمع، سمع آيات الله، وإن نطق، نطق بالثناء على الله، وإن تحرك، تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد، اجتهد في طاعة الله، فهناك يكون في غاية القرب من الله؛ فحيثنذ يكون ولياً»^(١).

من دروس الآية ٦٣:

- ١- الإيمان عظيم عند الله وهو أساس ولاية الله.
- ٢- التقوى مكملة للإيمان فهما كأنهما توأمان.
- ٣- اقترن الإيمان بالتقوى في القرآن كثيراً منذ بدايات القرآن إلى أواخره دلالة على أن ثمرة الإيمان يجب أن تكون التقوى.
- ٤- التعبير بالماضي (كان) يفيد الرسوخ والقدم.
- ٥- مفهوم الولاية عند الناس مغلوطة.. فالأولياء هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى لا كما يفهم العوام.

(١) ابن عادل، اللباب، ج ١٠، ص ٣٦٦.

الآية ٦٤:

﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ
الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

الربط والمناسبة: الآية نسق مع سوابقها، فقد بينت الآيتان السابقتان من هم أولياء الله، وبينت هذه جزاءهم، فكان هذه هي النتيجة لتلكما الآيتين.
وهذه الآية ١٥ كلمة و ٦٥ حرفاً وترتيبها ١٤٢٨.

المعنى: لهم البشرى: قدم المبشر على البشرى للاختصاص فكأنها ليست إلا لهم، وللاهتمام فهم محط العناية والرعاية من مولاهم جزاء ما صدقوا إيمانهم واتفقوا ربهم.

والبشرى: الخبر السار الذي يظهر أثره على البشرية بشراً وسروراً وفرحاً وجوراً وقد تكون بشرى مؤجلة كبشراهم بالجنة وهم بعد في الدنيا، وقد تكون معجلة كبشراهم بها وهم في ساحة الآخرة.. والجنة منهم تحت أبصارهم ومحط أنظارهم. وقد جمعهما الله تعالى أي المعجلة والمؤجلة في قوله الكريم: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

والدنيا من الدنو لا من الدناءة والدونية، إلا إذا قصدنا النسبية، بمعنى أن الآخرة هي الدار ونعيمها هو النعيم، أما هذه فكالبلغة في الزاد أي ما يتبلغ به حتى تصلك الوجبة أو تصلها.

وكالاستراحة على الطريق حتى تصل الدار أو القصر والقرار.. فهي بهذا المعنى دون الدار الآخرة بالقطع.

لا تبديل لكلمات الله، لا تغيير ولا تحويل ولا تحوير لكلمات الله، وقد نفى القرآن التبديل عن كلمات الله ونفى المبدل ﴿وَلَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.

ونفي أحدهما نفي الآخر. وفيهما معاً كما في القرآن أقطع لكل احتمال، فانتهى المبدل وانتهى التبديل. لأن إبطال الشيء يستلزم إيجاد نقيضه.

وقد يقال: كيف وقد بدلت وحرفت كلمات الله في الكتابين السابقين؟ فإن سئل هذا السؤال قيل في جوابه: إن أهل الكتابين استحفظوا على كتبهم ولم يتعهد الله بحفظها، أما هذا القرآن العظيم فقد تكفل الله بحفظه في الآية من سورة الحجر وهي من ذوات ﴿الر﴾: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ويمكن أن نجيب بجواب آخر، وذلكم هو أنه لا تبديل لكلمات الله على مدى الزمان كله قبل القرآن وبعده، لكن ما معنى الكلمات في هذه الحال؟ إنها كلماته القدرية التي قدرها وسطرها مولانا العظيم في الكتاب المبين واللوح المحفوظ الذي لا يبلغه أحد ولا يصله إلا من شاء الله من أقرب مقربي ملائكته سبحانه ومن يغير مواعيد الله؟ لا أحد بطبيعة الحال، ولئن بدل هؤلاء الذين بدلوا كتبهم قولاً غير الذي قيل لهم فإنما بدلوا على أنفسهم وفي عقولهم العفنة ولم يغيروا شيئاً مما أعد الله من السعير جزاء ما حرفوا وبدلوا في نفوسهم وفي كتب زعموها كتب الله، أما كلمات الله في ذاتها فلا طاقة لهم على تغييرها، وأما القرآن فلا يغير مخلوق فيه حرفاً بفضل الله.

ذلك هو الفوز العظيم: رجع الكلام إلى أول الآية ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى...﴾ وكان قوله تعالى ﴿لَا يَبْدِلُ...﴾ تأكيداً للبشرى، ولا أقول معترضاً بين ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى﴾ و﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

والفوز لنجاح المقصد وبلاستقراء أرى أنه الفوز في الآخرة فلا يستحق هذا الوصف إلا الفوز النهائي في النتيجة النهائية أما ما يسميه البشر فوزاً في مضامير الدنيا الفارغة الفانية فلا يستحق هذه الكلمة العظيمة.

ووصف الفوز بالعظيم مزيد من تأكيد أنه فوز وأنه عظيم.

قال البقاعي: «فقال مبيناً لتوليه لهم بعد أن شرح توليهم له: ﴿لَهُمْ﴾ أي خاصة ﴿أَبْشَرَى﴾ أي الكاملة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بأن دينهم يظهر وحالهم يشتهر وعدوهم يخذل وعمله لا يقبل وبالرؤية الصالحة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بأنهم هم السعداء وأعداؤهم الأشقياء وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون»^(١).

من دروس الآية ٦٤:

- ١- السعيد المبشر من بشره الله بالجنة.
- ٢- البشرى مخصوصة بالمؤمنين المتقين الموالين لله رب العالمين ولرسوله وللمؤمنين.
- ٣- الفوز كلمة خصصت في القرآن ولغته ومصطلحاته للفوز في الآخرة وهي أكبر من أن تطلق على ما يعده البشر فوزاً في أمور الدنيا وألعابها.
- ٤- كلمات الله أرسى من الرواسي تزول الجبال ولا تتبدل كلمات الله لأنه لا مبدل لها ومن يعقب على كلام الله محو وتبديل.
- ٥- قد يمكن الله بعض العصاة من تعطيل منهجه وهذا ليس تبديلاً لكلمة الله ولكنه جنابة يرتكبها فاعلها يجني بها على نفسه.

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ٩، ص ١٥٤.

الآية ٦٥:

﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

الربط والمناسبة: عاد السياق إلى ما كان يتكلم فيه من شأن الكافرين المعاندين وعاربتهم لهذا الدين ومخادتهم لرب العالمين وصددهم عن الرسول المبين ﷺ، فكان قوله تعالى في هذه الآية إلماح لما في الآيات السابقة جميعاً من أقوال الكافرين كقولهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وقولهم ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ وقولهم ﴿أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ وغير هذا مما لخصه القرآن بقوله: ﴿يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فهذا الذي ذكرناه وسواه تمت الإشارة إليه بهذه الكلمة الموجزة ﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾.

وهذه الآية ١٠ كلمات و ٤٢ حرفاً وترتيبها ١٤٢٩.

المعنى: ولا يحزنك قولهم: الواو استئناف أو عطف موضوع على موضوع.

ولا هي الناهية، يحزنك: مجزوم بلا الناهية.. ومعناه قد تكرر في القرآن ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿فَلَمَّا لَكَ بَنِعْجٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ فالنهي عن الحزن متكرر في القرآن، والحزن أحد أقوى مشاعر الإنسان فإن انفلت قتل وأهلك، لذا وجب ضبطه والتحكم فيه لا أن يتحكم هو في الإنسان ومن هنا لم يرد الحزن في القرآن ولا الخوف إلا مسبوقاً بنهي أو تنهي ومنه ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

وحتى لا يلتبس المعنى كان ثم وقف لازم عند كلمة قولهم.

إن العزة لله جميعاً: القوة والعزة كلها لله جميعاً فهو العزيز النافذ أمره الذي لا يرد قوله ولا تنقض كلمته ولا يغالب، بل مغالبه مغلوب ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ فما دامت العزة كلها له فما يضريك وما يزعجك ويحزنك؟

والتعريف في «العزة» تعريف الجنس المفيد للاستغراق بقرينة السياق.

وقد وردت هذه العبارة ﴿إِنَّ أَلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ٣ مرات أولاها في سورة النساء بالفاء فإن الآية ١٣٩ ثم هذه الآية وفي فاطر ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

هو السميع العليم: ختام مناسب تماماً لقوله ﴿قَوْلُهُمْ﴾ فهو يسمع قولهم ويعلم مكرهم فهو سبحانه ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يفوت سمعه شيء ولا علمه شيء.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «يفرد الله بالعزة هنا ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين كما في الموضع الآخر لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه وهي أصلاً لله وحده والرسول والمؤمنون يستمدون منه».

قال ابن عاشور: «إذا تذكر المخاطب أن صاحب العزة يعلم أقوالهم وأحوالهم زاد ذلك قوة في دفع الحزن من أقوالهم عن نفسه، لأن الذي نهاه عن الحزن من أقوالهم وتطاولهم أشد منهم قوة ومحيط علمه بما يقولونه وبأحوالهم».

قال الثعالبي: «فهذه الآية تسلية للنبي ﷺ، ولفظة القول تعم جحودهم واستهزاءهم وخياداعهم وغير ذلك، ثم ابتدأ تعالى، فقال إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً أَي: لا يقدرُونَ لَكَ عَلَى شَيْءٍ، ولا يؤذونكَ، إِلَّا بِمَا شَاءَ اللَّهُ»^(١).

من دروس الآية ٦٥:

١ - الحزن شعور تنبغي السيطرة عليه فانفلاته هلاك.

(١) الثعالبي، الجواهر الحسان، ج ٣، ص ٢٥٦.

٢- حزن الداعية على المدعوين دلالة رفته وإنسانيته.. لكن لا يكون ذلك على حساب قوته.

٣- العزة جميعاً لله، وليس لأحد من العزة نصيب قليل ولا كثير.. إلا بإذنه.

٤- كل ما يدور في كون الله من كلام أو أعمال يقع تحت سمع الله وعلمه.. فلا يخرج عن ذلك شيء.

٥- كل عزة يستخدمها صاحبها في مناوأة من أراد الله نصره فهي مدحوضة مغلوبة.

الآية ٦٦:

﴿الْآيَاتِ لِلَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

الربط والمناسبة: مر في الآية ٥٥ قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومر في الآية ذاتها ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذه الآية مفتحة بالآ، فهذا نسق أول، ونسق ثان أنه بعد أن أثبت أنه سبحانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآن يثبت أنه ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، وهناك فارقان يجب أن يلاحظا: أولهما ﴿مَا﴾ و﴿مَنْ﴾ والأولى لغير العاقل فإن الله تعالى أثبت ملكية كل ما في الكون أنها لله العظيم. والآن يثبت أنه له أيضاً كل من في السماوات ومن في الأرض فشمّل الوجود كله أشياءه وبشره.. العاقل وغير العاقل. أمر ثان أنه كرر في آيتنا ولم يكرر في الآية ٥٥ فقال: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فقد كان في الآية ٥٤ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ

لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ لَذَا قَالَ بَعْدَهَا ﴿الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجعلهما شيئاً واحداً ليؤكد أن لا ملكية لأحد.

وهنا فصل وفصل فقال: ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ليثبت أن له ملكية مطلقة لكل واحدة منهما منفصلة، والله أعلم بمرامي كلامه لكنها محاولة فهم.

وهذه الآية ٢٥ كلمة و ٨٨ حرفاً وترتيبها ١٤٣٠.

المعنى: ألا إن الله من في السماوات ومن في الأرض: ألا: أداة استفتاح مشهورة لهذا الغرض واستخدمت كثيراً في الشعر العربي والنثر كذلك، واستخدمها القرآن أيضاً.

وإن لتأكيد الخبر بعدها، واسمها مؤخر وخبرها مقدم، وإنما جاء الترتيب هكذا لإفادة الاختصاص أي الله سبحانه لا لسواه.

من تستخدم للعاقل، فكل من في السماوات ومن في الأرض من يعقل هو مملوك لله، شأنه شأن المخلوقات الأخرى مما لا يعقل.. أي في المملوكية لا في المنزلة.. بالطبع.

وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء:

الواو استئناف، وما نافية، والمعنى وما يتبع هؤلاء المشركون مع الله الذين يدعون من دون الله أي لقضاء حوائجهم وإصلاح أمرهم ما يتبع هؤلاء شركاء حقيقيين لله، وإنما هي أوهامهم عن هؤلاء الشركاء.

إن يتبعون إلا الظن: أي ما يتبع هؤلاء إلا الظن والخرص والتخمين وهذا كله لا يغني بحال عن اليقين.

وإن هم إلا يخرصون: صيغتان للحصر هذه والسابقة فحصر في الأولى اتباعهم في الظن، أي وليس اليقين والعلم.

وحصر في الثانية أقوالهم بالخرص وتصوراتهم بالتخمين.

قال النيسابوري: «ثم زاد في التأكيد مع إشارة إلى فساد عقيدة المشركين فقال: أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ فَخَصَّ ذَوِي الْعُقُولِ إِمَّا لِلتَّغْلِبِ وَإِمَّا لِأَنَّ الْآيَةَ سَيَقْتَلِبُ لِبَيَانِ فُسَادِ عَقَائِدِ أَهْلِ الشَّرْكِ، فذكر أن العقلاء المميزين - وهم الملائكة والثقلان - كلهم عبيد له ولا يصلح أحد منهم لأن يكون شريكاً له فما وراءهم ممن لا يسمع ولا يعقل كالأصنام أولى بأن لا يكون ندّاً له»^(١).

من دروس الآية ٦٦:

- ١- كل من في السماوات ومن في الأرض ممن يعقل ملك لله، وكل ما فيهما مما لا يعقل، كل ذلك ملك لله.
 - ٢- ليس لله من شركاء وإنما المشركون يتبعون الظنون وهم يخرصون.
 - ٣- المناهج الخاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة، ونهايات وخيمة.
 - ٤- الظن ليس من مناهج البحث والعلم ولا يقبل في البحث وطرق التفكير.
 - ٥- قال يخرصون والمعنى يخمنون ظناً بلا علم ولا يقين، هذا هو حال المشركين.
- والخرص: القول بالحرز والتخمين.

(١) تفسير النيسابوري، ج ٣، ص ٥٩٨.

الآية ٦٧:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧)

الربط والمناسبة: آيات الكون من أدل الدلائل على الله تعالى، وأسمائه وصفاته، ومن لا يؤمن بالكتابين الأكوان والقرآن فهو مطموس، ولذا يكثر القرآن من الرجوع إلى آيات الكون ليدل الناس على ربهم، وقد كان في الآية السابقة يتكلم عن ملك الله للسموات والأرض ومن فيهما وتكلم السياق عن الذين اتخذوا شركاء من دون الله، وفي هذه الآية يلفتنا مولانا إلى آيات ألوهيته وربوبيته واختار آية الليل والنهار ووظيفة كل وانسجامها مع وظائفنا في هذه الحياة، فمن وفق ونسق الأكوان مع حاجتنا واحتياجنا؟ أمي نسقت نفسها؟ أم الصدف نسقتها؟ أم الإله الحكيم القدير الذي خلق الإنسان والأكوان وأنزل القرآن هو الذي نسقتها؟

فأين ما تشركون؟ وما صنعت هذه التي أشركتموها مع الله؟

وآية الليل والنهار غدت في البصر والعقل بالاعتقاد، غدت في النظر الكليل هينة وهي عظيمة عظيمة فمن حرك هذه الأجرام ليكون الليل والنهار؟ يا الله كم يقتل الإلف فينا من إحساس وانفعال ودهشة وانبهار؟

وآيتنا هذه رد على اتباعهم الظن والحرص وهما لا منهجيان، والقرآن يدللك على العلم وآيات الأكوان فهل يستوي المنهجان؟
لا والذي أنزل هذا القرآن.

ونضيف كذلك أن في أول السورة الآيتين ٥، ٦ فيهما حديث عن أنه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالنَّهَارَ مُجَافًا﴾ وعن ﴿أَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فهي منسجمة مع آيتنا هذه وآيتنا متسقة معها.

وهذه الآية ١٥ كلمة و٦٠ حرفاً وترتيبها ١٤٣١.

المعنى: هو: ضمير الشأن يعود إلى الله تعالى، وقد ذكر اسمه الجليل في الآيات السابقة مرات.

الذي: الاسم الموصول يعينه ما بعده من صلة الموصول.

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه: الجعل تصيير، والجعل يأتي بمعنى الإيجاد على صفة معينة، والأولى من معانيه أنه تصيير بعد إيجاد.

لكم: أي لمنفعتكم وحاجاتكم.

الليل لتسكنوا فيه: الليل ووظيفته أن تسكنوا فيه وترتاحوا وتناموا لتجديد ما تلف من خلاياكم فأثناء هذا السكون يتم التجديد، وأنتم لا تشعرون، لكنكم تشعرون بنتائج النوم من الاستيقاظ مرتاحين نشطين ولولا أن الله جعل هذا الليل ما كنتم بهذه المثابة.

قال ابن عاشور: «المقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهية التي منها الخلق والتقدير، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس يجعل الليل والنهار على هذا النظام، وهذا الامتنان مستفاد من قوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ ومن تعليل خلق الليل بعله سكون الناس فيه وخلق النهار بعله إبصار الناس». أ. هـ.

والنهار مبصراً: لاحظ أنه ذكر النهار بصفته وذكر الليل بوظيفته، وهذا احتباك، بمعنى أن كل محذوف في طرف يدل عليه المذكور في الطرف الآخر.

أي كأنه قال: الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتعملوا فيه ولم يذكر وظيفة النهار لشدة وضوحها.

إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون: ختام يؤكد على ما ذكرت الآية القرآنية من آيات الله الكونية.

ذلك: اللام للبعد بعد اسم الإشارة ذا والبعد مع قرب الذكر ليفيد بعده في علو المنزلة والدلالة على الله.

واللام متصلة بخبر إن المفيدة للتوكيد، جاءت اللام لمزيد توكيد بعد إن المؤكدة.. وجمع الآيات لأنها عديدة وفي الآية الواحدة آيات، فالليل أوله مختلط بضوء ثم ظلام دامس وقد يبرز فيه القمر، وقد لا يبرز ثم يرحل بالتدريج فيختلط مرة أخرى بالضوء.

لقوم: هذه الآيات مسوقة لهؤلاء، أو أن الذين ينتفعون بها هم هؤلاء.. والقوم كلمة عامة تشمل الرجال والنساء وقد تطلق أحياناً ويراد بها الرجال، وهذا الموطن هنا ليس من هذا..

يسمعون: لم اختار السياق ﴿يَسْمَعُونَ﴾ على يبصرون مع أنه ذكر الليل والنهار، وأرى أنه لما قدم الليل جعل التذييل متعلقاً به.. وإن كان السمع لا يقتصر عليه، فهو أي الإنسان يسمع آيات الله المتكلمة عن آيات الله في الكون، يسمعها بالليل والنهار. فالتذييل يسمعون أعم من يبصرون في هذا الموطن.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «الليل والنهار ظاهرتان كونيتان شديدتا الاتصال بحياة الناس، وتناسق هذه الظواهر الكونية مع حياة الناس يحسونه ولو لم يتعمقوا في البحث والعلم ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية. أ. هـ.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «الليل واحد بمعنى الجمع، واحدته ليلة، مثل تمر وتمرّة، وقد جمع على ليالٍ، فزادوا فيه الياء على غير قياس (أي ليالي)، والليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق. والنهار في القليل أنهر وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ويطلق عليه اسم اليوم».

قال ابن كثير: «ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِعِبَادِهِ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ، أَي: يَسْتَرِيحُونَ فِيهِ مِنْ نَصَبِهِمْ وَكَلَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أَي: مُضِيئًا لِمَعَاشِهِمْ وَسَعِيهِمْ، وَأَسْفَارِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَي: يَسْمَعُونَ هَذِهِ الْحُجَجَ وَالْأَدْلَةَ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ عَلَى عَظَمَةِ خَالِقِهَا، وَمُقَدَّرِهَا وَمُسِيرِهَا»^(١).

من دروس الآية ٦٧:

- ١- كم في الكون من الآيات الدالة على الله.
- ٢- الله الذي جعل الكون وآياته مسخرًا لهذا الإنسان ومنافعه ومصالحه، ومن ذلك الليل والنهار.
- ٣- الليل والنوم فيه تجديد للخلايا والنشاط.
- ٤- النهار مضيء منور ليتمكن الناس من عملهم وزرع أرضهم وقطف ثمارهم والتنقل والبيع والشراء، فمن جعل هذا؟
- ٥- وجود الآيات شيء ورؤيتها والانتفاع بهذه الرؤية شيء آخر.
- ٦- يسمعون فيتدبرون ما يسمعون، وإلا فالسمع المجرد لا يغني شيئاً.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٨٢.

٧- كلما ارتقى الناس في المعرفة كانوا أقدر على الفهم متى تفتحت قلوبهم بالإيمان ونظرت بنور الله في هذه الآفاق والأكوان.

الآية ٦٨:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ اِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلٰطِنٍ بِهٰذَا اَتَقُولُوْنَ عَلَىٰ اِلٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الربط والمناسبة: بعد هذه الجولة من الردود على أباطيل المفتريين عاد السياق ليذكر بعض أقوالهم ثم ليكر عليها بالحو والإبطال والتفنيد، فالسياق نسق متصل. وهذه الآية ٢٥ كلمة و ٩٢ حرفاً وترتيبها ١٤٣٢.

المعنى: قالوا اتخذ الله ولداً: يسجل القرآن هنا بعض مقولات المفتريين المجرمين.. وزعمهم أن لله ولداً، وكثير من الأمم رددت هذا الزعم وسجل القرآن ما قالوا: فاليهود قالوا ﴿عَزَّزْتُ ابْنَ اللَّهِ﴾ والنصارى قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ والعرب قالوا: (الملائكة بنات الله) والسؤال هنا: هل هؤلاء المجرمين من مصلحة في هذا القول ولم افتروه إن لم يكن لهم عائد ومنفعة؟ والاتخاذ: جعل شيء لفائدة الجاعل وهو مشتق من الأخذ لأن المتخذ يأخذ الشيء الذي يصطفيه.

وتفسير هذا السلوك أعتقد أنه على جانب من الأهمية حتى نفهم بواعثهم ودوافعهم لسلوكهم هذا.

فأولاً: هم يجعلون لأنفسهم مكانة وحظوة بهذا القول فهم يحددون للناس ما يعتقدون فهم أشبعوا غرورهم وحولوا أنفسهم آلهة تشرع للناس ما يعتقدون.

وثانياً: أن التفسير العنصري والتفكير العنصري قديم وموجود.. فبعض أصحاب الشأن لا بد أن يكون لهم بالله صلة ما، فماذا يكونون؟ فادعوا أنهم أبناء الله.

ولذا قال اليهود والنصارى عن أنفسهم ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾ وحكاية شعب الله المختار، وإن كفروا به، معروفة ومنطلقها من هذا المنطلق.

فادعاء أن أحداً هو من أبناء الله يفتح الباب على مصاريعه لهؤلاء أن يدعوا كما يشاؤون أنهم أبناء الله، وأنه لن يعذبهم، ولن يحاسبهم وهو ما سماه القرآن (أمانى).

وأمر ثالث: أنه إن كسرت قاعدة التوحيد فتح الباب لتأليه هؤلاء لأنفسهم وهو بيت القصيد بالنسبة لهم.. فأولاً زعموا البنين لله ليكسروا قاعدة التوحيد.. ثم ليدخلوا هم على الناس آلهة يحللون ويحرمون كما يشاؤون.

وأمر رابع: أن البشر مطبوعون على المبالغة فإذا أحبوا بالغوا حتى الجنون وإذا أبغضوا بالغوا حتى الجنون بالحق الأعمى.

فالنصارى من حبههم للمسيح بزعمهم لم يتصوروا أنه بشر وكيف يسوونه بالبشر فليدعوا إذا أنه ابن الله.. وهذا ما كان منهم.

مختصر القول أن التوحيد هو قاعدة الدين وقاعدة الوجود الكوني وقاعدة تحرير هذا الإنسان من كل صور العبودية والاستضعاف والاستخفاف فلا تحرر إلا بالتوحيد ولا استعباد إلا مع الشرك.

سبحانه: تنزه الله عن أن يكون له ولد، والولد معلوم طريقة إنجاب، فكيف ادعيتم الولد لله، وكيف كان، وكيف جاء ومن أين؟

وهو اسم مصدر «سبح» إذا نزه، أي نسبحه.

ثم أين العدل في الكون إن كان لله ولد، وهل سيعامل الولد كباقي المخلوقات؟ وهل الولد فيه خصائصنا أم خصائص من ولده؟ كلام هؤلاء عار عن كل منطق وفكر وعقل واحترام للإنسان، واحترام لحدود هذا الإنسان فخبطك في الغيب خبط عشواء، فاحترم ذاتك بأن تلزمها حدود طاقاتك.

هو الغني: ما أجل موقع هذه الكلمة، فالولد عوز، أعني أنه ما يحرص الناس عليه إلا لعوزهم لسند وظهير ومعين وورث وتقوية. والله الغني عن كل هذا فالقوي هو والغني هو والوارث الذي يرث الأرض ومن عليها والسموات ومن فيها هو سبحانه.. فلم يكون له ولد؟ وغنى الله هو الغنى المطلق، كونه غنياً عن الحاجات التي تبعث على اتخاذ الولد من طلب معونة أو إيناس أو خلف.

له ما في السماوات وما في الأرض: تكرر هذا في القرآن وفي سياق هذه السورة ومر قبل آية فقط، ولكن في كل موقع له وقعه، فهنا جاء في سياق نفي الولد فكل ما في السماوات وما في الأرض ملك لله، فهل يكون شيء من المملوكات ولداً؟ بأي لغة وأي منطق يتكلم هؤلاء؟

كيف يكون له ولد وله ما في السماوات وما في الأرض؟ ولماذا؟

والولد احتياج وتعبير عن هذا الاحتياج وكيف يحتاج من له ما في السماوات وما في الأرض؟

هذا الدين بفضل الله أرسى من الجبال، لكن كيف تفهمه وكيف تعرضه بلغة تقنع العالم والعالم والجاهل والمثقف والمتوسط الثقافة و(البدون).. المنخفض والمنعدم الثقافة.. كل هؤلاء يجب أن يصلهم الحق بلغة واضحة وعرض مفهوم مقنع.. فالحق قوي حاملوه من أسف ضعفاء.

إن عندكم من سلطان بهذا: إما إن تكون إن بمعنى ما فهي نافية، أو تكون للاستفهام بمعنى هل، هل عندكم من سلطان بهذا الذي تقولون أن لله ولداً؟

و«مِنْ» مزيدة لتأكيد النفي بالاستغراق.. أي استغراق نفي جميع أنواع الحجة قوتها وضعيفها عقلياً وشرعياً.

والسلطان الحجة والبرهان والدليل والبينة، والسلطان إذ يحول الشخص من اتجاه إلى اتجاه، ومن حال إلى حال.

أقولون على الله ما لا تعلمون: ختمت الآية بالاستفهام.. ومعناه هنا الإنكار والاستغراب، هل تقولون على الله بلا علم ولا برهان ولا كتاب منير؟ وفيه توبيخ وتقريع على اختلاقهم الكذب على الله وعلى جهلهم الفادح.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «ادعاء أن لله ولداً ضلال في تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق وهذا ينشأ عنه ضلال في تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات فكلها فرع من تصور هذه العلاقة، فليست المسألة مجرد فساد في التصور الاعتقادي ولكنه مسألة الحياة برمتها».

قال ابن جزى: «هُوَ الْغَنِيُّ، وصف يقتضي نفي الولد والردّ على من نسب إليه، لأن الغني المطلق لا يفتقر إلى اتخاذ ولد، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ بيان وتأكيد للغني، وباقي الآية توبيخ للكفار ووعيد لهم»^(١).

من دروس الآية ٦٨:

- ١- ادعاء الولد لله مذهب باطل منتشر في كل الأقوام.
- ٢- ادعاء الولد لله المقصود منه كسر حاجز الشرك والتعدي على التوحيد ليدعي الناس بعضهم آله لبعض.
- ٣- كيف يكون لله ولد وهو يملك ما في السماوات وما في الأرض؟

(١) ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٣٦٠.

٤- الولد عوز واحتياج والله الغني المطلق والوارث فما حاجته للولد؟

٥- احترام الذات بتوقيفها عند الإمكانيات التي وضعت فيها، فالسفينة لا تجري على اليس، وخوض العقل في الغيب قلب لنا موس الوجود.

٦- قول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على الله سبحانه!!

٧- عقيدة الإسلام بسيطة وواضحة لا تدع مجالاً لتأويل فاسد ولا تنحني أو تنحرف بالقلب في دروب ومنحنيات ولا سحب ولا ضباب.

لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس بعلم.

الآية ٦٩:

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

الربط والمناسبة: وصف هؤلاء بالمفترين تكرر في هذه السورة فقد ورد هذا الوصف في الآية ٦٠ والآن يحكم عليهم ويظهر نتيجتهم في الدنيا والآخرة وأنهم ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾.

وهذه الآية ٩ كلمات و٣٥ حرفاً وترتيبها ١٤٣٣.

المعنى: قل: تكرر في السورة الكريمة بدء الآيات بفعل الأمر قل، والمأمور معلوم وهو خاتم المرسلين، وكل من يصلح منه الأمر ويصح له القول ويصح منه القول وأن يبلغ كلمة الله.

ما الذي يطلب قوله؟

إن الذين يفترون على الله الكذب: إن الذين يختلفون على الله الأقوال المكذوبة وينسبون إلى الله ما لا يليق بكماله وجلاله، ما شأنهم؟ إن أمرهم في خسران ستوضحه الآية.

لا يفلحون: لن يكتب لهم فلاح ولا نجاح مقاصد لا في الدنيا ولا في الآخرة، والفلاح تحقيق الغرض، وإنجاز الهدف، وتوفية المقاصد، وهو ممتد من الدنيا إلى الآخرة، أما الفوز كما سلف فهو مخصوص بالآخرة. وأما هؤلاء فخسرانهم ممتد من الدنيا واصل إلى الآخرة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن الفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مساهرة سنن الله الصحيحة المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع وتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام وليس مجرد الإنتاج المادي مع تحطيم القيم الإنسانية».

قال أبو حيان: «والذين يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ عَامٌّ يَشْمَلُ مَنْ نُسِبَ إِلَى اللَّهِ الْوَلَدَ، وَمَنْ قَالَ فِي اللَّهِ وَفِي صِفَاتِهِ قَوْلًا يَغْيِرُ عِلْمَ وَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْوَعِيدِ بِانْتِفَاءِ الْإِفْلَاحِ»^(١).

من دروس الآية ٦٩:

١ - الله في كونه وفي خلقه سنن ونواميس ومن بينها عدم فلاح من يفترون على الله الكذب.

٢ - مشكلة الخاسر أنه لا يعلم بنتيجته فيزداد انغماساً في غيه وضلاله.

٣ - افتراء الكذب على الله بالغ في الأظلمية الحد الأقصى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

(١) أبو حيان، البحر المحيط ج ٦ ص ٨٥.

٤- الفلاح: حصول ما قصده العامل من عمله بدون انتقاص ولا عاقبة سوء.

الآية ٧٠:

﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرَاتِنَا مَرَجِّعُهُمْ ثُمَّ نَذِيرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية ختام الربع، وقد كانت الآية السابقة تتحدث عن نتيجة أعمال الذين يفترون على الله الكذب، وأنها الخسران وعدم نجاح المقاصد وعدم الفلاح، فهل هذا يعني أنهم سيحرمون من أسباب عيشهم في الدنيا؟ بالطبع لا. بينت الآية هنا ما سيتيح الله لهم من أسباب عيش وإن كفروا وإن افترؤا.. يا الله ما أحلمك وما أعظمك وما أصبرك على العباد يكفرون بك وتمتعهم؟! سبحانهك.

وهذه الآية ١٣ كلمة و٥٨ حرفاً وترتيبها ١٤٣٤.

المعنى: متاع في الدنيا: هؤلاء المفترون سيمتعون في الدنيا، هكذا أردت، وهذه هي سنتي في خلقي، وقانوني في عبادي أنه حتى من كفر بي وافترى علي لن أحرمه قوته ورزقه، بل ربما مددت له.

والمَتَاعُ مهما توسع وكثر طالما أنه إلى زوال وفناء فهو ﴿مَتَّعَ﴾ أي بُلْغَة، أعني أنه قليل.. مهما رآه الناس عظيماً، فأصحاب البلائين ما بلايينهم؟ إنها متاع هم زائلون وبلايينهم كذلك. والمتاع: المنفعة القليلة في الدنيا إذ يقيمون بكذبهم سيادتهم وعزتهم بين قومهم ثم يزول ذلك، وتنكيره مؤذن بتقليله.

والدنيا كلها إلى فناء ومن عليها بالأولى، فإذا كان المتع يفنى كل يوم فما شأن متاعه؟ ليت الناس يعقلون الأشياء البديهة.

ثم إلينا مرجعهم: قدم ﴿إِنَّا﴾ أي من سِيرَج إليه قبل مَنْ يرجع، للاختصاص والأهمية بالطبع.

وثم تفيد المهلة والتراخي الذي يبدو للمغرورين لا نهائياً ممتداً بلا آخر، وهو لو دروا كلمح البصر.

ثم نذيقهم: تكررت ثم وكأنها بتكرارها تصور تعلق هؤلاء بما أتيح لهم من سنوات عمر ومن فسحة وقت، فلنسر معهم في تصورهم، فعَبَّرَ القرآن بـ﴿ثُمَّ﴾ ليصور لنا حالتهم وأوهمهم عن الدنيا وعن عبثهم وعن مردهم وفكرهم الرديء الذي أُرْدَاهُمْ، وعبر بالدوق مجازاً عن تعذيبهم، فهم سيحسون العذاب بكل حواسهم كما يحسون الطعام بحساسات التذوق على ألسنتهم فينفعل كيانهم كله بطعم الطعام، وسيحسون العذاب يوم القيامة وينفعل كيانهم كله به.. كما كانوا يتمتعون بالطعام والشراب.. فليذوقوه حميم وغساق.

ووصف العذاب بالشديد تناسقاً مع شدة مراسهم في الكفر وشدة افتراءهم وشدة تعنتهم.

بما كانوا يكفرون: أي بسبب كفرهم، وليس ظلماً ولا تعدياً ولا تجاوزاً معاذ الله، وإنما هي أعمالهم أردتهم وردتهم أسوأ مرد. ويعذبون بسبب كفرهم وجحودهم نعمة الله عليهم في الدنيا وافتراءهم الكذب على الله تعالى.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «متاع قصير الأمد وهو متاع مقطوع لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدار الآخرة، وإنما يعقبه العذاب الشديد ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي». أ. هـ.

«وَلَمَّا نَفَىٰ عَنْهُمْ الْفَلَاحَ وَكَانَ لَهُمْ حَظٌّ مِّنْ إِفْلَاحِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِحُطُوظِ فِيهَا مِنْ مَّالٍ وَجَآءَ وَغَيْرِ ذَلِكَ قِيلَ: مَتَاعٌ قَلِيلٌ جَوَابٌ عَلَى تَقْدِيرِ سَوَالٍ، أَنْ قَائِلًا قَالَ: كَيْفَ لَا

يُفْلِحُونَ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا مُفْلِحُونَ بِأَنْوَاعٍ مِمَّا يَتَلَدَّدُونَ بِهِ، فَقِيلَ: ذَلِكَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا، أَوْ لَهُمْ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا زَائِلٌ لَا بَقَاءَ لَهُ، ثُمَّ يَلْقَوْنَ الشَّقَاءَ الْمُؤَبَّدَ فِي الْآخِرَةِ^(١).

من دروس الآية ٧٠:

- ١- كم يشغل الناس بالفاني وينسون الباقي.
- ٢- متاع الدنيا مهما بلغ قليل لمن أبعد النظر ومد البصر ورأى العواقب.
- ٣- مهلة العمر أئمن من أن تضيع في الأوهام، كما قال القائل عن نفسه أنه ضيع في الأوهام عمره.
- ٤- يظن الناس سنواتهم المعدادات في هذه الدنيا أبداً ودهراً وممتداً وكم ذا خطر، وكم هذا الوهم سم قاتل!
- ٥- لا يظلم ربك أحداً فمن دخل النار إنما أدخل نفسه هو في النار وأوردها سوء المصير وموارد الهلكة.

الآية ٧١:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَاثَتِ اللَّهُ فَعَلَ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١)

الربط والمناسبة: ﴿وَاتْلُ﴾ الخطاب لسيد المخاطبين من الخلق بعد قوله تعالى في آية سابقة ٦٩ ﴿قُلْ﴾ فهي عطف عليها والواو تصح عاطفة.

(١) أبو حيان، البحر المحيط، ج ٦، ص ٨٥.

هذا أمر وأهم في نظري أنه بعد أن قطع شوطاً في محاجة قومه جاءت الحاجة إلى الشاهد القصصي يتلو عليه ما يشبه واقعه وما يواجهه، وكيف كانت عاقبة من يعادون ويعاندون الأنبياء، وكيف كانت عاقبة المرسلين وعاقبة المؤمنين بهم، فالسياق مترابط منتظم متناسق متعاقب متفق، وختمت الآية كسابقتها بالفعل المضارع.

وهذه الآية ٣٣ كلمة و ١٣٥ حرفاً وترتيبها ١٤٣٥.

المعنى: واتل عليهم نبأ نوح: الواو تصح عاطفة أو استئنافية، والتلاوة القراءة والإخبار، عليهم: أي على المعاندين من قومك. والنبأ: العظيم من الأخبار والمهم وما له شأن، فما كان بخلاف ذلك فلا يعد نبأ.

نوح: هو أول المرسلين إلى قوم^(١). فيما نعلم.

إذ قال لقومه يا قوم: إذ: ظرف لما مضى من الزمان، ويعقبها الماضي والمضارع أي اذكر وقت إذ قال نوح لقومه ما سجله النص القرآني: يا قوم: لاحظ افتتاح الكلام بالنداء للاعتناء وللاهتمام، فهو بهذا النداء يتقرب إليهم. وهو توجيه أذهانهم إلى فهم ما سيقوله.

ولاحظ أيضاً مجيء النص بلا ألف نداء بل اتصلت ياء النداء بالقاف ورسمت فوق الياء ألف صغيرة تشير إليها وذلك للتقرب والتحبب.

إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله: أمر الله نبينا أن يتلو على قومه المعاندين الذين يشبه حالهم حال قوم نوح في العناد والإصرار والاستكبار، وأن

(١) أما آدم عليه السلام فهو أول رسول نبي مطلقاً بقطع النظر آمن به من حوله أم لم يؤمنوا، ولكنه رسول إلى أولاده وأحفاده فما من أقوام ولا أمم وقتذاك في أول البشرية.

يتلو من نبأ نوح هذا المشهد وهذا القول منه لقومه يقول لهم: إن كان ثقل عليكم وشق على نفوسكم مقامي فيكم مذكراً واعظاً زاجراً ناهياً، وتذكيري إياكم بآيات الله سواء ما نزل في كتابه من تعاليم ووصايا أو آياته الكونية المذكّرة به والمحذّرة من عقابه، أو آياته ما ساق لكم من معجزات.

فعلى الله توكلت: فإني اعتمدت على الله، من جراء وتبعات رفضكم لمقامي فيكم وتذكيري إياكم، والناس لا تحب الناصحين من أسف، وتحملهم تبعة النصيح، فإن جر علي نصحي لكم أموراً تحاذر ويُحسب حسابها، فإني متوكل على الله ربي.

فأجمعوا أمركم وشركاءكم: والتجمع قوة كما هو معلوم، فتجمعوا أنتم ومن معكم من شركائكم في رفض دعوتي وإصرارهم مثلكم على الشرك ومعاودة الوحي.

وإجماع الأمر: العزم على الفعل بعد تردد، لأن المتردد تكون عنده أشياء متفرقة فهو يتدبر فإذا استقر على شيء فقد جمع ما كان متفرقاً.

ثم لا يكن أمركم عليكم غمة: ثم لا يلتبس أمركم عليكم بمعنى احسموا أمركم وأنفذوا ما تهددون به. والغمة: اسم مصدر للغم، وهو الستر. ويراد هنا الستر المجازي.

ثم اقضوا إلي ولا تنظرون: ما عزمتموه فأنفذوه وافعلوه ولا تدّخروا من جهدكم وكيدكم وتديركم شيئاً واقضوا إلي وأوصلوا ما تريدون من أذى ولا تؤخروني من تنفيذ ما عزمتم وقضيتم وقررتم، بل عجلوا بما عندكم. ثم: للتراخي الرتي.

كبر عليكم مقامي: قال مخلوف في صفوة البيان: عظم وشق عليكم قيامي، أي وجودي بينكم، أو إقامتي بين أظهركم، أو على دعوتكم مدة طويلة، فهو اسم مكان، أو مصدر ميمي.

فاجمعوا أمركم: اعزموا وصمموا على إهلاكهم، يقال: اجمع أمره، واجمع عليه، أي عزمه وصمم عليه، وأصله جعل أمره مجموعاً بعد ما كان مفقراً.

وشركاءكم: أي مصاحبين لهم في العزم على إهلاكهم.

ثم لا يكن أمركم عليكم غمة: ثم لا يكن أمركم مستوراً عليكم بل أظهره وجاهروني به.

ثم اقضوا إلي: أدوا إلي ذلك الأمر الذي تريدون بي كما يؤدي الرجل دينه إلى غريمه من القضاء بمعنى الأداء.

ولا تنظرون: ولا تتهملوني بل عجلوا أشد ما تقدرون عليه. أ. هـ.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «هذا الكلام من نوح عليه السلام عن طريق التعجيز لهم، فقد أخبر الله تعالى عنه أنه كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله، وأنه كان واثقاً بنصره إياه».

قال أبو حيان: «لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الدَّلَائِلَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَذَكَرَ مَا جَرَى بَيْنَ الرُّسُولِ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، ذَكَرَ قَصَصاً مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ وَذَلِكَ تَسْلِيَةً لِلرُّسُولِ ﷺ، وَلِيَتَأَسَّى يَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَيَخَفَ عَلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنْهُمْ مِنَ التَّكْذِيبِ وَقِلَّةِ الْبَائِعِ، وَلِيَعْلَمَ الْمَثَلُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقَصَصُ عَاقِبَةُ مَنْ كَذَّبَ الْأَنْبِيَاءَ، وَمَا مَنَحَ اللَّهُ نَبِيَّهُ مِنَ الْعِلْمِ بِهَذَا الْقَصَصِ وَهُوَ لَمْ يُطَالِجْ كِتَاباً وَلَا صَحِيبَ عَالِمٍ، وَأَلْهَاهَا طَبِيقُ مَا أَخْبَرَ بِهِ»^(١).

(١) أبو حيان، البحر المحیط، ج ٦، ص ٨٦.

وقال السمين الحلبي: «قوله: ﴿غَمَّةٌ﴾ يقال: غَمٌّ وغمَّةٌ نحو كَرْبٍ وكَرْبَةٌ. قال أبو الهيثم: هو من قولهم: غَمَّ علينا الهلالُ فهو مغموماً إذا التمس فلم يُر. قال طرفة ابن العبد:

لعمرك ما أمري عليّ بغمّةٍ نهاري ولا ليالي عليّ بسرمَدٍ
وقال الليث: يُقال: هو في غَمَّةٍ من أمره إذا لم يتبيّن له^(١).

من دروس الآية ٧١:

- ١ - القصص القرآني مدرسة الدعاة لأخذ التجربة والعبرة والخبرة.
- ٢ - تذكير الغافلين من الناس يثير حفيظتهم على من يذكرونهم.
- ٣ - نوح عليه السلام في فجر البشرية وفجر الرسالات ومع هذا فإنه وجد من قومه عتواً في الكفر والعناد ومقاومة الدعوة.
- ٤ - الثبات على الحق والجرأة فيه مع التوكل على الله مطلب عزيز.
- ٥ - وضوح الأمور وعدم التباسها مطلوب في الحالات كلها.
- ٦ - لا يجلب الخير ولا يدفع السوء إلا الله فلو كادك العالم كله ما ضرك إذا كان الله لم يقدر لك ما أرادوه وكادوه.
- ٧ - يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه، فليس هذا التحدي تمرداً ولا تهوراً، إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التي تتضاءل أمام أصحاب الإيمان.

(١) السمين الحلبي، الدر المصون، ج ٦، ص ٢٤٣.

الآية ٧٢:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه كلمات نوح يرد بها على قومه ويكمل كلامه الذي بدأته الآية السابقة فالنسق أوضح من أن يبحث فيه عن وجه الترابط.

وهذه الآية ١٦ كلمة و ٦٠ حرفاً وترتيبها ١٤٣٦.

المعنى: فإن توليتم: الفاء تفريع على ما سبق، وإن شرطية.

والتولي: الإدبار والإعراض والرفض.

فما سألتكم من أجر: الفاء واقعة في جواب الشرط وما نافية.

سألتكم: طلبت منكم، من أجر: أي أجر مطلقاً لا مادياً ولا معنوياً^(١). ومن يقولون نحوياً إنها مزيدة، ولكنها بلاغياً في منتهى الأهمية.. فهي تنفي مطلق الأجر مهما قل أو كثر.

إن أجري إلا على الله: إن بمعنى ما النافية وهي مع إلا تفيد الحصر والقصر، فأنا لا أطلب أجري إلا من الله ولا أسألكم إياه.

والأجر: العوض الذي يعطى لأجل عمل يعمل له آخذ العوض.

وأمرت أن أكون من المسلمين: نوح يقول لقومه بعد أن نفى طلب الأجر منهم، يقول إنه أمر من ربه تعالى أن يكون من المسلمين المستسلمين لأمر الله

(١) أرى أن معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ بعد نفيه أن يكون طلب منهم أي أجر، لا يعني أن تحبوا أهل بيتي فهذا نوع من الأجر فتناقض الكلام، وإنما معناه أن تصلوا أرحامكم لا أن تصلوا رحمي أنا.. فيكون طلباً للأجر منهم، والله أعلم.

والخاضعين لأمره ونهيه. وقوله أن أكون من المسلمين أقوى في الدلالة على الاتصاف بالإسلام من أن أكون مسلماً.

قال الزمخشري: «المراد أن يجعل الحجة لازمة لهم، ويبرئ ساحتهم فذكر إن توليتهم لم يكن عن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه وإنما ذلك لعنادهم وتمردهم لا غير».

من دروس الآية ٧٢:

- ١- الأنبياء منزّهون عن المصلحة وطلب الأجر من الناس.
- ٢- الناس حريصون على ما لهم فلو سئلوا منه لنفروا من السائل، والأنبياء أكرم وأعز من أن يسألوا أو ينفروا الناس بسؤالهم.
- ٣- تطلب الأجر على الدعوة لا ينبغي أن يكون إلا من الله.
- ٤- الإسلام دين الأنبياء جميعاً.

الآية ٧٢:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٧٢﴾﴾

الربط والمناسبة: في هذه الآية بيان نتيجة دعوة نوح لقومه أنهم كذبوه.. فالربط واضح ووثيق.

وهذه الآية ١٧ كلمة و٨٣ حرفاً وترتيبها ١٤٣٧.

المعنى: فكذبوه فنجينا: فكانت نتيجة دعوته أن كذبوه.. وردوا دعوته ولم يصدقوا ما جاء به، فما كانت نتيجة تكذيبه؟ أن الله لنجاه المؤمنين معه.

ومن معه في الفلك: أي نجينا نوحاً والذين آمنوا معه في الفلك أي في السفينة التي صنعها نوح.

وجعلناهم خلائف: وجعلناهم خلفاء ورثوا الأرض، وخلفوا من أهلكوا.. فكانوا خير خلف لشر سلف.

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا: وماذا كانت نتيجة الكافرين؟ بينت هذه الكلمات الكريمة ما حل بالمكذبين أن الله أغرقهم، وعبر عن إغراقهم بنون العظمة. وعبر عن المكذبين بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ وصلته ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ليسجل حيثية حكم الإغراق واستحضار جرميتهم وأضاف الآيات العظيمة إلى نون العظمة ليدل على عظمتها وعظمة من ساق الآيات وأوقع على الكافرين الغرق والهلاك.

فانظر كيف كان عاقبة المنذرين: هذه الفاء الثالثة في هذه الآية، والمأمور بالنظر سيد المأمورين عليه الصلوات، والنظر في اللغة للبصر إن كان السياق يحتمل أو للبصيرة على المجاز إن كان السياق لا يحتمل.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «فانظر يا محمد ﷺ أو يا أيها الإنسان كيف كان آخر ونتيجة من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك، فيه تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ وتعزية وتسلية». أ. هـ.

كيف: المطلوب النظر بالعقل إلى الكيفية التي أهلك بها هؤلاء وكيف كانت عاقبتهم. والعاقبة: النتيجة النهائية. وعبر بالمنذرين بدل المكذبين مثلاً أو المجرمين أو الظالمين أو المعتدين.. ليدل على عدل الله، وأنهم ما عذبوا إلا بعد بلاغ وإنذار وتحذير وإعذار، قبل أن يكون مصيرهم الدمار، ثم يساقون إلى النار.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «هذه سنة الله وهذا وعده لأوليائه، فإذا أطال الطريق فيجب أن تعلم وتستيقن أن العاقبة للمؤمنين وألا تستعجل وعد الله حتى

يجيء، ولتعلم أن الله لا يخدع أولياءه ولا يعجز عن نصرهم، ولكنه يدر بهم ويعلمهم».

قال ابن عاشور: «تقدم ذكر إنجائه قبل ذكر الإغراق الذي وقع الإنجاء منه، للإشارة إلى أن إنجاءه أهم عند الله تعالى من إغراق مكذبيه، ولتعجيل المسرة للمسلمين السامعين لهذه القصة».

قال النسفي: «﴿فَجَنَّتْهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي أَلْقَالٍ وَجَعَلْنَاهُمْ خَاتَمٌ﴾ يخلفون الهالكين بالغرق، في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ هو تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ من مثله وتسليية له»^(١).

من دروس الآية ٧٣:

- ١- النظر في العواقب والنتائج والنهايات مهم جداً لتثبيت أصحاب الدعوات.
- ٢- تكذيب الرسل ليس له نتيجة إلا التعذيب في الدنيا والآخرة.
- ٣- الإيمان منجاة لأهله في الدنيا والآخرة.
- ٤- لا عقاب إلا بعد إنذار.
- ٥- لينظر من ينظر عاقبة المنذرين المكذبين وليتعض من يتعض بعاقبة المؤمنين الناجين.

(١) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ج ٢، ص ٣٤.

الآية ٧٤:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ

مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

الربط والمناسبة: الصلة وثقى والنسق ظاهر ووحدۃ الموضوع بينة، فقد كانت الآيتان السابقتان تتحدثان عن نوح ودعوته قومه ونجاته وهلاكهم، وهذه عطف على قصته من بُعثوا رسلاً إلى قومهم فواجهوا مثل الذي واجه نوح عليه الصلوات.. فموقف الأقوام من الرسل واحد.

وهذه الآية ٢٢ كلمة و ٩٢ حرفاً وترتيبها ١٤٣٨.

المعنى: ثم: للتراخي الزمني، فحسب، إذ لا وجه فيما أرى للتراخي الرتبي.

بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم: والبعث فيه قوة فهو أشد من أرسلنا، وأضاف البعث إلى نون العظمة فاعلاً لتعظيم هذا البعث بعظمة من بعث ومن بُعث.

من بعده: من بعد نوح.

رسلاً: جاء منكرأً ليشير إلى الكثرة والعظمة فهم كثر وعلى قدر عظيم.

إلى قومهم: وأفرد قومهم ليدل على أن كل رسول بعث لقومه - ونسبه إلى الجمع ليفيد في النهاية، جميع الأقوام بميم جمع الرسل، فأفاد معنيين الأفراد في الإرسال والجمع في النتيجة.

فجاءوهم بالبينات: أي فجاء الرسل أقوامهم بالبينات أي بالآيات والمعجزات الواضحات الظاهرات، وتصح البينات أيضاً لآيات الكتاب الذي بعثوا به، ولهما معاً.

فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل: وصيغة فما كانوا ليؤمنوا هذه الصيغة من أشد صيغ النفي.. فما كانت الأقوام لتؤمن بما جاء به الرسول بل كذبوا كسابقيهم.

وصيغ النفي بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفاء الإيمان عنهم بأقصى أحوال الانتفاء.

بما كذبوا به من قبل: اعتبرهم النص الكريم شيئاً واحداً وكأنهم أمة واحدة، فقال: ﴿يَا كَذِبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ كأن أقوام الرسل المتأخرين هم من كذب نوحاً، وهو كذلك، فإن تكذيب رسول تكذيب لجميع المرسلين، فهم في النتيجة يرفضون مبدأ الرسالة من نوح وآدم من قبله إلى رسولهم هم، فالنص في منتهى الدقة والحمد لله، تماماً كما قال عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا﴾. والمعنى: أنهم لما كذبوهم جاؤوهم بالبينات على صدقهم فاستمروا على التكذيب.

كذلك نطبع على قلوب المعتدين: كذلك: تكشف عن سنة وقانون مطرد لا يتخلف، أن من يعاند ويعتدي ويصر على كفره يطبع على قلبه بما جنت يده لا بما حرم ابتداءً من الهدى فهذا غير وارد، ولا يظلم ربك أحداً. والطبع الختم والإغلاق، وعبر بنون العظمة ﴿نَطْبَعُ﴾ ليفيد عظمة هذا الطبع.

على: تفيد التمكن أي طبعاً محكماً محيطاً بهذا القلب.

قلوب المعتدين: وجمع القلوب لأن الكافرين جمع، وأضاف القلوب إلى المعتدين، فهو الأنسب هنا فمن أندر كما في الآية السابقة ولم يتنبه فهو معتد.

قال الشيخ حسنين مخلوف في صفوة البيان:

«كذلك نطبع: أي مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب المتجاوزين للحدود في الكفر والفساد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهمالكهم في الضلال، والطبع: الختم والاستيثاق».

قال ابن عاشور: «وقد جعل الطبع الذي وقع على قلوب هؤلاء مثلاً لكيفيات الطبع على قلوب المعتدين فقلوه: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ...﴾ أي مثل هذا الطبع العجيب نطبع على قلوب المعتدين. فتأملوا».

قال البيضاوي: «فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر وخذلان الله إياهم. بما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام. كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ بخذلانهم لانهمالكهم في الضلال واتباع المألوف»^(١).

من دروس الآية ٧٤:

- ١ - سنة الله في الأقوام إرسال الرسل، كل رسول إلى قومه.
- ٢ - ومن سنته كذلك أن كل رسول يزود بآية بينة ومعجزة ظاهرة.
- ٣ - التكذيب واحد من ثوابت الأقوام وكأنه قانون مطرد.
- ٤ - من سنة الله وقانونه في الأقوام أن الظالمين والمعتدين المصيرين يطبع على قلوبهم.
- ٥ - البلاء هو زاد الطريق المؤدي إلى النصر في نهايته.

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٣، ص ١٢٠.

الآية ٧٥:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٥)

الربط والمناسبة: المناسبة واضحة جداً، فالآية السابقة بدئت بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ فهي أي هذه الآية عطف خاص على عام، وهناك وصف أقوام الأنبياء بالمجرمين، وهنا وصف القوم الذين أرسل إليهم موسى بالاستكبار وبالمجرمين.. فتكاملتا.

وهذه الآية ١٤ كلمة و٦٩ حرفاً وترتيبها ١٤٣٩.

المعنى: ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون: كما بعثنا الرسل إلى أقوامهم بعثنا بعدهم موسى وهارون.

ثم: للتراخي الرتبي لأن بعثة موسى وهارون كانت أعظم من بعثة من سبقهما من الرسل، وتنصح أيضاً للتراخي الزمني.

إلى فرعون وملئه: الرسل بعثوا كل رسول إلى قوم وهذان رسولان يبعثان إلى فرعون وحاشيته وبطانته، كان الشعب أو القوم لا وجود لهم. فهؤلاء المذكورون يستأثرون بكل شيء فكانهم كل شيء، وما هم إلا حفنة من الناس.. صحيح أنهم يستأثرون بالسلطة والنفوذ لكنهم قلة لا تذكر ولا نسبة لهم إلى الشعب.

والملاهم المقربون ورجال الحكم وأصحاب النفوذ والحظوة والسطوة والسلطة وقادة الأجهزة والمهيمنون على المقادير والذين يحكمون باسم فرعون.

وفرعون ليس اسماً لكنه لشهرته وتكراره صار كالاسم، وإنما هو اسم المنصب ككسرى وهرقل والنجاشي والإمبراطور والرئيس.. إلخ.

بآياتنا: بعثنا الرسلين بالتسع آيات، إذا قلنا إن الكتاب وهو التوراة قد تأخر نزوله إلى زمن التيه.. حيث تلقى موسى الألواح بعد الخروج. وإذا كان نزل عليه بعض التعاليم فتكون ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ شملت الصنفين والمعنيين: الآيات والمعجزات التي أرسل بها موسى، والكلمات التي بُعث بها إلى فرعون ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن نَزَّلَ﴾ وما بلغه موسى لفرعون وذكرته الآيات القرآنية.

فاستكبروا: واجهوا الرسالة والمعجزات بالاستكبار والعلو والعتو والرفض والاستعلاء.

وكانوا قوماً مجرمين: أي كانوا عاتين في الإجرام مسلوكين في سلك المجرمين وعدادهم وجمعهم وزمرتهم.

والمجرم: من أتى فعلاً كبيراً في جرمه وجريته وعقوبته كما في القانون جنح وجنایات، وجنایات كبرى. وكلمة كانوا تفيد الرسوخ والقدم في الصفة لا أنها استجدت بعد إرسال الرسول إليهم.

قال ابن عاشور: «بعثة موسى كانت أول مظهر عام من مظاهر الشرائع لم يسبق له نظير في تاريخ الشرائع ولا في تاريخ نظام الأمم. وهو مع تفوقه على جميع ما تقدمه من الشرائع قد امتاز بكونه تلقيناً من الله المطلع على حقائق الأمور المرید إقرار الصالح وإزالة الفاسد».

ملحظ هام جداً أورده الإمام السعدي في التيسير عند تفسير آيات من سورة المؤمنون؛ حيث قال: «مر عليّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه، أما

هذه الآيات، فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا، إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص، فهي صريحة جداً، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة يونس من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ ﴿٢﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ ﴿الآيات والله أعلم﴾^(١).

من دروس الآية ٧٥:

- ١- خص الله موسى وهارون بعد لفظة ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ في الآية السابقة المفيدة العموم ليدلل على خصوصية الطاغية الذي يواجهه موسى وأنه طغيان استثنائي من طاغية استثنائي.
- ٢- لأول مرة يرسل رسولان لا إلى قوم بل إلى شخص لا في آية واحدة كما يبعث المرسلون بل في تسع آيات.. وذلك للعتو الفرعوني المتأصل.
- ٣- الملأ هم المنفذون للسياسات والبطانة المقربة من رأس السلطات.
- ٤- الاستكبار جريمة كبرى كانت وراء إخراج إبليس من الجنة ووراء رفض الأقوام دعوات المرسلين.

(١) تفسير السعدي، ص ٢٥٢.

٥ - الاستكبار والإجرام جرمتان كثيراً ما تجتمعان.. فتكونان باجتماعهما آفة الآفات.

٦ - الألف والسين والتاء في ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ للمبالغة في التكبر.

الآية ٧٦:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَىٰ﴾

الربط والمناسبة: سجلت الآية السابقة إرسال موسى إلى فرعون برسالة الله، وتسجل هذه الآية ماذا كان رد فعل فرعون على الرسالة والرسول.. فالرباط أوضح من أن يوضح، وأظهر من أن يظهر، وأجلى من أن يجلى.
وهذه الآية ١٠ كلمات و٣٨ حرفاً وترتيبها ١٤٤٠.

المعنى: فلما جاءهم الحق من عندنا: فلما: فاء التعقيب ولما تفيد المسارعة وأول حدوث الشيء، فكان المسارعة تمت بوسيلتين ليفيد النص سرعة رفض فرعون ومن معه للدعوة.

جاءهم: والمجيء يستعمل للقرب أي القدوم من قريب.
والحق: ما كان ثابتاً صادقاً مستقراً في الكون والعقول والنفوس.

من عندنا: والذي مصدره من عند الله خالق الكون والبشر، فماذا كان الرد؟ قالوا إن هذا لسحر مبين: تسجل هذه الكلمات ردهم على دعوة الله، واستخدموا من التوكيد أشده إن مقترنة باللام المرحلة داخلية على خبر إن، واسم الإشارة هذا للقريب، لتحديد، والإيماء بأنه معلوم لدينا عن كتب.

وأضافوا إلى كل ذلك وصف الكتاب الذي جاءهم أو الحق الذي وصلهم بالسحر مضافاً إليه وصف مبين المفيد شدة الظهور والوضوح بشكل قاطع لا تخطئه عين أي ناظر.

قال ابن عاشور: «اعتذارهم عن الآيات بأنها سحر هو اعتذار المغلوب العديم الحجة الذي قهرته الحجة وبهره السلطان الحق، فلم يبق له منتسب من المعارضة المقبولة فهو يهرع إلى انتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمحيص ولا تثبت في محك النقد».

من دروس الآية ٧٦:

١- مسارعة فرعون والملائ من حوله إلى رفض دعوة موسى لينهجوا نهجاً تقلده الجماهير ولا يدعوا فرصة للحق أن يعرض نفسه.

٢- استخدام اللغة في رد فرعون وفي كل عصر في ترويج أفكارهم المناوئة لرسالات الله، واستخدام المؤثرات اللغوية أخذنا هذا من العرض القرآني الدقيق لما قال فرعون واستخدام أدوات التوكيد.

٣- تسميم الأجواء من حول الدعوة والدعاة بوصف ما جاؤوا به أنه سحر ولكل زمان وصفه المواتي والمناسب. (وفي هذا الزمان الإرهاب والتطرف وخطاب الكراهية).

٤- عبر القرآن ﴿يَنْ عَيْنًا﴾ ليصور شناعة الجريمة فيما قالوه عن هذا الحق الصادر من عند الله.

٥- يقول صاحب الظلال رحمه الله: «بهذا التوكيد الذي لا يستند إلى دليل ﴿إِنَّ هَذَا لَيْسَ حُرْمِينَ﴾ كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون في جميع العصور

فهكذا قال مشركو قريش على تباعد الزمان والمكان وعلى بعد ما بين معجزات موسى ومعجزة القرآن».

٦- في عصور التخلف كان يفسر كل أمر غريب بالسحر.. وما يزال.

الآية ٧٧:

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيَسْخَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾

الربط والمناسبة: بينت الآية السابقة رد فرعون وملئه على دعوة موسى، وتبين هذه الآية رد موسى على ردهم، فالأمر في ترابط الآيتين ومناسبتها لبعضهما وتناسقهما معاً ظاهر بين.

وهذه الآية ١١ كلمة و٤٧ حرفاً وترتيبها ١٤٤١.

المعنى: قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم: قال موسى يرد على فرعون والملا. أتقولون: الهمة للاستفهام وتقولون هي المستفهم عنه، وحذف النص الكريم مقول القول إيجازاً واختصاراً، وكأنه قال أتقولون هذا للحق لما جاءكم. أو يمكن تقديره، أتقولون للحق لما جاءكم هذا سحر، ثم سأل هو أسحر هذا؟

اللام في ﴿لِلْحَقِّ﴾ لام التعليل، وبعضهم يسميها لام البيان، وبعضهم يسميها لام المجاوزة بمعنى (عن).

وهذا الإيجاز البديع والحذف المقصود المشوق الذي يشغل العقول لتنظر وتتدبر وتقدر وتتفكر وتتملى وتأثر، فسبحان من أنزل هذا الكلام الجامع الموجز المعجز.

أسحر هذا: همزة استفهام ثانية في آية قصيرة، وكلا الاستفهامين مقصودهما الإنكار والاستهجان من سلوكهم وردهم وتصرفهم. وهي جملة مستأنفة للتوبيخ والإنكار.

ولا يفلح الساحرون: والساحر والسحر والساحرون ومن تأثر بهم كل هؤلاء لا يفلحون، وكأنه الماح إلى النتيجة، وأن النتيجة هي الفصل والحكم.

وكانه يقول لهم: إن هذا الدين وأهله سيكون لهم الفلاح، وأنتم لن يكون لكم فلاح، وهذه أبلغ علامة ودلالة على أن ما جئت به هو الحق وأنكم أنتم من يعتمد منهج السحر والسحرة وطرائقهم وضلالهم لا أنا، فالأيام هي الحكم بيننا، فإذا رأينا نتيجة من تكون عدم الفلاح علمنا أنه هو المبطل، وإذا رأينا من نتيجته الفلاح علمنا أنه على الحق.

قال ابن عاشور: «لما نفى موسى عن آيات الله أن تكون سحراً ارتقى فأبان لهم فساد السحر وسوء عاقبة معالجه تحقيراً لهم فالمعنى: هذا ليس بسحر وإنما أعلم أن الساحر لا يفلح، أي لو كان ساحراً لما شنع حال الساحرين، إذ صاحب الصناعة لا يحقر صناعته لأنه لو رآها محقرة لما التزمها».

من دروس الآية ٧٧:

١- الإيجاز أحد أهم أوجه الإعجاز لهذا القرآن العظيم المعجز المعجب المدهش.

٢- الاستفهام أحد أساليب التشويق ولفت الانتباه التي استخدمها القرآن.

٣- النظر في العواقب مهم جداً للحكم على الأشياء.

٤- الفلاح لن يكون إلا لمن كان مع الحق وعلى الحق.

٥- لن يكون للسحر ومن يعتمده فلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٦- السحر بضاعة المفاليس الذين لا يعتمدون العقل والقانون الكوني والسنن الإلهية ومن عجب أن ينتعش في زمن العلم كما كان في زمن الخرافة.

الآية ٧٨:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨)

الربط والمناسبة: المساجلة بين موسى وفرعون وملئه مستمرة وهذا رد على الرد من قبل ملأ فرعون يردون على موسى بتحجر وجود ولا عقلانية.. فالآيات نسق.

وهذه الآية ١٦ كلمة و٧٨ حرفاً وترتيبها ١٤٤٢.

المعنى: قالوا أجئنا: ردوا على الاستفهام باستفهام.. واستفهامهم إنكاري كاستفهامه عليه الصلاة والسلام.

لكن شتان بين من يستنكر الجمود والجحود ومن يستنكر الحق الثابت ويتعصب لهذا التقليد الجامد للأباء.

لتلفتنا: لم ترد هذه الكلمة إلا مرتين أخريين بصيغة ﴿لَتُلْفِنَا﴾ وهما في سورة هود والحجر وكتلتهما في قصة لوط عليه السلام. واللفت: التحويل كالقتل والنقل والتغيير، وعكس الاتجاه. وهو هنا مستعمل مجازاً في التحويل عن العمل أو الاعتقاد، فأصله استعارة تمثيلية ثم غلبته حتى صارت مساوية للحقيقة.

عما وجدنا عليه آباءنا: أي من الدين والاعتقاد. وتقديس الآباء وتقاليدهم دأب دأبت عليه الأقوام في دفاعها عن باطلها، وليس محتكراً للعرب فقط، وإن كانوا قد اشتهروا بالآبائية وأكثر شعراؤهم من قولهم (أولئك آبائي) لكن هذا قاسم مشترك بين الأمم والأقوام فقد قال القرآن: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا

قَالَ مَرُوءَاهُ إِنَّآ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمْرٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وما هو انطلاق من تقدير للآباء ولكنه إبقاء على مصالحهم، واستمرار لنفوذهم وكره منهم للتغيير والإصلاح وهو آخر ما يخطر لهم ببال.. وهم يجرضون الدهماء عن طريق استثارة شعورهم نحو الآباء، والتعصب لهم. قال في صفوة البيان: «تلفتنا: لتصرفنا وتلوينا واللفت: الصرف واللي يقال: لفته يلفته لفتاً: صرفه إلى ذات اليمين أو الشمال ولفته الشيء وفتله: لواه عنه وصرفه. أ. هـ».

وتكون لكما الكبرياء: إنكم يا موسى وهارون، يقول ملأ فرعون، ويردد القوم وراءهم، إنكما تريدان أن تنزعا السلطة ومقاليد الأمور من اليد التي تمسك بها وتحولها إلى أيديكما أنتما، وتكون لكما الكبرياء التي لأصحاب النفوذ، لتتحول لكما. والكبرياء: العظمة وإظهار التفوق على الناس.

بمعنى أنهم يوافقون على كبرياء المجرمين ولا يقبلون انتقال النفوذ إلى أيدي الشرفاء الصادقين.

وهذه التهمة مكررة عبر الزمان، أن هؤلاء الداعين للإصلاح والتغيير يريدون السلطة، وهل أنتم زهاد فيها أم منغمسون مستمتعون محتكرون مستفيدون؟

في الأرض: ظاهر كلمة الأرض عام ولكن المراد قطعاً الخصوص أي مصر.

وما نحن لكما بمؤمنين: والحال أنه لن نؤمن لكما على تقدير الواو واو الحال وإن كانت عاطفة فلا بأس، فعطفت موقف القوم على ما زعم إرادة موسى وأخيه من الاستئثار بالسلطة.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «أطلق الكبرياء على الملك لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا، ولاتصاف الملوك بالكبر والتكبر على الناس باستعبادهم وإذلالهم».

قال - سلطان العلماء - العز بن عبد السلام: ﴿لَتَلْفَنَّا﴾ لتلويْنَا، لفت عنقه: لواها، أو لتصدنا، أو لتصرفنا، لفته لفتاً: صرفه. ﴿الْكِرْيَاءُ﴾ الملك، أو العظمة، أو العلو، أو الطاعة^(١).

من دروس الآية ٧٨:

- ١- ما ظاهره تقديس للأبائية هو في حقيقته ترسيخ للانتهازية والمصلحية واستمرار للظلم والفساد والنهب.
- ٢- استثارة أخط ما في غرائز الإنسان من التعصب للرد على دعوات الإصلاح سلوك قديم متجدد.
- ٣- أن يكون النفوذ للمتنفذين الموجودين هذا لا اعتراض عليه لكن أن ينتقل إلى سواهم فهذا موضع المحاربة والنقد والتخوين والاتهام.
- ٤- العناد والإصرار والاستكبار أمراض نفسية تحول دون تقبل الحق ودعوات التغيير.
- ٥- دعوة الإسلام على أيدي الرسل جميعاً إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده للعالمين وتنحية الأرباب الزائفة.
- ٦- يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إذاً فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة التي يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادي وهو الخوف على السلطان في الأرض، هذا السلطان الذي يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة».

(١) العز بن عبد السلام، تفسير القرآن (مختصر تفسير الماوردي)، ج ٢، ص ٧٣.

الآية ٧٩:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (٧٩)

الربط والمناسبة: في الآيات الأربع السابقة كان السجال بين موسى وملا فرعون، ولم نسمع لفرعون قولاً، وفي هذه الآية سجلت ما قال فرعون وجاء كلامه موجزاً: ﴿أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ فنسق الآيات متصل أتم اتصال.

وهذه الآية ٦ كلمات و ٢٥ حرفاً وترتيبها ١٤٤٣.

المعنى: وقال فرعون: الواو: إما استنافية وهي التي تأتي جواباً على سؤال مقدر نشأ من الكلام السابق، فكان سائلاً سأل: هذا كان رد فعل الملاء فماذا كان رد فعل فرعون؟ فجاء الجواب: وقال فرعون.

وإما عاطفة تعطف قصة على قصة وموضوعاً على موضوع.

أتوني بكل ساحر عليم: سور القرآن تتكامل ولا تتكرر في عرض القصة الواحدة، وأحياناً المشهد الواحد، فهنا لم يعرض السياق مجادلات فرعون، بينما عرضه سور أخرى كطه والشعراء.

وهنا يصدر أمره كفرعون فيقول ﴿أَتَأْتُونِي﴾ أي أحضروا لي.

بكل: الباء متعلقة بأتوني.

وفي قصة يوسف قال الملك في مصر عن يوسف: ﴿أَتَأْتُونِي بِدَسْتَلْطَهٗ لِنَفْسِي﴾ بعد أن قال أول مرة ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ﴾.

فلاحظ الصيغة الموحدة في خطاب الملوك والفراعين، ولاحظ أنه قال في قصة يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ وهنا قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لأن الحكم في مصر زمن يوسف كان مختلفاً عنه في زمن موسى. فتأمل.

وتأمل توحد الصيغة، مع اختلاف وصف الحاكم.. في البلد نفسه.

ساحر عليم: هو يعلم الحقيقة وأن النبوة شيء والسحر شيء آخر. ولكنه يكسب الوقت، ويدافع الحق، ويناور ويداور، ويلبس على الجماهير.. معتمداً على قلة التمييز وضعف الوعي، وإمكان خلط الأشياء.. وهو بهذه الكلمات يوحى إلى الجماهير أن ما ترونه هو السحر وسنرد عليه بسحر من مادته ومعدنه.

فإذا غلب سيجد تحريماً جديداً، كأن يقول: سحرتنا لم يكونوا على مستوى سحر موسى، وحاشاه، صلى عليه الله، وحاشا للأنبياء، ألم ثقل الكلمة نفسها عن خاتم الأنبياء: ساحر ومسحور؟!

قال ابن عاشور: «العموم في قوله ﴿يَكْلُ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾ عموم عرفي أي بكل ساحر تعلمونه وتظفرون به.

أو أريد ﴿يَكْلُ﴾ معنى الكثرة كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَكْلُ آيَةٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

من دروس الآية ٧٩:

١- القصص القرآني يتكامل بين السور ولا يتكرر فما يُجمل في موطن يفصل في آخر وتنفرد كل سورة بأشياء لم ترد في غيرها.

٢- فرعون يلبس على شعبه عن طريق الخلط بين النبوة والسحر، ولكنه يعلم في قرارة نفسه الحق.

٣- التفكير الغوغائي واللاعلمي ينسب ما يجهله إلى السحر.

الآية ٨٠:

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة طلب فرعون أن يأتيه بالسحرة وفي هذه سجل مجيء السحرة، وبينت الآية ما جرى بينهم وبين موسى عليه السلام. وهذه الآية ١٠ كلمات و ٣٩ حرفاً وترتيبها ١٤٤٤.

المعنى: فلما جاء السحرة: الفاء للتعقيب ولما تفيد أول حدوث الشيء فالكلمة تفيد المسارعة من وجهين، والجيء تفيد القرب، أي بعد جمعهم من مختلف الأقاليم، والإتيان بهم من أطراف القطر المصري عبر عنه بالجيء.

قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون: قال موسى عليه السلام لهؤلاء السحرة الذي حشدهم فرعون لنصرة باطله، قال: ألقوا الذي في جعبتكم، واطرحوا ما عندكم واثبتوا بالأعيكم وحيلكم، واخذعوا الناس كما تشاؤون، إنه واثق من ربه ومما عنده من قوة الحق الذي أكرمه به ربه.

قال ابن عاشور: «وإنما أمرهم موسى بأن يبتدئوا بإلقاء سحرهم إظهاراً لقوة حجته لأن شأن المبتدئ بالعمل المتباري فيه أن يكون أمكن في ذلك العمل من مباريه، ولا سيما الأعمال التي قوامها التمويه والترهيب. وقد ذكر القرآن في آيات أخرى أن السحرة خيروا موسى، وأن موسى اختار أن يكونوا المبتدئين».

من دروس الآية ٨٠:

- ١- قوة الحق عظيمة وإن بدا مجرداً.
- ٢- على حامل الحق أن يدرك بثقة وعمق قوة ما يحمله من الحق.
- ٣- الباطل أكثر هشاشة مما نظن ونتصور.
- ٤- اليقين جزء مهم من عدة النصر.

الآية ٨١:

﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا مَوْسَىٰ مَا جِئْتُهُم بِالسِّحْرِ إِنَّا اللَّهُ سَيِّئُ الْمَطْلُوعِ إِنَّا اللَّهُ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ

الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة يتحدث موسى السحرة أن يلقوا ما عندهم وفي هذه الآية تسجل إلقاءهم وماذا كان جواب موسى ورده على إلقاءهم، والآيتان هذه والسابقة مفتحتان بقوله: ﴿فَلَمَّا...﴾.

وهذه الآية ١٧ كلمة و٦٤ حرفاً وترتيبها ١٤٤٥.

المعنى: فلما ألقوا: حين ألقى السحرة ما عندهم أو في أول إلقاء السحرة سحرهم وما قدروا عليه، واجههم موسى.

قال موسى ما جئتم به السحر: قال موسى في الرد عليهم: قلت إن ما جئتم به سحر، والسحر ما جئتم به أنتم.. لا الحق الذي جئتم به.

إن الله سيبطله: إن الله سينقضه.. أي سيحبط ويبطل وينقض سحركم.

إن الله لا يصلح عمل المفسدين: هذا الجزء الختامي من الآية تعليل لما سبقه من إبطال سحرهم، وهذا الختام سنة إلهية كونية اجتماعية وقانون لا ينقض. ومن تأمل الواقع وجد هذا القانون، فالمفسدون محكوم على عملهم بالفساد وعدم الصلاح وعدم القبول والنهاية غير السعيدة.. فالشقاء ينتظرهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن عاشور: «وإنما كان السحرة مفسدين لأن قصدهم تضليل عقول الناس ليكونوا مسخرين لهم ولا يعلمون أسباب الأشياء فيبقوا آلة فيما تأمرهم السحرة، ولا يهتدوا إلى إصلاح أنفسهم سبيلاً».

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ أَي: يهلكه، ويظهر فضيحتكم، إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ لَا يَجْعَلُ عَمَلَهُمْ نَافِعاً لَهُمْ. وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ أَي: يظهره ويمكِّنه، بِكَلِمَاتِهِ بما سبق من وعده بذلك»^(١).

من دروس الآية ٨١:

- ١- ينبغي على حامل الحق أن يكون واثقاً بما يحمل وبما يملك.
- ٢- تكفل الله بنقض السحر وإبطاله.
- ٣- قوانين الله ونواميسه لا تتغير ولا تتحول.
- ٤- استخراج السنن من القرآن مهم جداً وضروري جداً.
- ٥- المفسدون لا يصلح الله عملهم.
- ٦- تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر.

الآية ٨٢:

﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمَتِيهِمْ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢)

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن نقض الله تعالى لسحر الساحرين، وأنه سيبتل عمل المفسدين، وفي هذه الآية بينت أن الله متكفل بإحقاق الحق بكلماته.. فالآيتان متكاملتان.

وهذه الآية ٧ كلمات و ٣٢ حرفاً وترتيبها ١٤٤٦.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ج ٢، ص ٣٤٣.

المعنى: ويحق الله الحق بكلماته: الحق وإحقاقه قضيتان، فالحق في قرآننا ثابت لكنه لم يتحقق في واقع المسلمين هذه الأيام اعتقاداً وعبادة كما أراد الله، وتشريعاً وقانوناً كما أراد، ودعوة لهداية الناس كما أراد، إذاً فالحق في ذات القرآن متحقق، ولكنه في واقع الناس لا بد من تحقيقه وتحقيقه.

والله متكفل كما أنه جعل الحق في قرآنه في ذات القرآن ومبادئه، فإنه سيحققه في الواقع الاجتماعي والإنساني والعالمي.

والحق في القرآن دائماً ثابت، لكن الله تعالى قال في سورة الأنفال سورة غزوة بدر: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّطَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ٥٠﴾ لِيُخَيِّطَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾.

فالحق أمر وإحقاقه في الأرض وفي الواقع أمر آخر.

ولو كره المجرمون: والمجرمون من يريدون أن يظل الباطل سائداً والحق غائبا ولاحظ أن ختام آيتنا هنا وختام ما في الأنفال واحد.

فمعركة الحق واحدة.. والنتائج واحدة.. وموقف الباطل من الحق عبر الزمان واحد موحد.. مقاومته والصد عنه، وجنائتهم على أنفسهم لأن الله متكفل بإحقاق الحق ولو كره هؤلاء المجرمون.

قال ابن عاشور: «أراد بالمجرمين فرعون وملأه فعدل عن ضمير الخطاب إلى الاسم الظاهر لما فيه من وصفهم بالإجرام تعريضاً بهم. وإنما لم يخاطبهم بصفة الإجرام بأن يقول: وإن كرهتم أيها المجرمون عدولاً عن مواجعتهم بالذم وقوفاً عند أمر الله تعالى إذ قال له: ﴿فَقُولْ لَهُمْ قَوْلًا نَبِيًّا﴾».

من دروس الآية ٨٢:

١ - الحق شيء وإحقاقه في الواقع شيء آخر ودونه سدود وصدود.

- ٢- الباطل نذر نفسه للصد عن الحق ألا يحق في الأرض.. وتعهد الله أن يحق الحق في حياة الناس والله غالب على أمره.
- ٣- المجرمون هم من يمانعون الحق أن يحق ويقىمون العقبات في وجهه ويكرهون ظهوره لأنهم بنوا وجودهم على الباطل.
- ٤- شهدت الآية بأن فريقاً من الناس هم المبتطلون والفاسدون والمجرمون يكرهون أن يروا الحق يُحق في الأرض والموت أهون عليهم من أن يروا الحق ظاهراً في الأرض، ولكن الحق سيتصر فليموتوا بغیظهم.
- ٥- ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ إن كراحتهم لا تعطل مشيئة الله ولا تقف دون آياته.
- ٦- الإحقاق: التثبيت: ومنه سمي الحق حقاً لأنه ثابت.

الآية ٨٢:

﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ (٨٢)

الربط والمناسبة: هذه الآية هي النتيجة لدعوة موسى لفرعون وللما وللقوم ولقومه، أن من آمن هم ذرية من قومه، وهو كلام يفيد القلة في العدد وأنهم من الفتية أو الشباب.

وهذه الآية ٢٢ كلمة و٨٧ حرفاً وترتيبها ١٤٤٧.

المعنى: فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه: أي فما كانت نتيجة الدعوة وثمرتها إلا إيمان عدد من فتية قومه، وما يلفت النظر أولاً صيغة الحصر والقصر بالنفي ﴿فَمَا﴾ وأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾. وهذا يفيد أن الجمة من الفريقين شعب فرعون

وشعب إسرائيل لم تؤمن باستثناء من ذكروا. ثم لفتة أخرى في هذه اللام في قوله تعالى ﴿لِئُوسَى﴾ فلم يقل مع موسى مثلاً فما وجه التعدية باللام، دون الباء مثلاً؟ هل لأن الفعل مضمن معنى فعل آخر كأن يكون اطمأن أو صدق أو غير ذلك ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَنَافِلَهُ، لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقوله: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَدْعَاكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدٌ كُفُّ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩].

من قومه: أي من قوم موسى، وهل يحتمل أن الهاء تعود إلى فرعون أي من قوم فرعون أرى أن هذا الاحتمال ضعيف، ودليلي أولاً: أقرب وأنسب مذكور هو موسى. وثانياً: لو كان المقصود من قوم فرعون فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيْهِمْ؟﴾ وثالثاً: قوله تعالى على لسان موسى في الآية التالية: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ...﴾.

وسؤال آخر على هذا الجزء من النص الكريم: وهل السحرة كلهم من بني إسرائيل فهم قد آمنوا.

والجواب: لا يتصور أن السحرة كلهم من بني إسرائيل بل الأقرب العكس، فإما كلهم أو جلهم من شعب فرعون، فهو لا يثق إلا بناسه.

فلماذا لم يذكر النص القرآني هؤلاء وأين مؤمن آل فرعون؟

والجواب: ربما يكون الكلام عن قوم موسى فقط، فما آمن منهم إلا فئة الشباب على خوف من الفتنة أن تلحق بهم على يد زعمائهم وعلى يد فرعون وجنوده.

وأما السحرة فشأنهم شأن خاص، فقد آمنوا بعد أن تجلّى لهم الحق بشكل قاطع ومعجزة ظاهرة، ومؤمن آل فرعون استثناء من قومه.

وخلاصة القول أن الحصر إضافي بمعنى أنه لا ينفي أن يكون غيرهم آمن، وإذا أردناه حصراً حقيقياً فيكون الحديث عن قوم النبي موسى لا عن الشعبين.. والله أعلم.

على خوف من فرعون وملأهم: نص ملفت، وخاصة كلمة ﴿وَمَلَأْنِيهِمْ﴾ فهم يخافون قادتهم كما يخافون من فرعون وجنوده وملئه.

فالمأ من بني إسرائيل يعلمون أن بقاءهم في مراكزهم مرهون بالتنسيق الأمني مع أجهزة فرعون، فإذا انقطع هذا التعاون انقطع المدد والرفد. وانتهت المصلحة والمنفعة والامتيازات.

أن يفنتهم: لم يقل أن يفنتوهم، فصحيح أن من يعملون كثر لكن من يتخذ القرار بالهجوم وإيقاع الفتنة من سجن وتعذيب وبطش وتنكيل إنما هو واحد، هو رأس الهرم في السلطة الفرعونية.

وأصل معنى الفتن والفتنة والفتون: إدخال الذهب النار لتنقيته، والفتنة تطلق على ما يحدثه المستكبرون على المستضعفين من أذى واضطهاد ليحملوهم على تحويل معتقدتهم أو إخفائه على أقل تقدير، فالفتنة التعذيب لأجل الإكراه على تغيير المعتقد وترك النهج القويم والاستمرار على النهج القديم الذي ارتضاه الزعيم وملأ الزعيم.

وإن فرعون لعال في الأرض: هذا كقوله في سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ لكن عبر هناك بالفعل علا، وهنا عبر بالاسم لعال، وهذا يفيد ما تفيده الجملة الاسمية من وصف حال وديمومة وضع واستمرارية نهج الاستكبار، والعلو هنا مرادف للكبر والاستعلاء كما قال عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ عَلَوْا كَبِيرًا﴾ وكما

قال عن إبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ والمقصود بالأرض لا العموم وإنما الخصوص أي أرض مصر، والسياق يحدد نفسه ويفسر ويوضح.

وإنه لمن المسرفين: كلتا الجملتين الختاميتين لهذه الآية مفتحة بأن وفي خبرها اللام المزحلقة المفيدة التوكيد، والإسراف تجاوز الحد في كل شيء، سواء في الإنفاق أو الطغيان أو المعاصي ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في موضع الحال فهي عطف على قوله: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ وهي تفيد معنى التعليل لخوفهم من فرعون، أي أنهم محقون في خوفهم، فبعد أن أثنى عليهم بأنهم آمنوا في حال شدة الخوف زاد فبين أنهم أحقاء بالخوف، وفي هذا زيادة ثناء على قوة إيمانهم إذ آمنوا في حال خوفهم من الملك مع قدرته على أذاهم».

قال الواحدي: «﴿فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ﴾ يعني: من آمن به من بني إسرائيل وكانوا ذرية أولاد يعقوب ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ ورؤسائهم ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يصرفهم عن دينهم بمحنة وبليّة يوقعهم فيها ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ متناول ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ حيث كان عبداً فادّعى الربوبية»^(١).

(١) الواحدي، الوجيز، ص ٥٠٥. قلت: وحصره المعنى في أولاد يعقوب لا يسلم ولا دليل عليه والنص

مطلق: ﴿مِّن قَوْمِهِ﴾.

من دروس الآية ٨٣:

- ١- الشباب هم عدة التغيير.
- ٢- ربما يظن أن الشيوخ أقرب للإيمان لأنهم أقرب إلى خط النهاية وهذا افتراض غير صحيح، فهم أبعد لتوغلهم في المعصية واستغراقهم فيها، ثم هم قد عست وقست عيدانهم، ثم هذا أوان حصاد ما زرعوا من نفاق وتملق وتسلق.. فلو آمنوا لحرمو الثمرة كما يتوهمون.
- ٣- كثيراً ما يعمل قادة المجتمع في الشعوب الواقعة تحت استعمار قوي أكبر منهم، كثيراً ما يعملون في خدمة المستعمر طلباً للمركز والحظوة، فيصبحون سوط عذاب على شعبهم.
- ٤- الفتنة إيقاع الأذى على الناس ليغيروا معتقداتهم. وهي إدخال الروع والاضطراب على العقل بسبب تسليط ما لا تستطيع النفس تحمله.
- ٥- الكبر من أخطر المعاصي ومن أشد المبعذات عن الهدى.
- ٦- الإسراف الإفراط في الشيء وتجاوز الحد فيه إن في النفقة أو المعصية أو التعدي على الناس.

الآية ٨٤:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُوبِ ٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾

الربط والمناسبة: يخاطب موسى في هذه الآية من آمن من قومه في الآية السابقة، فترتب عليهم تبعات الإيمان فالربط ظاهر واضح ففي الآيتين افتتاح بذكر موسى، وفي الآيتين ذكر القوم وفي الآيتين كذلك ذكر الإيمان.

وهذه الآية ١٢ كلمة و٥٢ حرفاً وترتيبها ١٤٤٨.

المعنى: وقال موسى يا قوم: يخاطب موسى عليه السلام في هذه الآية من آمن من قومه يبصرهم بتبعات الإيمان وتكاليفه وأن الإيمان يقتضي صبراً وتوكلاً واحتساباً.. ومن ظن الإيمان نزهة ليس يعي سنن الله، أفلا نذكر قول ورقة بن نوفل للنبي ﷺ حين كلمه عن إخراج قومه له وورقة مطلع على السنن من خلال دراسة الكتب، والنبي لا علم له بها بعد لعدم اطلاعه فيسأل «أومخرجي هم»؟

ولاحظ أن موسى ينادي قومه: يا قوم، وقد لاحظت أن موسى في الأمور الكبيرة ينادي القوم، وأحياناً يحولون الصغير من الطالب كبيراً كما قال المتنبي: «وتكبر في عين الصغير الصغار».

والنداء بهذه الصيغة مقصده التحجب للقوم واستجاشة العزمات للفعل وقطع المخاوف والترددات.

إن كنتم آمتم بالله فعليهم توكلوا إن كنتم مسلمين: وتأمل أن مطلبه يتلخص في كلمتين: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ وهو مطلب من بني إسرائيل عزيز كما قال الله لهم في فاتحة سورة الإسراء يطالبهم بمطلب واحد فقط وعلى لسان موسى أيضاً: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾.

ويبدو أن مطلب التوكل من بني إسرائيل صعب المثال، ونعود إلى كلمتي موسى في هذه الآية الكريمة، فقد أحاط مطلبه من جانيه بمجملتين شرطيتين من قبل ومن بعد.. وذلك لعلمه ببعدهم عن هذا المطلب لضعف إيمانهم، فالتوكل ثمرة الإيمان الشديد الشديد.

وملاحظة أخرى أنه بدأ بالإيمان: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وختم بالإسلام: ﴿إِن كُنتُمْ

مُسْلِمِينَ﴾.

وملاحظة رابعة أن المتوكل عليه دائماً يسبق التوكل والمتوكل.. أقصد منهجية تقدم الجار والمجرور على الفعل: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ وبالأستقراء ستجد أن هذا مطرد، وما ليس على القاعدة استثناء يقتضيه المقام والسياق.

والتوكل ثمرة للإيمان نعم لكنه مقتضى له كذلك.. أي أن صدق الإيمان يقتضي حدوث التوكل وتحققه وثبوته.. بحيث يدل ضعف التوكل على ضعف اليقين وضعف الإيمان.

والتوكل صحيح أنه أمر وطلب لكنه مكسب لمن أحسن التفكير، وهو امتياز فما أعظم أن يتولى الله كل أمورك وأن يتوكل هو وهو القدير الخبير بكل شؤونك وتفرغ همك أنت من حملها.. وليس معنى قلبي ألا نأخذ بالأسباب، هذه الثنائية التي طالما حيرت الناس، من يوم سأل الأعرابي النبي ﷺ: «ناقني بالباب هل أعقلها أم أتوكل؟» ويلخص النبي الكريم ﷺ موقف هذا الدين من هذه القضية ببسر شديد برفع التناقض بين هذه الثنائية التي تبدو في بعض الأذهان متناقضة، فيرفع الألف من «أو» المفيدة هذه الثنائية فيقول: «اعقل وتوكل» أو «اعقلها وتوكل» أو كما قال ﷺ.

وفي حادث الهجرة أو حدث الهجرة كان النبي ﷺ سيد المتسبين أي الأخذين بالأسباب، وسيد المتوكلين. فإذا استنفدت الأسباب توكلت على مسبب الأسباب ورب الأرباب سبحانه، فالتوكل عمل الجوانح والعمل المادي والتسبب عمل الجوارح، والجمع بينهما عنوان العمل الصالح.. فجوارح تعمل وجوانح تتوكل.. فأين يقع الخلل؟

وقد قال ابن تيمية رحمه الله في هذا المعنى كلاماً جميلاً مفاده: أن أغلب الناس متسبون أي آخذون بالأسباب وفريق منهم متوكلون وقل من جمع بينهما واستشهد بالآية ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ فكانه اعتبر هذا الجمع هو عنوان الشكر.

نعود لنص الآية الكريمة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ إن صدقتم في دعوى الإيمان بالله وتحققتم به صدقاً وحقاً.

فعلى هذا الإله الذي آمتم به أنه القوي اللطيف الولي ناصر الضعيف وآتمتم بسائر أسمائه وصفاته فالثمرة الطبيعية لهذا الإيمان أن ينتج التوكل ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ والفاء واقعة في جواب الشرط وقدم «عليه» على التوكل للاهتمام. ولو وكل شخص محامياً كفواً بقضيته قد شهد له الجميع بالكفاءة والخبرة والاطلاع العميق على القانون وحسن تدبير القضايا والتأني فيها، فإنه يرتاح باله، وتهدأ بلائله.. ويطمئن قلبه.. أنه وكل محامياً لم يخسر قضية كما قيل له.. فكيف بك أيها المؤمن وقد وكلت بقضايك وهمومك ومشاغلك رب الوجود الحليم الودود الحميد المجيد المحييط بكل شيء والقادر على كل شيء؟ فإذا وقع ما لم تتوقع فإنه يقع عليك برداً وسلاماً أن الله حكمة في الأمر.

فلا تظن أن التوكل حق إن جاءت الثمرات وفق المراد ووفق المطلوب والمتوقع، لذا فإن المؤمنين يهتفون من صميم قلوبهم في مواجهة من يناصبونهم الكيد والعداء وتدابير السوء: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ ولاحظ أنه لم يقل علينا، فكل ما يقع هو في النهاية لنا. والمؤمنون الذين وعوا هذه القضية لم تقعدهم يوماً ولم تعطل حركتهم كما فعل الاعتقاد الخاطئ بمسلمي الأعصر المتدهورة المتأخرة، إذ ظن من قبلهم أو قبل غيرهم أن التوكل والحركة ضدان لا يجتمعان.. وهذا من وساوس الشيطان، فمتى قعد الأول رضي الله عنهم؟ ومتى تباطأت حركتهم بداعي التوكل؟ بل انساحوا في الأرض سبلاً يجرف الباطل.. يجدوهم إيمانهم ويهدئ التوكل ثورات خواطرهم ويسكن هواجسهم ومخاوفهم فما أجمل هذا الدين بكل مفرداته، ومن أروعها بالطبع: التوكل.

إن كنتم مسلمين: أي مستسلمين خاضعين لأمر الله غير معترضين ولا متمردين ولا مترددين، فبدأ بالإيمان وختم بالإسلام وجعلهما حاضنة التوكل والدائرة التي تحوطه وتحيط به وتقويه وتحرسه. أي إن كان إيمانكم مسلم لله أي مخلص له غير شائب إياه بتردد في قدرة الله ولا في أن وعده حق.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «التوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام جبروت الطاغى فإذا هي أقوى وأثبت.

وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك وهو إسلام النفس لله خالصة والعمل بما يريد».

قال الشيخ محمد طه الدرة: «أي ثقوا بالله واعتمدوا عليه وسلموا الأمر إليه، فإنه ناصر أوليائه ومهلك أعدائه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ أي منقادين ومستسلمين لأمره وقضائه وقدره، وفي الآية دليل على أن التوكل على الله والتفويض لأمره من كمال الإيمان، وأن من كان يؤمن بالله فلا يتوكل إلا على الله لا على غيره».

قال القشيري: «يَبَيِّنُ أن الإيمان ليس من حيث الأقوال.. بل لا بد فيه من صدق الأحوال قصداً. وحقيقة التوكل توسل تقديمه متصل، ثم يعلم أنه بفضل سبجانه تحصل نجاته، لا بما يأتي به من التكلف، هذه هي حقيقة التوكل...»^(١).

من دروس الآية ٨٤:

١ - يحتاج التعامل مع النفس البشرية إلى إدراك المفاتيح التي تستعمل في التأثير في هذه النفس.

(١) القشيري: لطائف الإشارات ج ٢ ص ١١٢.

٢- خطاب القوم بندائهم بصيغة ﴿يَقَوْمُ﴾ كثر على لسان الأنبياء الكرام عليهم السلام والمقصد الاستجاشة وتخفيف الطاقات للعمل الذي فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

٣- التوكل مقتضى للإيمان وثمرة من ثمراته.

٤- التوكل بالمفهوم الإيجابي الدافع المحرك مطلب عزيز لفشو ثقافة السلبية والعجز والتعاس.. قديماً وحديثاً.

٥- تكرر الطلب إلى بني إسرائيل بالتوكل بل بإفراد الله بهذا التوكل فكانت النتيجة أنهم توكلوا على كل شيء وعلى كل أحد إلا على الذي طلب منهم أن يتوكلوا عليه سبحانه.

٦- المعززات التي استعان بها موسى عليه السلام خطاب التودد بصيغة ﴿يَقَوْمُ﴾ ثم إحاطة الكلمتين المقصودتين والمطلب الأوحد: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ من الجانبيين من قبل ومن بعد بتذكيرهم بإيمانهم وإسلامهم إن كانوا كذلك.

٧- لا بد من إيمان يرجع المخاوف ويردها ويطمئن القلوب ويثبتها على الحق الذي تنحاز إليه.

الآية ٨٥:

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة طلب موسى من قومه، وفي هذه الآية الاستجابة من القوم لقائدهم ونيهم عليه السلام، وتبدو كلماتهم المنيرة إما أنها قول قلة من خيارهم، وإما أنها استجابة في بادئ الأمر قبل أن يعرفوا حجم الخطر وحقيقة التحدي وغلاء التضحية.

وهذه الآية ١٠ كلمات و٤٧ حرفاً وترتيبها ١٤٤٩.

المعنى: فقالوا على الله توكلنا: الفاء هنا متفرعة عن الكلام السابق، وقد رد القوم بالصيغة ذاتها التي طلبت منهم ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فقالوا ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ مقدمين ما قدم النص في الطلب منهم.. دلالة على دقة الالتزام، ولا أقول حرفيته فالحرفية لا تحمد بعكس الدقة، والفاء في فاتحة الكلام تفيد مسارعتهم في الاستجابة.

ثم أردفوا توكلهم ببناء ربهم ودعائه سبحانه:

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين: وما أجل هذا الدعاء، وأما معناه فهو طلبهم من ربهم ألا يمكن الكافرين منهم والظالمين من فتنهم عن دينهم فيصبحوا بهذا الافتتان فتنة للظالمين فلا يؤمنون، لأن شعور المنتصر يعزز الباطل في نفسه، أرأيت إلى دولة إسرائيل في مهزلة ٦٧ المسماة النكسة وكيف أن انتصارهم السهل السريع الرخيص الحاسم الواسع الخطير النتائج تم بأقل التكاليف، فتعزز يقينهم أنهم على الحق، وهم على أبطل الباطل وفي المقابل تزلزل الصف الآخر والمعسكر الآخر، وعدم فهم السنن موقع في البلبال والاضطرابات النفسية والسلوكية والاجتماعية والثقافية، وقد رأيت كيف أن الصدمة شككت كثيرين وبعد قليل رجعوا إلى الله، وعلموا أن لا مهرب منه سبحانه وتعالى إلا إليه فزاد التدين بعد نكبة ٦٧ ونكبة ٨٢ ونكبة ٩٠ ونكبة ٢٠٠٣.. لكن بعد زلزال.

وأرى أن هذا الدعاء يدل على وعي وعمق فهم عند نخبة من تكلم منهم، وقد سجلها القرآن ببيانه المعجز الذي يغوص إلى أعماق النفوس وإنما هي كلمات قليلات.. ولكنها في الدلائل بالغات.

قال الزمخشري: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضع فتنة لهم، أي عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا، أو فتنة لهم يفتنون بنا ويقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا..

«فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا... تَبَرَأْنَا مِمَّا مَنَا مِنَ الْحَوْلِ وَالْمَتَّةِ، وَتَحَقَّقْنَا بِمَا مِنْكَ مِنَ الطُّوْلِ وَالْمَتَّةِ. فَلَا تَجْعَلُنَا عَرْضَةً لِسَهَامِ أَحْكَامِكَ فِي عَقُوبَتِكَ بَانْتِقَامِكَ، وَارْحَمْنَا بِلَطْفِكَ وَإِكْرَامِكَ، وَنَجِّنَا مِمَّنْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ فَأَذَلَّلْتَهُمْ، وَبِكَيْ فِرَاقِكَ وَسَمْتِهِمْ»^(١).

من دروس الآية ٨٥:

- ١ - النخب في كل قوم تقود خطاهم إما إلى خير وإما إلى شر.
- ٢ - نخبة بني إسرائيل في هذه الآية كانت طيبة.
- ٣ - بالصراع الاجتماعي تحل نخب محل نخب ويبدو أن الذين قال عنهم القرآن ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ كانوا على النقيض ممن تكلموا في هذه الآية.
- ٤ - الضعيف فتنة للقوي يزيده شدة وشراسة وعنفواناً، والقوي فتنة للضعيف يزيده ذلة وانكساراً وهواناً.
- ٥ - طيبة البشر أو غالبهم إما مالكة للقوة مستضعف - بالكسر - وإما عادمها فمستضعف - بفتح العين -.

الآية ٨٦:

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٨٦)

الربط والمناسبة: هذه الآية تنمة الدعاء وتكملة المطالب من رب العباد تلك المطالب التي توجه بها نخبة بني إسرائيل إلى الله تعالى فقالوا في الآية السابقة: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقالوا هنا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فتلك مقدمة طبيعية لهذه، وهذه تاليتها في نسق الآيات وفي الواقع.

(١) القشيري، لطائف الإشارات، ج ٢، ص ١١٢.

وهذه الآية ٥ كلمات و ٢٥ حرفاً وترتيبها ١٤٥٠.

المعنى: ونحننا: كلمة تشي بواقع صعب عدواني جائر ظالم يعرض حياة من يخالف تيار الفساد السائد، إلى الخطر إما بالسجن وإما بالقتل أو التعذيب، والقوم هنا يطلبون من الله النجاة من هذا الحال البئيس.

برحمتك: عاملنا برحمتك يا رب لأننا ضعفاء، وهذا دعاء يشي كذلك بحجم الانكسار، فأنت تدعو الله بأسمائه، بما يتوافق مع احتياجاتك أما رأيت إلى دعاء موسى في مدين ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَزَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

من القوم الكافرين: هم ظالمون وكافرون فمشاعرهم متحجرة وإنسانيتهم متحولة والمعاني والقيم لا تجد مسلكاً ولا سبيلاً إلى قلوبهم أو عقولهم، فما يمنهم من إيقاع الأذى بل البطش بنا إلا أن تتغمدنا أنت يا رب برحمتك، فتُنجينا من هؤلاء المعتدين الظالمين الكافرين. قال البيضاوي: «وفي تقديم التوكل في الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولاً لتجابه دعوته».

من دروس الآية ٨٦:

١- الانكسار أمام الله واستشعار الضعف والاضطرار من أهم أسباب الاستجابة.

٢- الدعاء سلاح وأي سلاح، وكما كان يقول الصالحون منا في الأعصر الخوالي: استعينوا بسهام الليل التي لا تخطئ يعنون الدعاء في قيام الليل.. ولهم في هذا كلام كثير جميل شعراً ونثراً.

٣- إن تجرد الضعيف من سلاح الدعاء والرجاء فهو الانتهاز.

٤- قسوة الإنسان على أخيه الإنسان حين يتوحش بتملك القوة وحشية تهون أمامها وحشية الوحوش والكواسر.

- ٥- تجرد الإنسان من الإنسانية ومن القيم التي ترتقي وتضبط هذه الإنسانية وإيقاع تصرفاتها تحوله إلى جحيم بحق نفسه وإخوانه في الإنسانية.
- ٦- المؤمن لا يتمنى البلاء ولكن يثبت عند اللقاء.

الآية ٨٧:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧)

الربط والمناسبة: ألححت الآيات السابقة إلى احتمال وقوع المزيد من الأذى على بني إسرائيل من خلال دعوة موسى قومه إلى التوكل ومن خلال دعاء بني إسرائيل بالآلا يجعلهم الله فتنة للظالمين وأن ينجيهم من الكافرين.. فهي إشارات واضحة في الآيات الثلاث السابقة إلى احتمال بل تأكد وقوع العذاب، وفي هذه الآية الإجراءات التي أمر الله نبيه موسى أن يتخذها.. لا تمنع العذاب ولكنها قد تخففه وترسم خطة مضادة للنجاة منه والفرار منه.

وهذه الآية ١٦ كلمة و ٨٤ حرفاً وترتيبها ١٤٥١.

المعنى: وأوحينا: الواو عاطفة أو استئنافية، والإيماء الإخبار والإعلام وله عدة صور، ولكنه في حق الأنبياء غالباً ما يكون بوساطة إخبار الملك الموكل بنقل الرسائل وهو جبريل عليه السلام.. فهو رسول الله إلى كل رسل الله، وقد يكون بغير ذلك من طرق الإيماء.. والله أعلم. وأضاف الإيماء ونسبه إلى نون العظمة لتعظيم شأنه.

إلى موسى وأخيه: لم يذكر اسم هارون في هذه الآية اكتفاء بذكره في الآية ٧٥ ولأن القصة هنا موجزة نسبياً، ولم يكتف بذكر الإيماء إلى موسى لأهمية الأمر فيما

أرى، ولأن الموقف يقتضي أن يتحمل الجميع كامل المسؤولية، ثم كان الإجماع؟ فسرتة ﴿أَنْ﴾ وما بعدها.

أن تبوء لقومكما بمصر بيوتاً: كل الناس يسكنون بيوتاً بدءاً من بيوت الصفيح والعشوائيات إلى الفلل والقصور الشاهقات بالربوات.
فما معنى هذا التوجيه وما مقصد هذا الأمر؟

أرى والله أعلم أن المطلوب التجمع تحضيراً ليوم المغادرة، فلا يبقى بنو إسرائيل موزعين في الأقاليم والمحافظات والنجوع والبنادر والكفور والقرى والعزب والمضارب والمدن.. ولكن فليجتمعوا في أماكن متقاربة، ليسهل استنفارهم والتحرك بهم للخروج الكبير من مصر.

وهذه الآية تكذب دعاوى بني إسرائيل عن أعدادهم الموهلة وقت هذا الخروج إذ يزعمون أن الرجال فقط كانوا ستمئة ألف، فما شأن الأطفال والنساء والعجزة من القوم، فهم على هذا لا أقل من أربعة إلى خمسة ملايين، وهو ما يكذبه العبري ابن خلدون سابق زمانه، فيحسب تكاثرهم مذ كانوا عائلة يعقوب عليه السلام وأولاده إلى الخروج بحسب ما قالوا هم من عدد السنين ومن عدد الأجيال.. فيرى أنه من المستحيل أن يكونوا كما زعموا.. وبني إسرائيل عندهم «عقدة النقص»، فهم دائماً يزيدون أعدادهم فراراً وتخلصاً من عقدة الشعور بالأقلية.. فقتلى الهولوكوست ٦ ملايين لا يقبلون حذف واحد، بل هم رقم صحيح بلا كسور.. وعندما ناقشهم جارودي علمياً بحسب مزاعمهم هم عن عدد الأفران ومدة استعمال الغاز واستنتج أنهم يستحيل أن يزيدوا على ستمئة ألف، وهم فقط أضافوا صفراً.. أقول عندما ناقشهم وفئد وأنطلّ مزاعمهم لم يقارعوه دليلاً بدليل وحجة بحجة وبينه وبينه رأياً برأي ومنطقاً بمنطق، وإنما لجأوا إلى المحاكم المنحازة لهم

والمسيسة فحوكم المفكر الكبير وحكم وحرم من أن ينشر في أي دورية أو أن تنشر له دار نشر كتاباً وأن تضع مكتبة كتاباً من كتبه في مقتنياتها أو واجهاتها أو أرففها.

وعندما ناقشهم المؤرخ الإنجليزي أرفنج وهو أستاذ جامعي أكاديمي محترم وباحث مجّد عكف ١٧ سنة على دراسة وثائق الهولوكست واستبعد تماماً هذا العدد، وإن كان يدين الهولوكوست، وهذا بالطبع ما لا يستطيع غيره أحد وإلا ذاق الهوان، هذا المؤرخ عندما أعلن رأيه حوكم وحكم بالسجن ٥ سنوات كما أذكر ودفع غرامة ٥ ملايين باوند ومصادرة كتبه. هذا في بلاد الحضارة الغربية، وقد حوكم هذا الإنجليزي في النمسا ولم تعترض بلده بريطانيا، لأن الأمر يمس من يحكمون العالم.. فكيف يجروّ أحد على التدخل؟!!

ونعود إلى موضوعنا بعد هذا الاستطراد. فالأمر بسكنى البيوت تحصيل حاصل، وإنما مراده بيوتاً متقاربة يمكن التواصل بينها وسرعة نقل المعلومة أو الخبر.. واليهود ما زالوا وسيظلون في كل مكان يسكنون أحياءهم الخاصة ويتجمعون في «غيتوات» (جمع غيتو أي منطقة مغلقة معزولة عليهم خاصة بهم).

واجعلوا بيوتكم قبلة: وهذه تحتاج إلى تأمل، فهل معناها أن يجعلوا بيوتهم مصلياتهم أو مصلياتهم بيوتهم، وكثيراً ما تثير دور العبادة حساسيات عند المتطرفين، وهذا ما يعاني منه المسلمون في الغرب هذه الأيام مع بروز اليمين المتطرف في كل أوروبا.. وظهور القوميين المتعصبين والتدين المغلق المتشدد بين الأوروبيين وإن ظن العالم أن أوروبا هي رمز الانفتاح. وأسند فعل ﴿وَأَجْعَلُوا﴾ إلى ضمير الجماعة لأن ذلك الجعل من عمل موسى وأخيه وقومهما إذ كل أحد مكلف بأن يجعل بيته قبلة.

ويكون المعنى «قبلة» أي وجهة للقاصد من بني إسرائيل من المرحلين من سائر الأقاليم حتى يتم إيواءهم؟

وإن كان يرجح لدي المعنى الأول ولا أمتنع الثاني، ولا أمتنع الجمع بينهما والله أعلم.

وأقيموا الصلاة: حافظوا على صلواتكم وأقيموها بأركانها وروحها كما يرضى ربكم ليرضى عنكم ربكم، فالصلاة عونكم ومددكم ولذا قال الله لكم في سورة البقرة ﴿وَأَسْعِيثُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وأوصانا بالوصاة نفسها بالصلاة إذ قال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وعندما حمل النبي العظيم الدعوة أوصاه ربه بالصلاة والقيام بالليل ليستمد من الله من خلال الصلاة بين يديه، يستمد العون والمدد لمواجهة الصعاب: ﴿فَوَاللَّيْلِ لَا قَلِيلًا ۖ ۝٢ يَصْفَهُ ۖ وَأَوَاقُصُ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ أَوْزِدَ عَلَيْهِ وَرَثِلَ الْقُرْءَانُ رَثِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝.

فالصلاة مما يهون الصعاب ويذل العقبات ويقوي المعنويات ويشحن الروح بالطاقات والإنسان روح والروح روحها الصلوات وحياتها العبادات وغذاؤها القربات.. فإذا انقطعت الإمدادات فالروح إلى موات ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَتْهُ ۝.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ۝.

ويشر المؤمنين: التبشير والاستبشار والأمل والرجاء كلها مطالب غالية مهمة فاليأس قاتل بل هو أخطر عدو بل هو الكفر بعينه: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ۝.

واليأس وانعدام الأمل وإغلاق نافذته أقصر الطرق إلى الهزيمة والانكسار والتهدم والانهار، ولذلك فإن الذين يشيعون اليأس وينشرون الإحباط هم رمز الخراب، وهذه خطة قديمة لجأ إليها المنافقون في أخطر المواجهات: غزوة الأحزاب

عندما قالوا: «يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا» «مفيش فايدة» على رأي إخواننا ينقلون عن سعد زغلول وكأنها حكمة بالغة، وهي كلمة كالطعنة في القلب قاتلة.

ولذا كان نهج نبينا عليه الصلوات التبشير والاستبشار وبث روح الأمل والتفاؤل والثقة واليقين، والآيات في هذا المعنى كثيرة يكفي أن تذكر من سورة الأحزاب نفسها: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٨﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٥٩﴾ وَنَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ فقد جمع له ما بين ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ والفعل الأمر ﴿وَنَشَرِ﴾.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «تلك التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات وبخاصة قبل المعركة والتجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة وأن الأداة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة.

قال في صفوة البيان: «تبوء»: أي اتخذنا لهم مباءة، أي بيوتاً بمصر يسكنون فيها، يقال: بوات له مكاناً: سويته وهيأته له، وتبوأ المكان: اتخذ مباءة، ومنه: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

واجعلوا بيوتكم قبلة: أي مصلى تصلون فيها سراً بعد أن خرب فرعون كنائسكم، حتى تأمنوا وتظهروا على فرعون وقومه. أ. هـ.

وأقول تعليقاً على كلام الشيخ مخلوف رحمه الله: قوله: «سراً» زيادة على النص، وكلمة قبلة ذات احتمالات ومصليات واحد منها.

وقوله: خرب فرعون كنائسكم: زيادة أخرى على النص، وأما الكنائس فهي للنصارى، والكنس لليهود، ولا ندري وقتها ما كان اسم معابدهم.

ثم قوله: حتى تأمنوا وتظهروا.. زيادة أخرى على النص ولعل ما قلناه من توجيه الآية بمعنى التجمع لسهولة الجمع أوفق للنص، والله أعلم.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف نوع الخطاب فثنى أولاً ثم جمع ثم وحد أخيراً؟ قلت: خطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوا لقومهما بيتاً ويختاراهما للعبادة وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها والمبشر بها».

قال البغوي: «تَبَوَّأَ فَلَأَن لِّنَفْسِهِ يَتَبَوَّأُ وَمَضْجَعًا إِذَا اتَّخَذَهُ، وَبَوَّأَهُ أَنَا إِذَا اتَّخَذْتُهُ لَهُ، ﴿وَجَعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسَرِينَ: كَانَتْ بُيُوتُ إِسْرَائِيلَ لَا يُصَلُّونَ إِلَّا فِي كَنَائِسِهِمْ وَيَجْعَلُهُمْ، وَكَانَتْ ظَاهِرَةً، فَلَمَّا أُرْسِلَ مُوسَى أَمَرَ فِرْعَوْنَ بِتَخْرِيبِهَا وَمَنْعَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فَأَمَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا مَسَاجِدَ فِي بُيُوتِهِمْ وَيُصَلُّوا فِيهَا خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ، هَذَا قَوْلُ إِبرَاهِيمَ وَعِكرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: خَافَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ أَنْ يُصَلُّوا فِي الْكَنَائِسِ الْجَامِعَةِ، فَأَمَرُوا بِأَنْ يَجْعَلُوا فِي بُيُوتِهِمْ مَسَاجِدَ مُسْتَقْبِلَةَ الْكَعْبَةِ، يُصَلُّونَ فِيهَا سِرًّا. مَعْنَاهُ: وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ^(١). قلت: وكل هذا من التزيد على النص ومصدره الإسرائيليات وإنما ذكرتها لأردها فلا تعتنق إن قرئت في مصادر أخرى!

من دروس الآية ٨٧:

١- التخطيط وأهميته في حياة الأفراد والأمم والقادة والشعوب.

٢- القادة التاريخيون هم من يصنعون التاريخ.

(١) البغوي، معالم التنزيل، ج ٤، ص ١٤٦.

٣- الأنبياء هم أعظم القادة، ومن يفصلون الدين عن الحياة يظنون أن الأنبياء وعاظ.

٤- التجمع قوة، ورص الصفوف مهم في تحقيق التغيير والإنجازات الاستراتيجية.

٥- الدين هو محرك التغيير في العالم.

٦- الاستبشار منهج في التغيير والياس أقصر السبل لبقاء الخراب.

الآية ٨٨:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة الإحياء إلى موسى من الله بأن يستعد وقومه للمرحلة القادمة، وفي هذه الآية دعاء من موسى إلى الله أن يطمس على أسباب علو فرعون من مال وسلطة.. لأنهم ساموا المؤمنين سوء العذاب.

وهذه الآية ٢٩ كلمة و١٣٠ حرفاً وترتيبها ١٤٥٢.

المعنى: وقال موسى: في الآية السابقة كما قلنا في المناسبة وحي من الله نازل إلى موسى، وفي هذه الآية دعاء من موسى صاعد إلى الله تعالى، يشكو من بطش فرعون ويدعو الله بأن يسلبه أسباب قوته التي يسخرها في الأذى وتعذيب المؤمنين، وعبر بقوله: ﴿وَقَالَ﴾ بواو الاستئناف أو العطف ليفيد أننا أمام مشهد قد يكون بعيداً زمنياً عن سابقه.. من قبل أو من بعد: ربنا إنك آتيت فرعون وملاه زينة

وأموالاً: ينادي موسى ربه ويدعوه ويناجيه بدون ياء النداء فيقول: ربنا، ولم يقل رب، لأن الأمر عام والخطب شامل وهو يتكلم باسمه واسم الشعب كله لا في مسألة خاصة.

إنك آتيت فرعون وملأه: إنك يا مولانا أعطيت فرعون والحاشية والبطانة الحبيطة به.. زينة وأموالاً: وقدم الزينة على الأموال وهي ثمرتها أي الزينة المترتبة على الأموال، لأنه تكلم عن النتيجة والثمرة والنهاية.. وأموالاً: ونكرها ونكر زينة ليضخمها وهي كذلك في الواقع أي زينة عظيمة وأموالاً كثيرة. والزينة: ما يتزين به الناس وما يحسن في أنظارهم من طرائف الدنيا كالحلي والجواهر والمباني الضخمة.

ربنا ليضلوا عن سبيلك: لا يتصور أن اللام في ليضلوا هي لام التعليل، وإنما هي لام العاقبة والضرورة، بمعنى أنها انتهت إلى اتحاذها وسيلة للصد عن الدين وحرف الناس عن اليقين، ومحاربة دعوة توحيد رب العالمين.. وليظل الناس غارقين في الشرك المهين، الذي يستعبدهم للسلطين والتمولين والمتنفذين.

ربنا اطمس على أموالهم: هذه المرة الثالثة التي يقول فيها موسى هذه الكلمة المباركة داعياً متضرعاً لمولاه: ﴿رَبَّنَا﴾ وهذه المرة يطلب من الله أن يطمس على هذه الأموال، الطمس والإخفاء، وهناك أشكال من الطمس لا تنتهي.. فانهايار العملة، وضرب الأسواق المالية بلغة العصر، والركود الاقتصادي، وتوقف النمو، وخراب المحاصيل بالآفات والحرائق والفيضانات وغيرها، والتفكك السياسي يسقط العملة، والصور كما قلت لا تعد.

واشدد على قلوبهم: اشدد وطأتك عليها بتقسيتها مزيداً حتى لا تفتح على أنوار الإيمان فتقبض على ما هي عليه من كفر وشرك فتذوق العذاب المهين المخلد

صاحبه فيه إلى ما لا نهاية. والمعنى: أدخل الشدة في قلوبهم، لأن قساوة قلوبهم وشراسة نفوسهم لا تذللها إلا الآلام الجسدية والنفسانية.

فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم: الرسل والدعاة أكبر أمانيتهم أن يؤمن الناس، فكيف يدعون على الناس ألا يؤمنوا؟ إنهم لا يدعون على الناس، ولكنهم يدعون على من يفتنون الناس أن يتزاح كابوسهم بأن يقبضهم الله على كفرهم ليدوقوا العذاب. وهذا الدعاء من شدة الألم، فالرسول لا يلام إنما يلام من تسبب في أن الرسول الرحمة يدعو هذا الدعاء.

ألم يسجل الله أن أرق الرسل داود وعيسى دعوا الله بلعن بني إسرائيل وهم شعبهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

وقد أجيبت الدعوة وحصل ما طلبه موسى بالخدافير وسنرى تحققه بعد آية فقط.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «وجود النعمة في أيدي المفسدين لا شك يزعزع كثيراً من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار وأنها كذلك ليست شيئاً ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة».

وقال في صفوة البيان: «اطمس على أموالهم: أهلكها أو امح أثرها، يقال: طمس يطمس ويطمس طموساً: درس وامحى أثره، واشدد على قلوبهم: اربط عليها واطيع وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، من الشد على الشيء للاستيثاق منه».

قال الزمخشري: «ذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبياناته عرضاً مكرراً، وردد عليهم النصائح والمواعظ زمناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأنذروهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورأهم لا يزيدون على

عرض الآيات إلا كفرأ واستكباراً. لم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي، أو علم ذلك بوحي من الله، اشتد غضبه عليهم وأفرط مقتته وكراهته لحالهم فدعا الله عليهم.

قال السمرقندي: «أهل مصر لما عَذَّبُوا بالطوفان والجراد والسنين، قالوا: ﴿لَيْنَ كَشَفْتَ عَنَّا الْإِجْرَ لَتُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، ثُمَّ نَكثُوا الْعَهْدَ وَلَمْ يُؤْمِنُوا، فغضب موسى عليهم، ودعا الله تعالى عليهم، وقال: رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ يَعْنِي: أعطيت فرعون وملاة زينة، يعني: الأشراف من قومه أعطيتهم زينةً وأموالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا أَي: ربنا أعطيتهم ليضلوا عَنْ سَبِيلِكَ يعني: عن دينك الإسلام... رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ... أهلكها. وهو من قولك: طمس الطريق إذا عفى ودرس.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَي اقسها. ويقال: اطبع قلوبهم وأمتهم على الكفر، ولا توقفهم للإيمان يعني: لكي لا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ وهو الغرق. فدعا موسى عليه السلام وآمن هارون^(١).

من دروس الآية ٨٨:

- ١- الرسل رحمة، فمتى دعوا على قومهم أو على من يدعونه، فلأنه يكون قد تجاوز كل الحدود في الأذى والبطش.
- ٢- الرسل بشر ولهم طاقة تحمل.
- ٣- المال بيد المفسد أداة للفساد والبغي والعدوان.

(١) السمرقندي، بحر العلوم، ج ٢، ص ١٢٩. وقوله دعا موسى وآمن هارون زيادة على النص لا دليل عليها.

- ٤- قسوة القلب تمنع صاحبها من الإيمان وموسى يدعو على فرعون بأن يزداد قسوة حتى يحرم الإيمان ليكون مصيره عذاب جهنم.
- ٥- الدعاء من المظلوم لا يرد فكيف إذا كان رسولاً ومن أولي العزم.
- ٦- القوة التي يمنحها المال لأصحابه يجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم.
- ٧- نادى الرسول الله بوصف الربوبية تذلاً لإظهار العبودية.

الآية ٨٩:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

الربط والمناسبة: في الآية السابقة دعاء موسى إلى ربه وفي هذه استجابة الرب دعاء عبده.

وهذه الآية ١١ كلمة و ٥١ حرفاً وترتيبها ١٤٥٣.

المعنى: قال: أي ربه تعالى دون حاجة للنص والتصريح فمن يجيب الدعاء إلا الله؟ ثم إن كلمة ربنا قد أعيدت ٣ مرات في الآية السابقة فما الحاجة إلى إعادتها؟

قد أجيب دعوتكما: قد، للتحقيق، ودخلت على الماضي فزادته قوة وتوكيداً، أجيب: عبر بالماضي ليدلل على تحقق الأمر وثبوته، وإن كان سيحدث في المستقبل، تماماً كقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ...﴾ وقال دعوتكما ولم يقل دعوتك مع أن الآية سجلت أنه هو الداعي لأن موسى عليه السلام إنما يتكلم بلسان الاثنين وهما يتكلمان باسم الشعب المقهور.

فاستقيما: الثبات على المنهج والمثابرة وعدم التحول أو التزحزح، ومواصلة السير على ذات الطريق من الدعوة والتحمل.

والاستقامة جامعة لجميع خصال الخير والصلاح.

والأنبياء رمز الاستقامة ومع هذا فإن الرب الجليل بأمر عباده حتى الأنبياء بما يشاء، ألم يقل لخير الأنبياء والمرسلين: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...﴾ وقال له: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ...﴾.

ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون: الواو عاطفة عطف هذه الجملة على ﴿فَاسْتَقِمَّ﴾، فأكّد أمر الاستقامة مرتين مرة أمراً بها مباشرة ومرة نهياً عن نقيضها، وهو اتباع سبيل المجرمين الذين لا يعلمون.

وكنى بالرسولين عن أمتهم، فهما رمز الأمة، واستقامة الأمة من ورائهما مطلوبة لتحقيق التمكين، وإلا فإن استقامة الرسولين وحدهما لا تحقق مطلب التمكين كما حدث في دخول الأرض المقدسة أعني النكوص عن دخولها حيث قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ...﴾.

وعبر عن الكافرين والظالمين بوصف ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وكثيراً ما عبر القرآن عن المؤمنين بالذين يعلمون ومنه: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ...﴾. وكثيراً ما جمعهما معاً ومنه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ...﴾.

وعبر عن طريق الكافرين والذين لا يعلمون بالسبيل، ويمكن أن يقصد بها سبيل الخير وسبيل الشر والمقصود هنا بالطبع سبيل الشر. وبهذه الآية الكريمة ينتهي الربع السابع من الجزء الحادي عشر.

وهذا ختام للربع ملائم جداً.. حيث يتدئ الربع بعده بمجازة بني إسرائيل البحر ونجاتهم وغرق فرعون لتبدأ فصول قصة جديدة.

فهو تقسيم مناسب ملائم متلائم متناسق.

ثم قال الله تعالى: «فَاسْتَقِيمَا أَي: قال لموسى وهارون: فَاسْتَقِيمَا عَلَى الرِّسَالَةِ والدَّعْوَةِ واستقيما على ما أمرتكما وَلَا تُتِّعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ يعني: طريق فرعون وآله من أهل مصر».

من دروس الآية ٨٩:

١- كثيراً ما يعبر بالماضي عن المستقبل القريب لإفادة التحقق وقرب هذا التحقق ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾.

٢- نكرر أن الدعاء صلة بين العبد وربّه، وأنه سلاح، وأنه عبادة، وأنه سهام نافذة لا ترد، لكن للدعاء المستجاب شروطاً لا بد من توافرها وفي مقدمتها الأخذ بالأسباب ثم الدعاء.. والدعاء مع التيقن من الاستجابة.

٣- الاستقامة على منهج الله مطلب عزيز ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٤- من صور التوكيد للمعاني الأمر بالشيء والنهي عن نقيضه ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا

تَتَّبِعَانِ﴾.

٥- ربما وقع في سورة يونس من الكلمات ذوات المد اللازم الكلمي المثلث ما ليس في سواها وهذا له دلالة بطبيعة الحال.

٦- العلم والإيمان من أصل واحد ومنيع واحد ومشكاة واحدة وكثيراً ما عبّر القرآن عن الإيمان بالعلم والعكس، وما ذاك إلا لعظيم قدرهما معاً: العلم والإيمان.

٧- إن إجابة الله دعوة عبده إحساناً للعبد وإكرام وتلك نعمة عظيمة تستحق الشكر عليها. وأعظم الشكر طاعة المنعم.

الآية ٩٠:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُمُ الْفِرْعَوْنُ قَالَ أَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية مفتتح فصل جديد في حياة بني إسرائيل وقصة موسى مع فرعون ومع قومه.. وفي السابقة قال الله لموسى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا...﴾ وهنا في هذه الآية تحقق هذه الإجابة ونجاة موسى وقومه وغرق فرعون وملئه، وإيمانه بعدما رأى العذاب الأليم كما دعا موسى.

وهذه الآية ٢٧ كلمة و١١٨ حرفاً وترتيبها ١٤٥٤.

المعنى: وجاوزنا بني إسرائيل البحر: تكرر هذا النص في سورة الأعراف ١٣٨ لكن اتفقت بدايات النص واختلف ما بعده فهنا في يونس أعقب هذا مشهد غرق فرعون وهو لم يتكرر في القرآن، وهناك أعقب هذا النص مشاهدة بني إسرائيل لقوم

يعكفون على أصنام فطلبوا أصناماً مثلهم.. فلا تكرر إذا وإنما هو تشابه لفظي مع تنوع في العرض.

والمجاورة: العبور والانتقال ونحن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاتنا. ومجاورة بني إسرائيل عبورهم من الضفة الغربية للبحر (الأحمر) إلى الضفة الشرقية منه؛ إن أثبتنا أن هجرتهم كانت في هذا المكان وهو ما نرجحه ولا أريد القول نقطع به.

ونسب مولانا تجاوزهم إليه سبحانه إذ قال: ﴿وَجَوَزْنَا﴾ فهو لفظ في منتهى الدقة، فمن جمد قاع البحر وأرضيته لعبورهم؛ ومن أوقف الماء بعكس خاصيته من السيولة؟ إنه الله، ومن الذي أعاد البحر إلى طبيعته عند عبور فرعون بعد مرور آخر نفر من بني إسرائيل؟! إنه الله إذاً هو الذي جاوز بهم البحر، وصدق ربي في كل كلمة: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾.

فاتبعهم فرعون وجنوده: فلحقهم وتبعهم فرعون وجنوده الذين حشدتهم لمطاردة بني إسرائيل والقضاء عليهم أو إعادتهم قسراً إلى العبودية في مصر والتقتيل البطيء.

وكان السياق قبلاً يتكلم عن فرعون والملا، والآن يتكلم عن فرعون والجنود، فالملا هم الطبقة التنفيذية في البلاد في الأمن..

أما الآن في المطاردة والملاحقة فالجنود هم المطلوبون.

وكان بإمكانه أن يرسل وزير دفاعه أو قائد جيشه أو رئيس أركانه لهذه المطاردة، وأراد الله أن يأتي به، لتتم مشيئة الله بالقضاء على هذا الطاغية، ليكون سلفاً ومثلاً وعبرة لكل طاغية بعده، ولتكون قصته عظة ودافعاً لكل مقهور ومستضعف.. ومثباً ومقوياً لكل الشعوب المطالبة بحقوقها أمام تَعَوُّل قوى الاستكبار والاستعمار والقهر.

حتى إذا أدركه الغرق: حتى للغاية، فهي نهاية وبداية، فاللحظة الفارقة واحدة.. بين الاستدراج إلى البحر وعودة البحر إلى طبيعته.. إذا ظرف مضمن معنى الشرط، أدركه الغرق: أصابه الغرق ولحقه، كأنه كان يطارده.

قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل: قال فرعون المتأله العالي العاتي المستكبر، هذا الذي كان يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ ويقول ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ فالآن يقول: آمنت وصدقت وأيقنت أنني مجرد عبد، الإله الحق هو الذي آمنت به بنو إسرائيل، والذي دعا إليه موسى، ولم يقل آمنت بالله، وحسب، لأن المصريين وقتها كانوا يعبدون آلهة شتى.

فعبدوا العجل وعبدوا الشمس وعبدوا الزعيم وعبدوا آلهة شتى كما قالت الآية الكريمة ﴿يَذَرِكُمْ وَالْمَلَكِ﴾ فهو قد أراد بكلمته هذه أن يقطع النظر عن كل الآلهة الباطلة المدعاة المزعومة، ويؤمن بالله الحق الذي لا إله إلا هو، وهو الذي دعا إلى الإيمان به موسى، والذي آمنت به بنو إسرائيل، من هنا فيما أرى جاء هذا التحديد على لسان فرعون.

وأنا من المسلمين: جمع لنفسه بين الإيمان والإسلام، أي وأنا من المستسلمين الخاضعين لأمر الله والمنفذين لكل ما يطلب شأني شأن أي عبد مأمور مطيع.

لقد انتهت الغطرسة والكبرياء والتأله أمام مواجهة لحظة الحقيقة وتهديد الغرق والموت، والموج العاتي يضرب ذات اليمين وذات الشمال ويتقاذفه كنواة أو قشرة فارغة.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ولقد تضاءل

وتصاغر واستخذى، فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بل يزيد في استسلام وأنا من المسلمين».

وقال في صفوة البيان: «بغياً وعدواً: ظلماً واعتداء، يقال: بغى عليه بغياً إذا علا وظلم، وعدا عليه عدواً وعدواناً: ظلمه، كتعدى واعتدى. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «لم يقل أسلمت، بل قال وأنا من المسلمين، أي يلزمني ما التزمه جاء بإيمانه مجملاً لضيق الوقت عن التفصيل ولعدم معرفته تفصيله».

قال الزخشري: «فأتبعهم: فلحقهم، يقال: تبعته حتى أتبعته، ثم قال عن فرعون: كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط. أ. هـ».

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وقطعنا بيني وإسرائيل البحر حتى جاوزوه ﴿فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾، يقول: فَتَبِعَهُمْ فرعون ﴿وَجُودُهُ﴾. يقال منه أَتَّبَعْتَهُ وَتَبِعْتَهُ، بمعنى واحد. وقد كان الكسائي فيما ذكر أبو عبيد عنه يقول: إذا أريد أنه أتبعهم خيراً أو شراً فالكلام أتبعهم بهمز الألف، وإذا أريد: اتبع أثرهم، أو اقتدى بهم، فإنه من أتبعته مشددة التاء غير مهموزة الألف»^(١).

من دروس الآية ٩٠:

- ١- أعطى الإله العظيم الناس حرية الاختيار، ولا يعني هذا أن لهم الاختيار المطلق وإلى ما لا نهاية، فمن حادَّ الله استدرجه إلى أسوأ مصير.
- ٢- الاستكبار والعلو والتأله أمراض وتشوهات تصيب البشر والحياة والأمم والمجتمعات ويدفع الجميع فيها ثمناً غالياً.

(١) الطبري، جامع البيان، ج ١٥، ص ١٨٨.

٣- إدراك الحقيقة في الوقت المتأخر والوقت الميت أو الضائع كالإدراك وفهم المسألة خارج قاعة الامتحان وقد سلمت أوراقك لا يسجل في رصيدك.

٤- التوبة مقبولة حتى لحظة الموت.. فإذا عاينت اليقين بالموت فأين الإيمان بالغيب؟

٥- التواضع تحت القهر ليس تواضعاً وإنما احتيال.

٦- ما أجل أن يصبح إيمان المستضعفين أمنية المستكبرين.

٧- جند الله لا يعلمهم إلا هو والفرق يصوره الله سبحانه أنه جند لحق بفرعون حتى أدركه.

الآية ٩١:

﴿إِنَّا كُنَّا وَقَدْ عَصَيْنَا قَبْلَ وَكُنَّا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

الربط والمناسبة: في الآية السابقة ادعى فرعون أنه آمن، لكنه إيمان ليس في الوقت المقبول.. وهذه الآية ترد إيمان فرعون، وتقول له إنك تجاوزت الوقت الذي يقبل فيه الإيمان.

وهذه الآية ٧ كلمات و٢٩ حرفاً وترتيبها ١٤٥٥.

المعنى: الآن: الآن بفك الإدغام، أي هل آمنت وقد فات الأوان، هل آمنت في الوقت الذي لا يقبل فيه الإيمان؟ إنه وقت معاينة الموت والإفلاس من كل أسباب النجاة والاستيثاق من قوة الذات والجنود والحماة والكمأة والرماة..؟

الآن وقد نفذت الفرص من بين يديك؟ الآن وقد انتهى وقت الامتحان وقيل في قاعة الامتحان: ضع القلم؟

الآن وقد ملأت البلاد ذعراً منك ورعباً من بطشك وقد تأملت وطغيت وقتلت واستحييت وادعيت الدعاوى العريضة من مثل: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِثْرَ هَٰذِهِ ۖ أَلَأَنَّهُمْ نَجَرِيَ مِنْ نَحْيٍ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟

أين السلطان والهيلمان؟ أين الخلان والغلمان؟ أين الندماء والجلساء؟ وأين القوة والأضواء؟ وأين كل هذه السطوة؟ أين الحرس والمواكب والمراكب؟ أين الرياش والفراش؟ أين العاج وأين التاج؟ أين التماثيل والتهاول؟ أين أين...؟
الآن يا فرعون جئتنا عبداً؟ أما كنت تدعي أنك إله؟ فأنقذ نفسك. أما أنكرت ربك وزعمت أنك رب؟ فخلص نفسك. أما قلت ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمَنُ عَلَى الظِّلِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؟

الآن؟ ما أعظمها كلمة سجلها القرآن ورددتها الأكوان التي ضجت من طغيان هذا الإنسان.. الذي خرج من إنسانيته وادعى ما ليس له بحق، ادعى أنه إله للخلق ونسي الخالق، ادعى الخلود فأين الآباء والجدود؟ ألم يدعوا الدعاوى مثلك؟ أما كانوا مثلاً لك؟

الآن؟ ينطق الذين نجاهم الله وهم يرقبونك من الضفة الأخرى.

الآن؟ ينطق بها الماء الذي يتقاطر إلى جوفك ليقنتلك.

الآن؟ يلطمك بها ملك الموت الذي جاء ليقبض روحك!

الآن؟ يصرخ بها زبانية العذاب وقد جاءوا ليعذبوك وأنت تسلم جوهره الروح في الجسد تنتن بالإرادة المجرمة الفاسدة.

وقد عصيت قبل: وقد تمردت على أمر الله وعالته المعصية وجاهرته بالتحدي وزعمت أنك ند بل لا أمر إلا أمرك ولا نهى إلا نهيك ولا نافذ إلا حكمك لقد

ملأت الأرض معصية وتجاوزاً وظلماً، وملأت وقتك واستنفدت عمرك في معصية الملك المقتدر سبحانه فالآن عرفته وقد عصيته من قبل وتحديثه.

وكنت من المفسدين: الآن تعلن أوبتك وتوبتك وقد أفسدت أمتك وضيعت فرصتك، أما علمت أن الفساد والإفساد وتدمير البلاد عاقبته وخيمة؟ كم من أهل بلدك ماتوا فقراً وقهراً ومرضاً وجوعاً؟ كم حكمت محاكمك ظلماً بقتل أبرياء من المستضعفين؟ الآن وقد امتلأت سجلاتك بالفساد والسواد وخراب البلاد؟

قال الشيخ حسنين مخلوف في صفوة البيان: «الآن: أي الآن تؤمن حين يثبست من الحياة وأيقنت الموت؟! فالظرف متعلق بمحذوف يقدر مؤخراً، والاستفهام للتوبيخ والإنكار لتأخيره الإيمان إلى وقت لا يجدي فيه نفعاً لعدم قبوله. أ. هـ».

قال ابن عاشور: «صيغة ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أبلغ من الوصف بالإفساد من وكنت مفسداً، كما تقدم أنفاً وبمقدار ما قدمه من الآثام والفساد يشدد عليه العذاب».

قال الزخشري: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى الْأَرْضَ كُفْرًا﴾: أتؤمن الساعة في وقت الاضطراب حين أدركك الغرق وأيست من نفسك؟ ﴿مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: من الضالين المضلين عن الإيمان كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

من دروس الآية ٩١:

- ١- كم ذا يغالط الإنسان نفسه يعلم أنه مخلوق ويدعي أنه إله!
- ٢- فرصة الوقت ومهلة العمر أعظم ثروة هدرها الإنسان ويهدرها وفرط فيها ويفرط ولا يرعوي إلا في اللحظة القاتلة.

٣- الإيمان بالغيب وليس عن معاينة ومشاهدة، فإيمان المعاينة يستوي فيه العاقل وغير العاقل فما قيمته؟

٤- لا يقبل الله توبة العبد متى أيقن الخروج من الدنيا.

٥- التعامل مع الله ينبغي أن يكون بالصدق والإخلاص لا بالانتهازية والمخادعة فالله لا يخدع وكل الناس يقولون في لحظة الفراق ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ وقد علموا أنهم لا يرجعون.

٦- الآن الآن قبل أن لا يكون آن وقد فات الأوان.

٧- البدار البدار وانتهاز الفرصة حتى لا يفوتك القطار وتكون من أصحاب النار.

٨- الغارق المغرق في المعاصي والفساد يختم على قلبه فلا يعود ويحال بينه وبين هذا القلب ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّحْتَشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

الآية ٩٢:

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

الربط والمناسبة: تنمة الحديث عن مصير فرعون فقد سجلت الآية السابقة رفض توبته وإيمانه وغرقه، وهذه الآية تكمل الحديث بأن الله سيجعل البحر يلفظه حتى لا يتوهم المتوهمون أنه ذهب إلهاً إلى مكان آخر، فهذا هو جيفة ملقاة أمام أعينكم!

وهذه الآية ١٤ كلمة و٦١ حرفاً وترتيبها ١٤٥٦.

المعنى: فالיום: كان السؤال في الآية السابقة: الآن، فهو حديث عن الوقت الذي فات، وفي هذه الآية يقول الله: في هذا اليوم سأنجي بدنك بعد أن سللت روحك ليس لكرامتك بل لأجعلك عبرة لمن يعتبر. والفاء: الفصيحة، تفصح عن شرط مقدر في الكلام يدل عليه السياق.

ننحيك بيدنك: ننقذ جسدك وبدنك بعد أن استلمنا الجوهرة المودعة في هذا الجسم العفن المليء بالكبر المتنفخ والتنفج والغطرسة والدعوى الفارغة.

ولهذا البدن قصة، هذا الظرف الفارغ الذي استودعه الله جوهرة الروح، هذه القبضة من الطين أصبحت مستقرراً ومستودعاً لأعظم جواهر الوجود: الروح، وفسد الإنسان فأفسد علبة الروح وتعداها إلى الجوهرة ذاتها يريد إفسادها. ويبدو أن هذا البدن الدنس لفرعون أراد الله أن يكون عبرة لمن يعتبر وعلامة لمن يريد أن يستدل وآية لمن يريد أن يهتدي، فقد قبض الله من ينقل هذا الجسد إلى مصر ثم حفظ بالتحنيط وقبض له موريث بوكاي الطبيب الفرنسي أن يوقف تآكل المومياء، فقد طلب من السادات رؤية مومياء رمسيس (الذي يعتقد أنه فرعون موسى) فأذن له فأخبر السادات أن المومياء بدأ فيها التحلل وعلينا وقفه فسمح له السادات فشكل فريق عمل واستطاع وقف تحلل الجثة المحنطة.

ليصدق الوعد ويصدق النص: ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ وليس لمن خلفك من بني قومك في ذلك الوقت، إذ يبدو أن النص مفتوح على الزمان كله إلى ما شاء الله! وقد اكتشف فريق من الأطباء أن هذا الفرعون مات غرقاً.. وصدق الله: ﴿سَرَّيْهِمْ أَهْلِيْنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

ومعنى آية علامة دالة، فهي تدل على قدرة الله وأنه المتصرف في الوجود وأنه القدير وأنه القاهر وأن البشر مهما تضخمت ذواتهم ودعاواهم ومهما تألهاوا يظلون في قبضة الله ورهن أمره، وآية على أنه لا يكون في كون الله إلا ما أراد الله، وأن الأمر كله بيديه، وأن مردنا إلى الله، والدلالات من الآيات لا تنتهي.

قال الشيخ محمد طه الدرة: «المعنى: آية لمن يأتي بعدك من الجبابرة إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدوك عبرة ونكالاً فيعرفون أن الإنسان مهما بلغ من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الألوهية». أ. هـ.

وأقول تعليقاً: بل النص أعم وهو مفتوح على المدى لمن خلفك مطلقاً.. وخاصة شعبك الذين كانوا يؤلهونك.

وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون: وإن كثيراً من الناس الذين أسوق لهم الآيات بالليل والنهار، فإذا ألفوا بعض الآيات سقت لهم خوارق الآيات لعلهم يتذكرون، ومع هذا فإن الكثير منهم يظلون سادرين وعن آياتنا غافلين.

وأكد الكلام، مولانا، بأن وهي أقوى أدوات التوكيد ثم باللام الداخلة على خبرها، وهي المسماة المرحلة.

وأضاف الآيات إلى نون العظمة ليكسبها عظمة على عظمة، وبهاء على بهاء وقدراً على قدر.

قال الزخشري: «ننجيك: بالتشديد والتخفيف: نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر - ببذنتك: في موضع الحال، أي في الحال التي لا روح فيك وإنما أنت بدن، أو ببذنتك كاملاً سويماً لم ينقص منه شيء، يعني ببذنتك كله وافياً بأجزائه لمن خلفك: لمن وراءك من الناس علامة، ومعنى بدنه آية: أي تظهر للناس عبوديته ومهانتة وأن ما كان بدعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل، فما الظن بغيره؟

أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك فلا يجرئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله.

ويجوز أن يراد: ليكون طرحك على الساحل وحذك وتميزك من بين المغرقين لئلا يشبهه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لادعائك العظمة أن مثله لا يغرق ولا يموت، آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعتمد منه لإمطة الشبهة في أمرك. أ. هـ.

وقال الرازي: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾، فَلَا ظَهْرَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ وَذَكَرَ حَالَ عَاقِبَةِ فِرْعَوْنَ وَخَتَمَ ذَلِكَ بِهِذَا الْكَلَامِ وَخَاطَبَ بِهِ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَكُونُ ذَلِكَ زَاجِرًا لِأُمَّتِهِ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الدَّلَائِلِ، وَبَاعِنًا لَهُمْ عَلَى التَّأَمُّلِ فِيهَا وَالْإِعْتِبَارِ بِهَا»^(١).

من دروس الآية ٩٢:

- ١- ﴿سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ وعد قطعه الله وظلت تثبته الأيام.
- ٢- مومياء رمسيس، المتوقع أنه فرعون موسى، آية تدل على صدق وعد الله ﴿لَنَكُونَنَّ لِمَن خَلَقَكَ آيَةً﴾.
- ٣- وقت نزول القرآن لم تكن هذه الآية معروفة للناس لنعلم أن معجزات القرآن تتجدد على الزمان.
- ٤- رؤية الآيات وعظمة الآيات شيء والاعتبار منها شيء آخر.
- ٥- الغفلة أخطر الأمراض التي تهدد الإنسان.

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٧، ص ٢٩٨.

٦ - ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَلَقْنَا آيَةً﴾ يتعظون ويعتبرون بها ويرون عاقبة التحدي لقوة الله ووعيده بالتكذيب.

٧ - كثير من الناس لا يوجهون قلوبهم وعقولهم لآيات الله.

الآية ٩٣:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا أَخْلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ
الْأَمَلُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

الربط والمناسبة: السياق متصل، فبعد أن انتهى من فرعون، ونجى بدنه ليكون
عبرة للمعتبر، عاد السياق إلى بني إسرائيل، ومنة الله بنجاتهم.. لتبدأ فصول قصة
جديدة.

وهذه الآية ٢٤ كلمة و ١٠٥ حروف وترتيبها ١٤٥٧.

المعنى: ولقد: الواو للعطف قصة على قصة وموضوعاً على موضوع، أو
للاستئناف جواباً عن سؤال مقدر قد قيل مفاده: ماذا جرى لبني إسرائيل بعد هلاك
فرعون وجنوده؟ قال السياق الكريم: ولقد..

واللام لام القسم وقد للتحقيق وهي داخلة على الماضي فزادت تأكيداً.

بوأنا بني إسرائيل مبوءاً صدق: أنزلنا بني إسرائيل منزل صدق. أي حق وعدنا
بنجاتهم وحريتهم وإنزالهم منزل الأمن بعد الخوف والاستقرار بعد الزعزعة
والنجاة بعد القتل والكرامة بعد الامتهان والمذلة.

ورزقناهم من الطيات: بعد النجاة والمن عليهم بعبور البحر جاءتهم أمدادنا رزقاً من السماء دون عناء بأن أنزلنا عليهم المن والسلوى وبعد المن والسلوى رزقناهم من الأرض الرزق الذي اعتاده كل الناس.

فما اختلفوا حتى جاءهم العلم: نص عجيب أو هم شعب عجيب فالعلم يجمع ولا يشت ويوحد ولا يفرق فما لهؤلاء القوم يختلفون بعد مجيء العلم؟ إنها الأهواء والبغي، وهل تعجب من حالهم! انظر اليوم إلى واقع المسلمين تجد الخلاف والقرآن بيننا والسنة بيننا، ولكنه التطرف في الفهم والمذاهب المسبقة والأحكام الجاهزة التي تنزل عليها الأحكام، وتحور وفقها النصوص، وقسم يتبغي رضا جهات وأطراف، وقسم منفصم عن الواقع يفتي للخيال وللوهم، وقسم يفتي وكأننا في عصر الصديق أو الفاروق، وما درى المسافات الفاصلة بين الظلمات والنور، وقسم جزأ الإسلام وجعل القرآن عضين، وقسم طوعه للغرب، وقسم طوعه لمذهبه، من هنا يكون العلم مثاراً للتفرق والعلم في ذاته لو نزل على أرض نقية يستحيل أن يكون مثاراً للتنازع، أما أن تختلف الفهوم فهذا أمر طبيعي وظاهرة صحية، والصحابة الكرام عليهم الرضوان لم يكونوا متطابقين في الفهم والاجتهاد، لكنهم كانوا متآلفين وإن كانوا في الفهم متفاوتين.

إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة: إن ربك يقضي بينهم في هذا الخلاف يوم القيامة، وهذا يعني أن الخلاف لن يحسم بينهم في هذه الحياة الدنيا، أي أنه مستمر ما وجدوا وما كانوا وما عاشوا وما تناسلوا.. بل إن الخلاف يشتد بينهم ويشتط وانقساماتهم الدينية تزداد والشقة تتباعد وتتسع، حتى يكون الحكم بينهم أمام الله.

فيما كانوا فيه يختلفون: في الذي كان مثار خلافهم وسبب استشكالهم والسؤال: ما الذي كانوا فيه يختلفون حتى يستحق أن يقضى فيه يوم القيامة؟ وما فائدة القضاء فيه يوم القيامة؟

أعتقد أن عل الخلاف ليس فقهياً ولا اجتهادياً وإنما هو اعتقادي يستحق أن يُقضى فيه إذ قد يصل الخلاف فيه حد الكفر أو الإيمان، وقيمة القضاء في الأمر يوم القيامة أن يعلم صاحب الاعتقاد السليم جزاء اعتقاده وصاحب العقيدة الفاسدة في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر جزاء فساد اعتقاده، فهو قضاء فعلي عملي جزائي وليس حكم مسألة نظرية فكرية اجتهادية.

قال الشيخ مخلوف في صفوة البيان: «بأننا بني إسرائيل مبوأ صدق: أسكنناهم وأنزلناهم منزل كرامة.. ومكاناً صالحاً مرضياً وإضافته إلى الصدق للمدح، كما في: قدم صدق، ورجل صدق أ. هـ (ونضيف: مقعد صدق).

قال الزخشي: «مبوأ صدق: منزلاً صالحاً مرضياً، فما اختلفوا: في دينهم، وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد أن قرأوا التوراة وكتبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة، وعلموا أن الاختلاف فيه تفرق عنه. أ. هـ».

«نعم تترى، توجب على العبد أن يستكين لربه، ويخضع لخالقه، ويطيعه ولا يعصيه. لقد أنعم الله على بني إسرائيل بأن رزقهم مكان إقامة ثابتاً مستقراً، ومتعمهم بالطيبات من الرزق، وجاءهم علم الدين؛ فجعلوا الدواء عين الدواء، واختلفوا بعد وفاق!

ولم يُذكر في سورة يونس، سورة إحقاق الحق، إلا هذا الانحراف! وهذه الآية جاءت في نهاية قصة موسى مع فرعون. وبعد ذلك يعقب سبحانه على هذه الخاتمة لقصة نوح وموسى عليهما الصلاة والسلام، ويبدأ الخطاب للرسول ﷺ، تثبيتاً له، وبياناً لسبب تكذيب قومه، وبياناً لصدق القرآن في دعوته، وأن لا مجال للشك فيه، وتوجيه الإنذار لأهل مكة بأسلوب التعريض: قال تعالى: ﴿إِن كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُتَّوِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٦﴾ [يونس: ٩٤ - ٩٥] ^(١).

«لقد فاق ذكر هذا الانحراف - الاختلاف والتفرق - غيره من الانحرافات... ففاق ذكر التحريف والكتمان والنفور. وقد ورد ذكر الاختلاف بصيغ مختلفة اثنتي عشرة مرة «اختلفوا، اختلف، اختلف، يختلفون»، فضلاً عن ذكر التفرق ثلاث مرات بهاتين الصيغتين: «تفرقوا، تفرق»، ليصبح العدد خمس عشرة مرة، ويدلّ هذا على أن الانحراف استفحل فيهم. وفيه تحذير للأمة الإسلامية حسب ما ورد في السياقات القرآنية من هذا الانحراف الخطير...

وكثيراً ما يذكر ربنا تبارك وتعالى عن علمه المطلق، ويثني سبحانه على كتابه الأعظم، في السياق المتكلم عن اختلاف بني إسرائيل؛ ليحيلهم إلى الأصل الأصيل، القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم، فهو كلام الخبير، وفيه علم الله الغزير. وإن اختلافهم وتفرقهم حصل بعد مجيء ثلاثة أمور رئيسة صرح بها القرآن الكريم: الأول: بعد مجيء العلم. والثاني: بعد مجيء البينات. والثالث: بعد مجيء البينة. وكلها تؤدي إلى أمرين اثنين: الرسول وكتابه، وكلاهما من عند الله جل وعلا، وكلاهما يحمل البينات والعلم» ^(٢).

من دروس الآية ٩٣:

١ - لقد صدق الله وعده لبني إسرائيل فحررهم من العبودية ولكنهم لم يشكروا.

(١) عمر حيدر، انحرافات بني إسرائيل السلوكية وأثرها على الإنسانية (اطروحة دكتوراة)، ص ١٠٢.

(٢) المرجع ذاته، ص ١٠٧.

٢- العلم سبب الوفاق والاجتماع ولكنه إن اختلط بالأهواء كان مثار النزاع والشقاق.

٣- الحكم الفصل بين المختلفين، في ساحة الآخرة.

٤- الخلاف الذي سيحسمه الله مطلق ولكن الذي يستحق أن يحسم فيه النزاع ما كان متصلاً بالعقيدة والكليات.

٥- الحكم في الخلاف حكم جزائي عملي وليس حكماً نظرياً.

٦- داء الخلاف داء الأمم قديماً وحديثاً.

٧- كم عظيم أن يتفق الناس على القواسم ويتجنبوا القواصم من أسباب الخلاف.

٨- الأيام دول فهاهم بنو إسرائيل الذين كانوا في الذل والعبودية في منازل الصدق والعز لكنهم لم يصونوا ما أنعم الله به عليهم، فتغير ما بهم لأنهم غيروا ما بأنفسهم.

٩- المبوأ.. مكان الإقامة الأمين وإضافته إلى الصدق تزيده أماناً وثباتاً واستقراراً.

الآية ٩٤:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

الربط والمناسبة: ختمت قصة بني إسرائيل بالآية ٩٣ بأجل ختام إذ استحضرتهم في ساحة الآخرة ليحكم الله بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وفي آيتنا

هذه التفات إلى النبي المصطفى ﷺ إن كان في شك مما قص عليه، وحاشاه! إنما النص لأتمته ولمن يعتبر، ولكل الخلق.

وهذه الآية ٢٢ كلمة و٨٣ حرفاً وترتيبها ١٤٥٨.

المعنى: فإن كنت في شك: فإن: الفاء تفريع وإن شرطية والخطاب في كنت: موجه لسيد المخاطبين، وإن كان ليس هو المقصود، فهو ليس في شك ولا شيء من الشك، معاذ الله، والشك: التردد وعدم اليقين. والشك في اللغة خلاف اليقين. والشك اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين أو لعدم الأمانة والشك ضرب من الجهل.

مما أنزلنا إليك: من الذي أوحينا إليك وأنزلناه من لدنا عليك.

فاسأل: الفاء واقعة في جواب الشرط، واسأل: فعل أمر هو جواب الشرط مع الفاء.

الذين يقرؤون: أي فاسأل لتقطع هذا الشك هؤلاء الذين يقرؤون الكتاب، والكتاب مطلق، إما معناه كتابهم، أو كتابك، أو هذا وهذا، أو الكتاب بمعنى جنس الكتاب.. وهذا أيضاً يحتاج إلى توضيح، أهو الكتاب مطلقاً أم الكتاب السماوي...؟ وواضح أنه يعني الكتب السماوية، وعبر بالمفرد يريد الجنس لا ليريد كتاباً واحداً.

من قبلك: متعلق إما يقرؤون الكتاب من قبلك.. أو بما قبله وهو كلمة الذين من قبلك.

لقد جاءك الحق من ربك: اللام للقسم وقد للتحقيق وأقواه ما كان داخلاً على الماضي وهنا كذلك.

والجيء يفيد الإتيان من قريب.. الحق: الشيء الثابت.

من ربك: متعلق بالحق أي الحق الكائن من ربك، الذي يعلمك ويتعهدك.

فلا تكونن من الممترين: هذه الفاء الثالثة في هذه الآية.

وهي: فإن كنت، فاسأل، فلا.. والامتراء: الشك فيما لا شبهة للشك فيه فهو أخص من الشك.

فلا تكونن: لا الناهية، وتكونن: مجزومة بلا الناهية.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن المنهج الذي يضعه الله لهذه الأمة فيما لا تستوثق منه، أن تسأل أهل الذكر ولو كان أخص خصائص العقيدة، لأن المسلم مكلف أن يستيقن من عقيدته وشريعته وألا يعتمد على التقليد دون تثبت ويقين، والمنهي عنه هو الشك والبقاء على الشك، بحيث يصبح صفة دائمة ﴿يَنَ الْمُمْتَرِينَ﴾».

قال دروزة: «في الآيات خطاب رباني موجه إلى النبي ﷺ بأنه إذا كان في شك من صحة ما أنزل عليه فعليه أن يسأل الذين يقرأون الكتب السماوية المنزلّة قبله ليتأكد من ذلك. وتوكيد بأن ما جاء هو الحق من ربه. ونهي عن الشك والمراء فيه، وعن الوقوف منه موقف المكذبين بايات الله الشاكين في صدقها فيكون من الخاسرين.

وتقرير رباني بأن الذين حقّ عليهم قضاء الله لا يصدقون ولا يؤمنون مهما سمعوا من الآيات ورأوا من الدلائل حتى يروا العذاب الأليم وحيث لا يكون تصديقهم مجدياً»^(١).

(١) دروزة، التفسير الحديث، ج ٣، ص ٤٩٢.

من دروس الآية ٩٤:

١- خطاب النبي ﷺ بهذه الطريقة وإن لم يكن في شك، ومعاذ الله من ذلك، يؤكد ربانية القرآن... وأنه منزل من عند الله، فلو كان النبي قائله، وحاشا، ما كان خاطب نفسه بهذه الطريقة.

٢- يستشهد القرآن على حقيقته بالذين ﴿يَقْرَءُونَ آلَ كِتَابٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾، مما يدل أن القرآن يتحدى بهذا الحق، وأنه حتى هؤلاء وهم قد يزيغون عن قول كلمة الحق، ولكن القرآن يتحداهم فهذا الكتاب لا يستطيع أن يشهد ضده أحد، لأنه يملك مطلق الحق أنه كلام الله.

٣- بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ وختمت بالنهي ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ لتطرد من نفس كل مؤمن أي تردد أو تحير أو شك أنه على الحق المبين مهما تكاثرت حملات التشويه والتشكيك.

٤- أكثر ما يضعف الناس التردد والشك ولذا ينبغي حسم الأمور وقطع اللجلجة باليقين بالتدبر والتفكير والبحث.

الآية ٩٥:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥)

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بالنهي الموجه لسيد العباد ﷺ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ وافتتحت هذه بعطف نهى على نهى بذات الصيغة فقالت: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ وحاشاه من كل ذلك، ولكن كان ذلك النهي ليعم

الجميع من خلال سيد الأنبياء فإذا كان هو منهياً فكيف بالآخرين؟ ثم لتأكيد مقام العبودية وأنه لا أحد فوق المساءلة ولا أحد فوق مقام العبودية حتى لو كان أعظم الأنبياء عليهم جميعاً الصلوات والسلام، وتكرر في الآية السابقة حرف الجر ﴿مِنْ﴾ مرتين وهذه كذلك.

وهذه الآية ١٠ كلمات و٤٣ حرفاً وترتيبها ١٤٥٩.

المعنى: ولا تكونن: الواو عطف على ما سبق من النهي، ولا هي الناهية وتجزم الفعل بعدها، والمخاطب النبي المنزل عليه هذا الكتاب.

من الذين: هذا هو المنهي عنه، ومن بيانية أو تبعية، وعبر بالاسم الموصول لاستحضار صلته بما يليه.

كذبوا بآيات الله: هذه صلة الموصول، وهم قومه أولاً ثم كل من كذب ممن بلغته هذه الدعوة المباركة سواء أكانوا من أهل كتاب أم من غيرهم.

بآيات الله: هذا هو المكذب به، وحاشا دائماً لمقام النبي ولا حاجة لأن نعيد أن هذا تعليم وتأديب للأمة وتهديد لكل من يكذب.. أما النبي عليه الصلوات فهو سيد المصدقين الصادقين، ولا يخطر ببال أحد أن من تنزل عليه الآيات يمكن أن يكون من المكذبين بها، ولكنه تأكيد مقام العبودية، وتأكيد خطورة موقف التكذيب والمكذبين وأن سوء المصير ينتظرهم ويتهددهم في الدنيا والآخرة.

فتكون من الخاسرين: الفاء سببية تنصب الفعل المضارع بعدها بأن مقدرة.

والكون من الخاسرين مرتبط بالمقدمة وهي الكون من الذين كذبوا، والمؤمن في منجاة من هذا فكيف إمام المؤمنين؟ هذا شيء وتقعيد القواعد شيء آخر.

والتقدير: لا يكن منك تكذيب بآيات الله فخرسان في الدنيا والآخرة والخطاب

عام.

وقيل خوطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمته.

من دروس الآية ٩٥:

١- المكذب بآيات الله أخسر الخاسرين.

٢- تقنين القانون لا يعني احتمال وقوع الأمر، فالتكذيب في حق الرسول والمؤمنين معه مستبعد إلى حد الاستحالة ومع هذا فتقنين القانون لا بد منه كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

٣- قضت سنة الله أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدي، ومن لا يفتح بصيرته على النور لا يراه.

الآية ٩٦:

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦)

الربط والمناسبة: تكلمت الآية السابقة عن الذين كذبوا بآيات الله، وهذه تتكلم عن الذين لا يؤمنون.. فهي استمرار ومواصلة، والآيتان خطاب للنبي ﷺ، و﴿الَّذِينَ﴾ في أول هذه وتلك.

وهذه الآية ٨ كلمات و٣٠ حرفاً وترتيبها ١٤٦٠.

المعنى: إن الذين حقت عليهم كلمة ربك: إن: حرف توكيد، والتعبير بالاسم الموصول لاستحضار صلته، ومعنى حقت: وجبت ووقعت. وثبتت، و«على» للاستعلاء المجازي.

كلمة ربك: أي وعيده لهم الوارد في كتابه. وجاءت بالتاء المفتوحة لتوسعة المعنى.

لا يؤمنون: ينفي وقوع الإيمان منهم لأنهم حرموا أنفسهم منه بإصرارهم على الكفر. وهيهات أن يقبل منهم الإيمان عند معاناة العذاب كما لم ينفع فرعون.

قال الزمخشري: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً، فلا يكون غيره. وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد، تعالى الله عن ذلك أ. هـ.

وقال رضا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن الذين ثبتت عليهم كلمة العذاب من ربك وهي كلمة التكوين الدالة على سخطه فيمن فقدوا الاستعداد للإيمان، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لرسوخهم في الكفر والطغيان، وإحاطة خطاياهم وجهالاتهم بهم من كل مكان، وإعراضهم عن آيات الإيمان، هذا معنى قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا أنه تعالى منعهم من الإيمان منعاً خلقياً قهرياً لا كسب لهم فيه ولا اختياراً^(١).

من دروس الآية ٩٦:

- ١- لا يفهم من الآية مطلقاً الجبر، فالجبر ظلم مطلق.
- ٢- تفهم مثل هذه الآيات في ضوء السنن الربانية فللهدى نواميس وسنن وللضلال سنن وناواميس، وينبغي تبيينها لفهم التشابهات.
- ٣- وعد الله ووعيده يستحيل أن يُنقض وهذا لا علاقة له بالجبر.

(١) رضا: المنار ج ١١ ص ٣٩٢.

الآية ٩٧:

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٩٧﴾

الربط والمناسبة: ختمت الآية ٨٨ بقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهذه ختمت بذات الكلمات فهي نسق مع جو السورة، هذا أولاً، وثانياً، تكلمت الآية ٩٥ عن ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ...﴾ وهذه ذكرت ﴿كُلُّ آيَةٍ﴾.

وثالثاً: الربط أوثق من أن يحتاج إلى نظر فقد ختمت السابقة بقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وافتتحت هذه بقوله: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ﴾ أي أنهم لا يؤمنون بحال حتى لو جاءتهم كل آية.

وهذه الآية ٨ كلمات و٣٤ حرفاً وترتيبها ١٤٦١.

المعنى: ولو جاءتهم: بينا ارتباط الآيات ببعضها، فالكافرون الذين يتحدث عنهم السياق لا يؤمنون حتى ولو جاءتهم كل آية.

وعبر بكل آية ليفيد أن الآيات حسية أو معنوية كائنة ما كانت لن تقودهم للإيمان لا عن عجز الآيات على تفتيح الأعين والقلوب والعقول، لا ولكن تدل على إصرارهم على الكفر، فهم كالإناء المقلوب لن يمتلئ ولو انسكبت فوقه أنهار العالم!

حتى يروا العذاب الأليم: فقضية الإيمان حق إذًا، ولكن العناد والإصرار على الباطل هو الذي يمنعه من الإيمان، ولكنهم متى رأوا العذاب الأليم تبخر عنهم عنادهم وإصرارهم وتعتهم، فلما كشف العذاب عنادهم تبين أن تحت طبقة العناد إيماناً تستكنه قلوبهم وهم يكابرونه بالسنتهم كما قال عن فرعون وملئه وقومه:

﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَأَسْتَقِنْتَهَا أَنْفُسُكُمْ ظُلُمًا وَعُظُومًا...﴾.

قال ابن عاشور: «المعنى: أنهم لا يؤمنون إلا حين لا ينفعهم الإيمان لأن نزول العذاب هو ابتداء مجازاتهم على كفرهم وليس بعد الشروع في المجازاة عفو».

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿١﴾ مِنَ الْآيَاتِ الْكُوفِيَّةِ كآيَاتِ مُوسَى الَّتِي اقْتَرَحُوهَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ، وَالْآيَاتُ الْمُنَزَّلَةُ كآيَاتِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعِلْمِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ بِإِعْجَازِهَا عَلَى كُوفِئِهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَعَلَى حَقِّيَّةِ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَتُنذِرُهُمْ بِإِيَّاهُ.

﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ بِأَعْيُنِهِمْ، وَيَذُوقُوهُ بِوُقُوعِهِ بِهِمْ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِيمَانُهُمْ اضْطِرَّارِيًّا لَا يَعْدُ فِعْلًا مِنْ أَفْعَالِهِمْ، وَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ عَمَلٌ يَطْهَرُهُمْ وَيُزَكِّي أَنْفُسَهُمْ، بَلْ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿ءَاَلَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿كَمَا قِيلَ لِفِرْعَوْنَ: ﴿٢﴾ ءَاَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾﴾^(١).

من دروس الآية ٩٧:

- ١- العناد من أسوأ ما تكن صدور البشر والعباد.
- ٢- آيات الله قادرة على هداية الباحث عن الحق، ولكن الذي أغلق قلبه وعقله لا يهتدي لا لعجز الآيات.
- ٣- رؤية العذاب تكشف طبقات الكبر والكفر والعناد.
- ٤- الإيمان وقت رؤية تحقق الآيات لا يقبل.

(١) رضا، تفسير المنار، ج ١١، ص ٣٩٣.

الآية ٩٨:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسْ لَمَاءَ امْتَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ
الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

الربط والمناسبة: في الآيات السابقة تكلم عن عدم إيمان المصريين على الكفر والمعاندين للدين والفطرة والوحي والنبوة.

وهذه الآية تتكلم عن تحضيض الناس على الإيمان فالآيات نسق، وتكلمت الآيات السابقة عن عذاب من يكذبون، وأن رؤيتهم العذاب تكشف الغطاء عن عيونهم، وفي هذه الآية استثنى قوم يونس فهم قد آمنوا قبل أن يروا العذاب فكانوا الاستثناء الأوحى بين الأقوام والأمم في التاريخ.

وهذه الآية ٢١ كلمة و٩٤ حرفاً وترتيبها ١٤٦٢.

المعنى: فلولا: الفاء: فصيحة تنبئ عن مقدر.

ولولا: تحضيضية وليست الامتناعية، أي فهلا كانت قرية آمنت.

لولا: حرف يراد لمعانٍ منها التوبيخ.. وذلك أن أصل معنى لولا.. التحضيض.. وهو هنا مستعمل في لازم التوبيخ كناية عن التغليظ لأن أهل القرى قد انقضوا فإذا دخلت على فعل قد فات وقوعه كانت مستعملة في التغليظ والتنديم وإذا توجه الكلام الذي فيه «لولا» إلى غير صاحب الفعل الذي دخلت عليه كانت مستعملة في التعجب ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾.

كانت: عبر بالفعل كانت ليفيد السبق أي قبل أن ينزل العذاب.

قرية: تجمع سكاني بقطع النظر عن مصطلح العصر وهي ما دون المدينة.. فالقرآن قد يعبر عن القرية والمدينة للمكان نفسه كما في سورة الكهف ﴿أَنَّىٰ أَهَلَّ

قَرِيَّةٍ ﴿ ثُمَّ قَالَ فِي السِّياق نَفْسَهُ ﴿فَكَانَ لِمَن يَنبَغِي فِي الْمَدِينَةِ﴾ والمكان واحد، ونكر قرية لتعم. وقد حاول بعضهم تفسير ذلك بأن القرية تطلق على تجمع ظهر فيه تناقض وانقسام.

أمنت: عبر بالماضي للمعنى الذي ذكرنا وهو قبل وقوع العذاب.

فنفعها إيمانها: الفاء مرتبطة بما قبلها.

نفعها: أي أنقذها من العذاب ونجّاه من الهلاك.. والنفع عام على كل.

إيمانها: تصديقها لرسولها واتباع أمر ربها ورسوله.

إلا قوم يونس: أي واستثنى قوم يونس من هذا التحضيض لأنهم آمنوا بالفعل ونفعهم إيمانهم.

كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا: كشفنا ورفعنا عنهم بسبب إيمانهم العذاب المهين الذي يخزي من يقع عليه ويجعله هزأً لكل الناس ومضرباً للمثل في الهوان والتحقير والضياع والهلاك. والمراد: تقدير الرفع وإبطال العذاب قبل وقوعه فعبر عنه بالكشف تنزيلاً لمقاربة الوقوع.

في الحياة الدنيا: هذا مقدم النفع وأعظم منه نفعهم بنجاتهم في الآخرة.

ومتعناهم إلى حين: أي نعمناهم ومددنا لهم فسحة العمر ليمتعوا بهذه الدنيا ومتاعها إلى حين آجالهم فرداً فرداً.

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعقياً على الآية: «أن سنة الله لم تعطل ولم تقف بكشف العذاب وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى، بل مضت ونفذت، لأن سنة الله مقتضاها أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت سنة الله بإنجائهم نتيجة لهذا العدول».

وقال صاحب صفوة البيان: «لولا: للتحضيض كهلاً وفيه معنى التوبيخ والنفي، أي فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكت هلاك الاستئصال.. آمنت قبل معاينة العذاب ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته كما أخر فرعون إيمانه، فنفعها ذلك بأن يقبله الله منها ويكشف عنها العذاب بسببه».

لكن قوم يونس لم يجروا على سنة أسلافهم، بل بادروا إلى الإيمان قبل نزول العذاب، فقبل الله إيمانهم، وكشف عنهم العذاب ومتعهم إلى حين، ومعنى عذاب الخزي: الذل والهوان^(١).

قال الزمخشري: «فلولا كانت: فهلا كانت، قرية واحدة من القرى التي أهلكناها ثابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة، وقت بقاء التكليف ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه. فنفعها إيمانها: بأن يقبله الله منها.

إلا قوم يونس: استثناء من القرى لأن المراد أهاليها وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى المهالكة إلا قوم يونس. والنصب على أصل الاستثناء. أ. هـ. بإيجاز».

قال القاسمي: «أي فهلا كانت قرية من القرى المهلكة آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته، كما فعل فرعون، وفي هذا التحضيض معنى التوبيخ، ﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله منها، ويكشف عنها بسببه العذاب.

(١) قال الشيخ مخلوف رحمه الله: قبل نزول العذاب حين رأوا أماراته، وقد رفعت هذه الكلمة من المتن لأنني لا أراها وأثبتها في الهامش للأمانة العلمية.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي لكن قومه لما آمنوا ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى آجالهم^(١).

من دروس الآية ٩٨:

- ١ - كل القرى لم تؤمن إلا قوم يونس.
- ٢ - القوم الوحيدون الذين غادرهم نبيهم هم قوم يونس والقوم الوحيدون الذين آمنوا، مفارقات عجيبة.
- ٣ - الإيمان وقاية من عذاب الخزي في الدنيا وعذاب الهون في الآخرة.
- ٤ - لا جبرية في تصرفات الناس، ولكن الجبرية والحتمية في ترتيب آثارها عليها.

الآية ٩٩:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ ۚ﴾

مؤمنين ﴿١٩﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن القرى لو آمنت وعن قوم يونس لما آمنوا.. وفي هذه الآية بين الله تعالى قانون الهدى في كتابه، أو طرفاً من هذا القانون وأنه لو أراد أن يخلق البشر كالملائكة متمكنين من الهدى لفعل لكنه شاء أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً

وهذه الآية ١٥ كلمة و٦١ حرفاً وترتيبها ١٤٦٣.

(١) القاسمي، محاسن التأويل، ج ٦، ص ٦٣.

المعنى: ولو شاء ربك: هذا كلام عن طلاقة المشيئة، وأن الله الإرادة المطلقة والمشيئة الطليقة التي لا يقيدها شيء ولا أحد، فلو شاء غير هذا الموجود لفعل وخلق الناس كلهم على الهدى، وليس معنى الكلام أن الله لم يشأ هدى الناس، معاذ الله، فمفهوم المخالفة هنا بهذا المعنى غير وارد ولا مقبول في دين الله وسنته في خلقه.

ولو: والواو في ولو للاستئناف، ولو: أداة شرط والماضي شاء فعلها ولأمن هو جوابها. وقالوا: لولا: تقتضي انتفاء جوابها لانتفاء شرطها فالمعنى: لكنه لم يشأ ذلك.

وأضاف كاف الخطاب المراد بها النبي ﷺ إلى كلمة الرب لتكريم النبي ﷺ وتشريفه بهذه الإضافة واللفظ به وتقديره.

لأمن من في الأرض كلهم جميعاً: اللام واقعة في جواب الشرط والماضي وما بعدها جواب الشرط، وفاعل الفعل آمن هو الاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ وصلته ما بعده، وكلهم جميعاً تأكيد بعد تأكيد. والمعنى: لو شاء الله لجعل مدارك الناس متساوية منساقة إلى الخير فكانوا سواء في قبول الهدى والنظر الصحيح.

أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين: إذا كان الله تعالى وهو خالق الخلق وله المشيئة المطلقة وبيده مقاليد كل شيء لم يكره الناس على الإيمان، أفأنت يا رسول الله، وأنت من بعثك الله وبين أنك نذير وأن عليك البلاغ وأنزل عليك قبل هذه ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ أفأنت وأنت العبد تكره الناس أن يكونوا مؤمنين؟!!

حاشا لمقامك، وحاشا لدين الله أن يكون رغباً وإكراهاً وقسراً وجبراً وتحميله أي الإنسان الأمانة التي ناءت بها الجبال وعجزت عنها السماوات والأرض، وما ذاك إلا لاختياره وحرите في هذا الاختيار. والاستفهام في ﴿أَفَأَنْتَ﴾ إنكاري.

ومن أعظم قواعد هذا الدين ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

ومن فهم غير هذا فلم يفهم شيئاً من طبيعة الدين وطبيعة البشر.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «حكمة الخالق التي قد ندرك مراميها وقد لا ندرك، هذه الحكمة اقتضت خلقه هذا الكائن البشري باستعداد للخير وللشر وللهدى والضلال، ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك، وقدرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارك ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص».

قال الشيخ محمد طه الدرة: «المعنى: أي ليس إيمانهم إليك حتى تكرهمهم عليه، أو تحرص عليه، إنما إيمان المؤمن، وإضلال الكافر بمشيئة الله وقضائه وقدره».

وقال في صفوة البيان: «ولو شاء ربك، أي لكنه لم يشأ ذلك، لكونه مخالفاً للحكمة التي بني عليها أساس التكوين والتشريع. أ. ه».

قال الزمخشري: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ (القسر والإلجاء) لآمن من في الأرض ﴿كُلُّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه، ألا ترى إلى قوله ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ يعني إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام أن الإكراه ممكن مقدور عليه. وإنما الشأن في المكروه من هو؟ وما هو إلا وحده لا يشارك فيه لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان.. وذلك غير مستطاع للبشر. أ. ه».

وعقب عليه أحمد بن المنير في كتابه الإنصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال، فقال: قال أحد: وهذا من دسه الاعتزال مجلساً وخلط الباطل بالحق مدلساً، ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق بصيغة الكلية وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر، إذ مقتضى لو الامتناع، وكان ذلك رداً لمعتقده الفاسد إذ يزعمون أن الله شاء الإيمان من جميع أهل الأرض فلم يؤمن إلا بعضهم أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر والإجاء ليتم له أن المشيئة المرادة في الآية لم تقع. إلا أنا نوافقه على أن الله ما قسر الخلق ولا سلب اختيارهم، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً له وقصداً... إلخ.

وأقول: إن هذا القرآن نزل لنجتمع عليه لا لتفرق فيه وتحميل كلام الزمخشري ما لا يحتمل غير مقبول. وما دام ابن المنير يوافقه في النهاية فلم افتعال الاختلاف منذ البداية؟..

قال المراغي: «ولو شاء ربك أن يؤمن أهل الأرض كلهم جميعاً لآمنوا بأن يلجئهم إلى الإيمان قسراً، أو يخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة لا استعداد في فطرته لغير الإيمان. وجاء في معنى الآية قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. وخلاصة ذلك أنه لو شاء ربك ألا يخلق الإنسان مستعداً بفطرته للخير والشر والإيمان والكفر، ومرجعاً باختياره لأحد الأمور الممكنة على ما يقابله بإرادته ومشيتته لفعل ذلك، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا يوازن باختياره بين الإيمان والكفر، فيؤمن بعض ويكفر آخرون. ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي أن هذا ليس بمستطاع لك ولا من وظائف الرسالة

التي بعثت بها أنت وسائر الرسل الكرام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِخَبِيرٍ﴾ وقال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(١).

من دروس الآية ٩٩:

- ١ - لله تعالى المشيئة المطلقة.
- ٢ - طلاقة المشيئة شيء وإكراه الناس على الإيمان أو الكفر شيء آخر.
- ٣ - أعظم أوجه كرامة الإنسان اختيار الإنسان وحرية إرادته.
- ٤ - طبيعة الدين وطبيعة البشر واحدة حرية الاختيار قوامها.
- ٥ - ليست مهمة الرسول إكراه الناس على الإيمان.
- ٦ - إذا عطل الإنسان مداركه وسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه ويستغلق عقله وينتهي إلى التكذيب والجحود.

الآية ١٠٠:

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

الربط والمناسبة: كانت الآية السابقة تتحدث عن عدم إكراه الناس على الإيمان، لا من الله الذي خلقهم، ولا من طبيعة منهجه، ولا من مهمة الرسول الذي أنزل الله عليه كتابه، وإنما الإنسان يختار إيمانه أو كفره، وهذه الآية التي نحن بصددتها تكمل الحديث، فلما تضمنت الآية السابقة حرية اختيار العبد إيماناً أو كفراً بينت آيتنا هذه أن اختياره وإرادته، أي الإنسان، إنما هي ضمن إرادة الله،

(١) تفسير المراغي، ج ١١، ص ١٥٨.

وليس له الاختيار المستقل عن إرادة الله، أو المنفلت من إرادة الله، أو الذي انتزعها رغماً عن إرادة الله، تعالى الله، فالآيتان نسق متكامل.

وهذه الآية ١٤ كلمة و٥٣ حرفاً وترتيبها ١٤٦٤.

المعنى: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله: للبشر إرادة شاء الله أن يعطيها للبشر، لكن أيها الناس لا تظنوا أنكم حصلتم هذه الإرادة كرهاً وقسراً عن نوايس الكون وعن إرادة الله، تعالى الله، بل هو شاء أن يجعل لكم إرادة، ولو شاء لجعلكم كالحجارة والجمادات بلا إرادة ولفعل ما شاء، ولو شاء لجعلكم كالملائكة مهتدين بالخلق والطبيعة لفعل، ولكنه شاء أن يجعلكم على هذه الشاكلة وصيغة «ما كان» كما نردد كثيراً من أقوى صيغ النفي، فما نافية داخلية على الماضي لتفيد قدم هذا النفي ورسوخه وتجذره.

لنفس: واللام متعلقة بكان ونكر نفساً لتفيد العموم.

والإذن: هنا إذن تكوين وتقدير.

ويجعل الرجز على الذين لا يعقلون: الآية قسمان، وهذا هو قسمها الثاني، والقسم الأول ٢٧ حرفاً والثاني ٢٦ فهما متناظران في عدد الأحرف متكاملان في تأدية المعنى. فالقسم الأول الملح إلى من آمن وأن إيمانه بإذن الله فهو صاحب المشيئة المطلقة ولم ينتزع أحد منه مشيئة لنفسه انتزاعاً معاذ الله وإنما منحها الله ابتداء فمن آمن إنما آمن بإذن الله.

وأما القسم الثاني فتأمل كيف عبر عنه النص الكريم:

ويجعل: الواو تصح عاطفة وتصح استثنائية.

والجعل تصيير بعد الإيجاد، والمراد هنا تحويل شيء أو وضع إلى وضع آخر

مخالف.

الرجس: الدنس، لأن من عطل عقله دنس حياته، وانخط بذاته عن مرتبة الكرامة. والرجس: حقيقته الخبث والفساد، وأطلق هنا على الكفر لأنه خبث نفساني.

على الذين لا يعقلون: على الذين عطلوا عقولهم ولم يستعملوها وكان الذين اهتمدوا هم الذين استعملوا عقولهم وإن لم ينص القرآن لكن بالاحتباك نعلم ما حذف من هنالك وما ذكر هنا وفي المقابل ما حذف من هنا أيضاً.. أي أنهم كفروا بالمشيئة أيضاً أعني أنهم لم يخرجوا عن إحاطة المشيئة بكل شيء، فلو شاء الله ما مكنتهم من هذا الكفر ومنعهم منه لكنه شاء أن يعطيهم حرية أساءوا استخدامها هم فظلموا أنفسهم. و«على» للاستعلاء المجازي المستعمل في التمكين.

قال في صفوة البيان: «وما كان لنفس: أي وما كان لنفس علم الله تعالى أنها لا تؤمن، أن تؤمن في حال من الأحوال، كسلامة العقل وصحة البدن وغيرهما، إلا في حال ملابتها إرادة الله أن تؤمن، وإرادته تابعة لعلمه به، وعلمه به محال، لتعلقه بنقيضه وهو عدم الإيمان، فيلزم انقلاب العلم جهلاً، فتكون إرادته ذلك محالاً، فيكون إيمانها محالاً، إذ الموقوف على المحال محال»، ذكره العلامة الآلوسي: «ويجعل الرجس: أي العذاب أو الكفر، أو الخذلان الذي هو سبب العذاب، وأصله (أي الرجس) الشيء المستقدر. أ. ه»^(١).

قال الزخشري: «وما كان لنفس: يعني من النفوس التي علم أنها تؤمن (بل هي مطلقة) إلا بإذن الله: أي بتسهيله وهو منح الألفاظ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون: قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا

(١) أحببت أن أثبت كلام الآلوسي لتري انعكاس ثقافة العصر والتأثر بالمنطق في الصياغة المعقدة وما كان أغنانا عن هذا..

يعقلون، وهم المصرون على الكفر، كقوله: صم بكم عمي فهم لا يعقلون. وسمي الخذلان رجساً وهو العذاب لأنه سببه. أ. هـ).

قال ابن عاشور: «فهو سبحانه خلق النفس مستعدة لقبول الحق مميزة بين الحق والباطل، والصالح والفساد. متوصلة بالنظر الصحيح إلى معرفة ما ينبغي أن يتبع وما لا ينبغي، متمكنة بإرادة من زجر الهوى والأعراض العاجلة ومن اتباع داعية الحق والعاقبة الدائمة حتى إذا وُجه إليها الإرشاد حصل فيها الهدى».

قال الشيخ محمد طه الدرة: «المعنى: لا يتدبرون ما صنع الله في هذا الكون من آيات تدل على قدرته تعالى، ولا يستعملون عقولهم بالنظر في البراهين والحجج التي نزل بها القرآن الكريم ودعاهم إلى النظر فيها».

قال السعدي: ﴿وَمَا كَأَنْتَ لِتُفْسِدَ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته ومشيئته، وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهداه. ﴿وَيَجْعَلُ الْيَقِيْنَ﴾ أي: الشر والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله أوامره ونواهيه، ولا يلقوا بالاً لنصائحه ومواعظه^(١).

من دروس الآية ١٠٠:

- ١- من آمن آمن ضمن المشيئة ومن كفر كذلك.
- ٢- من آمن استخدم قوانين الله في تحصيل الهدى وسنته الكونية والاجتماعية في المعرفة ومن كفر تنكب السنن فدهمته.
- ٣- من لم يستعمل قدرات عقله المحط بقدر نفسه ودنسها.

(١) تفسير السعدي، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

- ٤- المؤمن استخدم قدرات عقله وطاقته الروحية وفطرته فتزكى بكل ذلك وفق القانون والناموس الإلهي.
- ٥- من كفر عطل الطاقات كلها وأغلق النوافذ فانطبق عليه الناموس فيمن عطل الملكات أنه ﴿خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾.
- ٦- الرجس أبشع الدنس الروحي.

الآية ١٠١:

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

الربط والمناسبة: بينت الآية السابقة أن للهدى نواويس، وأن للضلال كذلك قوانين، فمن أخذ بقوانين الهدى اهتدى ومن أخذ بأسباب الضلال ضل، وكله ضمن مشيئة الله وأقداره وقوانينه.

أما هذه الآية فجاءت متصلة بالآية السابقة من حيث إنها تبين سنن الهدى من آيات الكون وهو الكتاب المنظور بالإضافة إلى آيات القرآن وهو الكتاب المسموع، فتكاملت الآيات واتسقت، وهذه الآية مفتحة بقل ومن هنا إلى آخر السورة فإن (٣) آيات ستفتح بقل لكن قل ستمر (٤) مرات وهذا نسق آخر.

وهذه الآية ١٤ كلمة و٥٨ حرفاً وترتيبها ١٤٦٥.

المعنى: قل انظروا: قل: الأمر تكرر بالقول في هذه السورة والمأمور من نزل عليه القرآن ﷺ أن يقول لأمة الدعوة وهي قومه أولاً ثم من بلغ الأمر إليه ثانياً: ﴿أَنْظَرُوا﴾ وما أعظم هذا الدين القائم على الاقتناع القائم على النظر، والنظر يعني

نظر العين بآلات النظر وأدواته إن استطعنا، وإلا فهي أي العين أعظم الأدوات ثم من بعد العين عين البصيرة والعقل والقلب والفؤاد.. فالعين الباصرة أو المبصرة ترفع ما رأت إلى ملك القرار ومالك القرار في هذه الكينونة والمملكة الإنسانية، ثم يتخذ القرار، ولو نظر البشر بلا أهواء متحكمة ولا أحكام مسبقة متحكمة لاهتدوا جميعاً، والغرب ينظرون فعندهم علماء صيادو المجرات وصيادو المذنبات وصيادو الكويكبات والأقمار والثقوب السوداء، ومنهم من يدرس الشمس بالذات، ومنهم من يتخصص بدراسة المريخ، ومنهم ومنهم..

ومنهم من يتخصص بدراسة سلوك الحيوانات، ومنهم من يتخصص بدراسة سلوك حشرة معينة، فقد قضى فريق من العلماء سنوات في دراسة سلوك «الجدجد» (ابن عم الجندب).

ومنهم في النفس بأطيافها وتخصصاتها ومنهم في الباراسيكولوجي ومنهم في الطب بفروعه ومنهم من تخصص بأدق الأشياء في الجسم ليس العين مثلاً وإنما الشبكية أو عصب البصر أو.. ومع هذا تجد فيهم ملحدين بنسبة لافتة!

فكيف من عاش مع الآيات الكونية والآيات الأفاقية وآيات الله في الأنفس البشرية وغيرها.. كيف به يكفر؟ أوليست كل ورقة شجر مصنعةً معقداً، وله هويته الخاصة ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

ماذا: بمعنى ما الذي و«ما» استفهام و«ذا» أصله اسم إشارة وهو واقع بعد «ما» قام مقام اسم موصول.

أوليست كل خلية في الجسم مواطناً كامل المواطنة، برقم وطني مجاوز مرور ببصمة خاصة بشيفرة خاصة يتحرك بها؟ وكيف تحمل نقطة أقل من واحد على ألف من رأس دبوس خواص الوالدين الوراثية من شكل العيون وحجم العظام

ولون البشرة والخصائص الجسمية وحتى الأمراض الوراثية.. فكيف برمجت هذه (النانو) بكل هذه المعلومات ومن برمجها؟

ويلك أيها الإنسان الذي يتحدى الحقائق ويلوي عنها ويلويها! ويلك إذ تنفصم عن ذاتك وهي في الأعماق مؤمنة وأنت ترغمها على عكس ما فطرت عليه، ويلك كيف تعاند العقل وهو يبور بالأدلة الدالة على التوحيد وعلى الله وعلى حكمته وتدبيره وتقديره ولطفه!

ولماذا اللي ولماذا المعاندة! ولماذا العالم كله يحرس من يلحد ويقاوم من آمن؟ لماذا الإلحاد تُسن له القوانين لحمايته وتعهده ورعايته وتُسن القوانين لكبح الإيمان والمؤمنين؟!

لو كان هذا الدين العظيم معطلاً للعقل معارضاً مناقضاً له فكيف يأمر بتفعيل قنواته وأدواته وأهمها النظر؟

لو كان هذا الدين إرغاماً وإكراهاً وجبراً وقسراً وأطراً فلماذا يأمر بالنظر بهذه الكثافة؟ (ورد النظر بالصيغ الفعلية ١٠٠ مرة بالتمام سوى الصيغ الاسمية كالناظرين ونظرة وناظرة إلخ..) ^(١).

أفهدنا دين - كما زعموا - يطلق عليه بأنه يعطل العقل أو يجمده أو يلغيه: أم هو دين جعل العقل مناط التكليف، وجعل العقل أداة الهدى وجعل السمع والأبصار والأفتدة روافد هذا العقل وقال لنا إنا مسؤولون عن هذه الحواس وحسن استخدامها ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

(١) لم نرجع إلى الجذر: رأى، وبصر، وشهد، وأدرك، وأحس، وشعر، واطلع وغير ذلك مما يؤدي هذا المعنى.

وبعد الأمر بالنظر فما المأمور الناس بالنظر إليه؟ إنه كل ما في السماوات والأرض فكل شيء فيهما آية، تقول الآية: ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وماذا تشمل الموجود وتفسيره وتعليقه وحكمته وغاياته واستخداماته ووظيفته في الكون، ووظيفته في التوازن البيئي والكوني.

وإذا كان البشر أحصوا ملايين الأصناف المنقرضة وفي الكون ملايين لم تكتشف بعد، فما هذه الأرض التي هي في الكون أقل من هباءة؟

وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون: والآية مقطعان فما مضى منها مقطع، وهذا الآخر، وهما متقاربان في الكلمات والحروف. وبدأ المقطع الأول بالأمر ﴿قُلْ﴾ وبدأ هذا بالاستفهام ﴿وَمَا﴾. ويمكن أن نعهدها ما نافية. وأرى أن الاستفهام أبلغ لأننا يمكن أن نضمه معنى الإنكار والتفي مع ما فيه من تحريك للعقل بالسؤال.

وما تغني الآيات والنذر: وهذا المقطع يمكن أن نقسمه أيضاً إلى مقطعين متساويين في عدد الكلمات ما مضى هو الأول منهما، ومعناه: ما الذي تفيدته وتغنيه الآيات المبثوثة في الكون والنذر المبثوثة في الكتاب، وما الجدوى إن كانت القلوب في أكنة والتقليد والسير ضمن القطيع المعصوب الأعين هو السائد؟

عن قوم لا يؤمنون: وقد استخدمت (أغنى عن) مراراً في القرآن، من مثل ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ و﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَمْعُونَ﴾^(١).

(١) وردت هذه الصيغة أغنى ١٠ مرات في القرآن، وصيغة (أغنى عن) ٨ من ١٠، فتأمل. هذا سوى (تغني عن) فقد وردت ٦ مرات.

وصيغة تغني تعني: تدفع عنك وتحمي وتغنيك عن الاحتياج والغنى من هذا الباب والاستغناء خير من الغنى، والاستغناء فلسفة، بمعنى نظرة للحياة، ورسول الله عليه الصلوات أغنى الناس لأنه أغناهم عن الأشياء بمعنى الاستغناء، وحياتنا افتقار إلى الأشياء وعوز واحتياج وتمن واستهلاك في الأشياء، أي أنا مستهلكون في الحاجة إلى الاستهلاك، لقد أفسدت الحضارة الغربية الرأسمالية الاستهلاكية وسيادتها على الأرض أفسدت الإنسان والأرض وطاقاتها واستنفدت مخزونها ولوثت بيئتها وأخلت بموازين العدل فيها وصدق في الحضارة الغربية قول الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] ^(١).

عن قوم لا يؤمنون: أي إذا كانوا قد اتخذوا قرارهم بعدم الإيمان، وأصروا واستكبروا استكباراً، وكفروا وعالتوا بالمعاصي والفواحش والكبائر جهاراً نهراً.. ﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا﴾ ومن مكرهم تشجيع الكفر ليرتب عليه مسلسل الفساد وتحكمهم في البلاد والتلاد والعباد.

لكن، ليعلم هؤلاء أن للكون إلهاً قديراً مقتدراً، فمن لم يأت إلى الطريق المستقيم بالنظر.. إذا فلينتظر!

المعنى: «أي لا تنفع الآيات ولا تجدي قوماً سبق في علم الله الأزلي أنهم لا يؤمنون بالله، حيث قدر الله عليهم الشقاء الأبدي في نار الجحيم ولو تركهم وشأنهم لما اختاروا غير الكفر المؤدي إلى النار». (نقلاً عن الدرة).

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «وظيفة العقيدة الصحيحة ليست هي إنشاء الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه فهذا مركوز في الفطرة، ولكن وظيفته هي

(١) هذه الآية من سورة الروم [٤١] وهذا معلوم، والحضارة الغربية هي فيما أرى الروم الجدد الذين طغوا طغيان أجدادهم الروم القدماء وجعلوا الأرض مركزاً وأطرافاً كاسلافهم، ونهبوا وقتلوا واستاثروا وتوحشوا وتمتعوا بالعنف ومنظر الدماء كالروم الأوائل.

تصحيح تصور الإنسان لإلهه وتعريفه بالإله الحق الذي لا إله غيره. تعريفه بحقيقته وصفاته لا تعريفه بوجوده وإثباته، فالكائن الذي لا تستشعر فطرته ولا تحس إيقاع النواميس الإلهية فيها هي ذاتها كائن معطلة فيه أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية ومن ثم لا يكون هناك سبيل إلى قلبه وعقله بالجدل.

قال الزمخشري: «ماذا في السماوات والأرض: من الآيات والعبر، وما تنفي الآيات والنذر: والرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون. (قوله يتوقع ليس مناسباً) وما: نافية واستفهامية. أ. هـ.»

قال الخطيب: «جاء هذا الدين داعياً إلى توجيه العقل إلى النظر في ملكوت السموات والأرض، وقراءة ما سطرته يد القدرة على هذا الوجود من آيات ناطقة، تحدث عن الخالق العظيم، وتسبح بحمده، في ولاء، وانقياد وخشوع! وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لما قررته الآيات السابقة، من أنه لا تؤمن نفس إلا بإذن الله. وأن النظر في ملكوت السماوات والأرض، وإن كان مطلوباً من كل عاقل أن ينظر في هذا الملكوت، وأن يطيل النظر فيه دارساً متفحصاً، باحثاً عن دلائل وجود الله، وما له في هذا الملكوت من إبداع، وما له عليه من سلطان هذا النظر لن يصل بصاحبه إلى الإيمان، ولن يفتح قلبه له، إلا إذا كان هذا الناظر ممن أراد الله لهم أن يكونوا مؤمنين. أما الذين قدر الله عليهم ألا يؤمنوا، فلن يؤمنوا، أبداً، ولو نطقت أمامهم الآيات، وأسمعتهم ما أودع الخالق فيها من بديع صنعته، ورائع حكمته وقدرته. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].^(١)

(١) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج ٦، ص ١٠٩١.

من دروس الآية ١٠١:

١- الإسلام دين عظيم تقوم دعوته على الإقناع والافتناع القائم على النظر بالبصر والفكر.

٢- مع وضوح حقيقة أن الإسلام يحترم العقل ويكرمه ويعلي من شأنه بل إنه جعل التفكير فريضة، كما قال العقاد، فإن بعض من يدعون أنهم من دعائه يصرون على عدم تفعيل العقل ووفرة استخدامه، وأخطأوا فوالله لا يأتي العقل إلا بخير، وهم يخلطون بين العقل والفكر وبين الهوى الذي يسير العقل ويفلسف الكفر والتمرد على الدين.

٣- النظر هو البديل الآمن للتوصل إلى الحق ومن عطل النظر سيؤمن لكن كما كررت السورة ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فالكل سيؤمن فريق يحترم عقله سيؤمن بالنظر وفريق حكم أهواءه وانتظر النذر فأمن كفرعون بعد رؤية آيات العذاب وحلول النذر ولا يقبل عندها إيمان.

٤- كثرة الآيات وقلة المعتبرين تثير حسرة المشفقين على الناس.

٥- آن للدعاة أن يفعلوا الخطاب العقلي، ولا يعني هذا تعطيل الوعظ وخطاب الروح والوجدان بل فلتستعمل كما قال صاحب التصوير: «المنطق الوجداني».

٦- إن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون حين تفتح وتستيقظ وتسمع منه الكثير.

الآية ١٠٢:

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢)

الربط والمناسبة: أمرت الآية السابقة بالنظر للوصول إلى الحق والهدى والإيمان، فمن لم يعتبر بالنظر ولم يستفك بالفكر ولم يعتبر فليستظر أن يفيق بقارعة وأن يستيقظ بنازلة وأن يتبه بكارثة.

وقد أودع الله في الكفر أسباب خرابه وفساده واضمحلاله وفق قوانينه في الكون ونواميسه في الوجود وسنته في النفس والمجتمعات. فقال في محكم تنزيله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

وما الحرب العالمية الأولى والثانية؟ هل أمر بها الله؟ أم إن الكفر والطغيان هو من تسبب بها؟

وحروب أمريكا في جنوب شرق آسيا، الله أمر بها أم طغيان أمريكا وغطرسة قوتها هو من أمر بها؟

لقد أودع الله سنناً في الوجود لا تحيد ولا تميل ولا تقبل التحويل ولا التبديل فمن تنكب طريق الحق سيدفع ثمناً غالياً، ولئن انتهى عذاب الاستئصال فقد استمر ما دونه، من عذاب الاقتال والتدمير الشامل والتخريب الشامل والتجريف الشامل للحياة والأحياء..

ولماذا الانتظار؟

إنه السنن وطريقة عملها، فالله لطيف رحيم صبور يعطي مهلة قبل أن يعاقب فهي هي أمريكا مثلاً دخلت في طور شيخوخة الإمبراطوريات وبدأت صغار الدول تمرد عليها بعد أن كانت الدول العظمى تهابها.

إنه القانون، فلتنتظر إمبراطوريات الشر الجديدة ما جرى للقديمة من تدهور أوضاع ثم تفكك وانحسار قوة وانشمار ظل.. ثم الهوان والذل بإذن الله، وكل ذلك وفق القانون والسنة التي مضت في الأولين.. فلينتظروا. وهل ينتظرون إلا الخراب والدمار؟ وختمت السابقة باستفهام وبه بدئت هذه، فالنظر أو الانتظار هذا نسق الآيتين.. باختصار.

وهذه الآية ١٥ كلمة و٦٤ حرفاً وترتيبها ١٤٦٦.

المعنى: فهل ينتظرون: الفاء تفرع على ما مضى، وهل للاستفهام، ومعنى الاستفهام تقرير، وهو استفهام مرتبط بأداة الاستثناء «إلا» فيفيد الحصر والقصر.

ينتظرون: الانتظار ترقب وتوقع شيء، يكون أحياناً خيراً ويكون أحياناً شراً، والسياق هنا تهديد فهو انتظار شر طالما أنهم عطلوا الاعتبار، فمن أين يأتي الخير؟ من قاوم فطرة الله وحارب دين الله فأنى ينتظر خيراً؟

وقد يقال ها إن أمريكا حكمت العالم فأين القانون؟ وهل تظن أن هذا لم يجب عنه القرآن؟ ألم يكلمنا عن عاد ﴿إِرمَ ذاتَ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ وعن ثمود ﴿الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ﴾، وكلمنا عن فرعون ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾، ثم شملهم جميعاً بقوله: ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وهذه أمريكا هل تسير صعوداً أم هبوطاً؟

واضح لكل ذي عينين أنها في هبوط، وهم يقولون هذا.

فهل ينتظرون إلا مثل أيام الدين خلوا من قبلهم:

إلا مثل أيام: أي أياماً مثل أيام الذين سبقوهم ومضوا من قبلهم وغبروا واندثروا وبادوا بعد أن سادوا.

وفي القرآن مواضع كثيرة مثل هذا، توضح هذه المسألة ففي ختام غافر ﴿وَرِيكُمۡ ءَايٰتِهٖۤ. فَاَيۡ ءَايٰتِ اللّٰهِ تُنكِرُوۡنَ ۝٨١﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمۡ بِالْبَيِّنَاتِ قَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمۡ مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَّا بِاللّٰهِ وَحَدُّهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكۡ يَنفَعُهُمْ يُعْذِرُهُمۡ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللّٰهُ الَّذِيۥ قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨١-٨٥].

وفي تالية سورة غافر: سورة فصلت نقرأ هذه الآيات في المعنى نفسه: ﴿فَإِنۡ أَعْرَضُوا فَقُلۡ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ۝١٣﴾ إِذۡ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنۡ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنۡ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّٰهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمۡ بِهِۦ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِيۥ خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمۡ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسُورَاتٍ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾ [فصلت: ١٣-١٨].

والآيات كثيرة في سور عديدة وهذان اللذان ذكرا آنفاً قليل من هذا الكثير نكتفي بهما.

فهذه عينة من أيام الذين خلوا من قبلهم، فهل هم محصنون من العذاب؟ وهل السنة التي طالت المتقدمين لا تطال المتأخرين؟ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنۡ أُولَٰئِكُمْ﴾ هل عندكم تأمين شامل ضد العذاب، وممانعة نوازل تمنع عنكم أن تحل بكم الكوارث الطبيعية

والصناعة البشرية من حروب أو أوبئة يتسبب فيها البشر أو تغيير مناخ يقلب موازين الطبيعة حولهم فهم يحذرون من غرق نيويورك ولندن ومدن السواحل عموماً.. وأما التلوث فحدث ولا حرج حتى أصبح الناس في الصين لا يسرون إلا بكمامات.. والكلام يطول. وأطلقت الأيام على ما يقع فيها من الأحداث العظيمة: ومن هذا إطلاق (أيام العرب) على الوقائع الواقعة فيها.

فانتظروا إني معكم من المنتظرين:

وقد ورد هذا النص في القرآن ٣ مرات في الأعراف مرة وفي يونس وحدها مرتين هذه ثانيتهما وآخرتهما.

وورد منتظرون ٣ مرات أيضاً في الأنعام وهود وختم السجدة ففي الأنعام:

﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وفي هود: ﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢٢]،

وختم السجدة: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

أنتم تنتظرون عذابكم ونحن نتظره ونتظر نجاتنا بفضل الله، فكل متربص وكل منتظر، أنتم ترتبصون بنا الدوائر لتهلكونا ونحن نرتبص أن يهلك الله الباطل بالتدمير الذاتي، والنقض من الداخل بالتناقض والاحتراب والتفكك والصراعات الإثنية والمذهبية.. وقد عانت وعاشت أوروبا من هذه الحروب الكثير، وما حرب البروتستانت والكاثوليك في إيرلندا إلا شاهد بسيط وحروب إسبانيا والصرب والكروات.. والشواهد والأمثلة تفوق الحصر، وإما أن يسلط الله عليهم أوبئة كايولا والإيدز، وإما بالزلازل والعواصف والأعاصير التي تضرب كل سنة وتكون خسائرها عشرات المليارات والإعصار الذي ضرب لويزيانا قريب عهد، والتسونامي في جنوب شرق آسيا واليابان كذلك عهدها قريب.. وانفجار مفاعل تشيرنوبل في روسيا قبل عشرات السنين وما زالت آثاره حتى الآن.. بعد أن تفككت روسيا، وانفجاره قبل التفكك، ويطول الأمر لو جئنا نستقصي فميليشيات

العنف في أمريكا شيء منها لقتل السود وقسم منها لقتل الملونين عموماً وقسم منها لتدمير الحضارة ذاتها، ومن هؤلاء من فجر المبنى الحكومي في أوكلاهوما وذهب ضحيته المئات.. ومن هؤلاء في اليابان من يتبنى أن القيامة يمكن أن تقترب بكثرة حوادث القتل فقام منهم من فجر قطار الأنفاق وبث الغاز السام ليقتلوا أكبر عدد لتقوم القيامة ويقترب أوانها، والجنون فنون.. وألوانه أهونها جنون البقر.

قال الزمخشري: «أيام الذين خلوا من قبلهم: وقائع الله فيهم كما يقال أيام العرب لوقائعها أ. ه».

قال الشعراوي: «وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظنون في طغيانهم يعمهون، وكأنهم يتظنون أن تتكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا، لقد جاءهم الرسول ببيان ككل المكذّبين السابقين... وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها، فهل هم يتظنون أياماً مثل هذه؟ بالطبع ما كان يصحّ لهم أن يستمرّثوا الكفر، حتى لا تتكرر معهم مأساة كالتّي حدثت لمن سبقهم إلى الكفر»^(١).

من دروس الآية ١٠٢:

١- الله في الكون سنن من تنكبها نكب ومن سار وفقها سلم وارتقى ونهض وغلب.

٢- الباطل نهايته حتمية وزهوقه مقطوع به وعمره أقصر مما يتخيل أصحابه ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

٣- عجباً للإنسان يهمل طريق النظر ويدمن الانتظار المدمر!

٤- الزمن جزء من العلاج والكل منتظر ما تحبته الأيام.

(١) تفسير الشعراوي، ج ١٠، ص ٦٢٤١ - ٦٢٤٣.

٥- الكلمة التي كتبها الله على نفسه أن تبقى البذرة المؤمنة وتنبت وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر وبعد كل تكذيب وكل تعذيب ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية ١٠٣:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

الربط والمناسبة: بينت الآية السابقة مصير المكذبين المعرضين المتظنين حلول العذاب، وأنهم لا ينتظرون إلا مصيراً شبيهاً بمصير الذين خلوا من قبلهم وأياماً مثل أيامهم، فما شأن المؤمنين من الرسل وأتباعهم؟ إنه النجاة والإنقاذ وورثة الأرض، وهذا ناموس مطرد لا يتخلف.

وهذه الآية ١٠ كلمات و ٤٦ حرفاً وترتيبها ١٤٦٧.

المعنى: ثم ننجي: ثم: للتراخي الزمني والأقرب أنها للتراخي الربطي إذ الزمن واحد، زمن أخذ المكذبين المعذبين ونجاة المؤمنين، فالأرجح أنها للتراخي الربطي كما أسلفنا.

رسلنا والذين آمنوا: النجاة للرسل فهم رحمة الله بالعباد فأحر بها أن تخصهم عناية الله ورحمة الله بالنجاة، وأما الذين آمنوا فهم على نهج الرسل فستهم ستهم لأنهم على ستهم!

كذلك: حيثما وجدت كذلك فاعلم أن ثم سنة في النص الذي تقرأ إن لم يكن هذا كلياً فهو غالباً ما يكون كذلك.

﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ جملة معترضة لأن المصدر بدل من الفعل أي حق علينا ذلك حقاً، وجعله الله حقاً عليه تحقيقاً للتفضل به والكرامة حتى صار كالحق عليه^(١).

حقاً علينا: هذا الناموس جعلته حقاً علي لم يلزمني به أحد، ولكنه تفضل لإلهي، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وكما قال في سورة الروم: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والآيات في هذا المعنى موجودة: ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ﴿وَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٩]، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

ننج المؤمنين: لاحظ نسق الآية فثاني كلماتها من أولها قوله تعالى: ﴿تُنَجِّي﴾ مشددة، وثاني كلماتها من آخرها ﴿تُنَجِّ﴾ بدون تشديد، فعندما تكلم عن الحوادث حوادث النجاة عبر بالمشدد، وعندما تكلم عن القانون وقد استقر في الوجدان والعقل والقلب عبر بلا تشديد بل بالفعل المخفف ننج.

المؤمنين: المصدقين بكلمات الله، والذين اتخذوا الإيمان منهج حياة وليس عبادة فقط، ولا انتساباً فحسب. ومن أسف أن الإيمان انحسر مفهومه وضاق مصطلحه حتى غدا دعوى أو مجرد انتساب أو شارات وشعارات، أو بعض الممارسات كالعمرات وإحياء المناسبات.. وما يغني هذا على فضله عن أن يكون الإيمان منهجاً

وخطة للحياة وقانوناً ومرجعاً وإطاراً ناظماً وهوية جامعة ودستوراً مفصلاً وحياة كاملة ونظام أخلاق ونظاماً اجتماعياً وقضائياً وتعليمياً وإدارياً... إلخ.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

«ثم ننجي رسلنا: معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية».

قال الشيخ محمد علي الدرة: «أي بعد إهلاك الأمم المكذبة لرسولها ننجي الرسل وأتباعهم المؤمنين، وتلك سنتنا إذا أنزلنا عذاباً أنجينا الرسل والمؤمنين، أي كما أنجينا رسلنا السابقين وأتباعهم ننجيك يا محمد والذين آمنوا معك وصدقوك من العذاب والهلاك».

حق على العظيم جل وعز أن ينجي وينصر من تحقق فيهم الإيمان، فهل تحقق فينا لنجني النصر المبين؟! قال سيد طنطاوي: «سنة من سنته التي لا تتخلف ولا تتبدل... والجملة الكريمة عطف على محذوف، والتقدير: تلك سنتنا في خلقنا نهلك الأمم المكذبة ثم تُنَجَّى رُسُلُنَا الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وننجي أيضاً الذين آمنوا برسولنا وصدقوهم... مثل ذلك الإنجاء الذي تكفلنا به لرسولنا ولمن آمن بهم، ننج المؤمنين بك أيها الرسول الكريم، ونعذب المصرين على تكذيبك، وهذا وعد أخذناه على ذاتنا فضلاً منا وكرماً...»

وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حضت الضالين على الاقتداء بقوم يونس عليه السلام لكي ينجوا من العذاب، وذكرتهم بنفاذ إرادة الله وقدرته، ودعتهم إلى

التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وأخبرتهم بأن سنة الله ماضية في إنجاء المؤمنين، وفي إهلاك المكذبين.

وبعد هذا الحديث المتنوع الذي زخرت به سورة يونس - عليه السلام - عن وحدانية الله وقدرته، وعن صدق الرسول ﷺ، وعن النفس الإنسانية وأحوالها، وعن يوم القيامة وأحوالها... بعد كل ذلك وجهت في ختامها نداءين إلى الناس أمرتهم فيهما بإخلاص العبادة لله تعالى وبالاعتماد عليه وحده، وبتزكية نفوسهم^(١).

من دروس الآية ١٠٣:

١- من سنة الله في الحياة والأقوام والمجتمعات نجاة الرسل ومن نهجوا نهجهم وكانوا على سبيلهم من المؤمنين.

٢- انحصار مفهوم الإيمان حصره في العبادات والشعائر والشكليات والمظاهر والأصل أن الإيمان إطار يشمل حركة الحياة كلها.

٣- نتعلم من الآية كيفية استخراج السنن وأحد أهم مؤشرات وجود السنن والقوانين كلمة ﴿كَذَلِكَ﴾.

٤- ألزم الله تعالى نفسه بأشياء وأوجب على نفسه أشياء تفضلاً لم يوجبها عليه أحد، ولذلك نرفض مصطلح المعتزلة القائل «يجب على الله فعل الأحسن»! فهذا قلة تأدب مع الله.

(١) سيد طنطاوي، الوسيط، ج ٧، ص ١٣٨.

الآية ١٠٤:

﴿قُلْ يَكَايَئُهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤)

الربط والمناسبة: بعد الأمر بالنظر أو الانتظار وبيان قانون الله في نجاة أهل الإيمان، تأتي هذه الآية تنادي الناس عموماً إن كانوا في شك من هذا الدين فإن المؤمنين على ثقة ويقين ولن يعبد إلا الله الذي بيده الآجال والوفاء.. فكان هذه الآية وما تلاها إعلان مفاصلة حاسمة بين الإيمان والكفر.

وهذه الآية ٢٦ كلمة و ٩٩ حرفاً وترتيبها ١٤٦٨.

المعنى: قل: أمر يتكرر للرسول المبلغ بأن يقول.

يا أيها الناس: ناد الناس كل الناس مؤمنهم وكافرهم فليستبهوا، وليسمعوا منك ما ستقول:

إن كنتم في شك من ديني: إن كنتم مرتابين متشككين في ديني الذي أعتر به وأنتمسب وأنتمي إليه، فإني سأوضح لكم موقعي فيما يلي من كلمات:

فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله: فإني لا أعبد ما تعبدون من آلهة من دون الله، فتوضح أنه ما من إنسان إلا وهو عابد، وما من إنسان إلا وهو على دين، والفرق أنني على الدين الحق والعبادة الحق، وما سواها هو الباطل، وهذا ليس تعصباً ولا غروراً بل هذا حكم الله، لا الذي فهمته من تلقاء ذاتي ولكنه نص كلام ربي.

ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم: ولكني أعبد الله الذي بيده حياتكم وموتكم وهو لا سواه الذي يتوفاكم حين يحين حينكم وتنتهي آجالكم.

وأمرت أن أكون من المؤمنين: هي مفاصلة إذاً، وبيان حاسم قاطع.

وقد ختمت هذه الكلمات وهذا البلاغ بقوله يبلغ عن ربه: وأمرت أمراً لا أملك فيه دفعاً ولا تصرفاً، وأنا مؤتمر بهذا الأمر محب له ولست مرغماً كارهاً، أن أكون من ضمن الفريق المؤمن والأمة المؤمنة بل الكون المستسلم لأمر الله، المؤمن بربه وبما أمر أن يؤمن به.. وأنا واحد من هؤلاء المؤمنين المصدقين بما دل عليه العقل ونطق به الوحي.

قال الزمخشري: «قل يا أيها الناس: يا أهل مكة (أقول: بل هو عام بالتأكيد). إن كنتم في شك من ديني: وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم: وإنما وصفه بالتوفي ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى فيعبد دون ما لا يقدر على شيء، وأمرت أن أكون من المؤمنين: يعني أن الله أمرني بذلك بما ركب في من العقل وبما أوحى إلي في كتابه. أ. هـ. بإيجاز».

قال ابن عاشور: «الشك في الدين هو الشك في كونه حقاً، وكونه من عند الله، وإنما يكون هذا الشك عند عدم تصور حقيقة هذا الدين بالكنه وعدم الاستدلال عليه، فالشك في صدقه يستلزم الشك في ماهيته لأنهم لو أدركوا كنهه لما شكوا في حقيقته».

قال حجازي: «قل يا محمد للناس جميعاً قولاً مجملاً مختصراً تبين فيه الخطوط الرئيسة لرسالتك العامة الشاملة، إن كنتم في شك قليل من ديني ورسالي فاعلموا أني لا أعبد الذين تعبدونهم من دون الله أبداً، كالأحجار، والأصنام، والأوثان، والبشر هؤلاء جميعاً لا ينفعون ولا يضررون أنفسهم فكيف يتصور منهم نفع أو ضرر لغيرهم؟ ولكني أعبد الله وحده لا أشرك به شيئاً سبحانه وتعالى الذي يتوفاكم إليه، وإليه مرجعكم وجزاؤكم، وعنده حسابكم الدقيق الذي أحصى كل شيء عدداً،

وأمرت أن أكون من المؤمنين الناجين من عذاب يوم القيامة، وهذا الوصف بالإيمان يجمع جميع شعبه ونواحيه^(١).

من دروس الآية ١٠٤:

١- لا بد من لحظة يعلن فيها الداعي إلى الله حسم موقفه من الذين لا يريدون أن يذعنوا للحق.

٢- كل الناس عابدون ولكن قليل من يعبد العبادة الحققة للإله الذي يستحق العبادة، فبعض يعبد الشيطان وبعض مصالحه وبعضهم يعبد شهواته، كما قال الله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...﴾.

٣- الإله الحق هو الذي يملك الحياة والموت وما سواه أوهام.

٤- الإيمان أعظم المنن وأعظم عطاء إلهي، وأن تكون من المؤمنين هذا شرف لم يحصله كل أحد بل لا يحصله إلا الأفذاذ.

٥- الإيمان الحق والحركة به يغيران وجه الحياة إن وجد أصحابهما.

الآية ١٠٥:

﴿وَأَنْ أَعْرِضَ عَنْهُمْ وَلِلَّذِينَ خَنِيفُوا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)

الربط والمناسبة: الربط في هذه الآية أوضح من أن يحتاج إلى إيضاح فقد أمرت الآية السابقة سيد النبيين أن يفاضل المشككين وأن يقول لهم إنني لا أعبد ما تعبدون من آلهة باطلة وأعبد الإله الحق وأمرت أن أكون من المؤمنين وأكملت هذه

(١) حجازي، التفسير الواضح، ج ٢، ص ٩٣.

الآية الأمر له ﷻ فقالت: ﴿وَأَن أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ بينما كانت تلك تقول: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنِّي﴾ فالأمر متسق مترابط معتلق ببعضه ببعض.

وهذه الآية ٩ كلمات و٣٨ حرفاً وترتيبها ١٤٦٩.

المعنى: وأن: عطف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ...﴾ كأنه قال مكرراً وأمرت أن أقيم وجهي.

أقم وجهك للدين حنيفاً: الآية قسمان أمر ونهي وهما متقاربان في عدد الكلمات وعدد الحروف والقسم الأول أمر والثاني نهى.

وإقامة الوجه أمر تكرر في القرآن، وهذه أول المرات. ثم في الروم مرتين ﴿فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، ﴿فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣].

وورد في الأعراف: ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

وإقامة الوجه كناية عن إقامة الكينونة كلها والذات مجتمعة بكل ما فيها من الطاقات والقدرات والإمكانات.

كقوله ﴿أَسَلْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وورد ﴿أَسَلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في كل من سورة البقرة ١١٢ والنساء ١٢٥.

قال في صفوة البيان: ﴿وَأَن أَقْرَ وَجْهَكَ﴾: وأوحى إلي أن أقم وجهك على دين الإسلام، مقبلاً بوجهك عليه غير ملتفت إلى سواه. حنيفاً: مائلاً إليه.

قال ابن عاشور: «الإقامة: جعل الشيء قائماً، وهي هنا مستعارة لإفراد الوجه بالتوجه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر، واللام: للعلة: أي لأجل

الدين، فيصير المعنى: مَحْضُ وجهك للدين لا تجعل لغير الدين شريكاً في توجيهك، وهذه التمثيلية كناية عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها.

ولا تكونن من المشركين: تكررت هذه الصيغة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ في هذه السورة فقد جاء في أول الآية ٩٥ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وقبلها في ختام الآية ٩٤ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ولا ناهية، ومعلوم أنه بالقطع لن يكون من المشركين لكن ليعلم الخلق جميعاً أنه لا أحد فوق الأمر والنهي فكل الخلق عباد مأمورون وهذا شرف لهم جميعاً، وسيد الخلق لن يستنكف وحاشاه. وليعلم الناس أنه إن كان سيد الخلق مأموراً بهذا فكيف بقية الخلق: والنون المشددة في تكونن مسبوقة بالنهي لتأكيد هذا النهي وأنه لا مجال فيه لتساهل أو استثناء أو استرخاء. قال الزمخشري: «أقم وجهك: استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً. حنيفاً: حال من الدين أو من الوجه». أ. هـ. بإيجاز.

قال الزحيلي بعبارته ناقلاً عن أبي حيان: «ويلاحظ أنه تدرج من نفي عبادة غير الله لأن الإزالة في كل شيء بقصد إصلاحه مقدمة على الإثبات، والتخلي مقدم على التحلي، ثم انتقل إلى إثبات عبادة الله، ليبين أنه يجب ترك عبادة غير الله أولاً، ثم يجب الاشتغال بعبادة الله، ثم انتقل إلى ذكر الإيمان والمعرفة بعد العبادة التي هي عمل جسدي، ليدل على وجوب تطابق العمل مع الاعتقاد، فإنه لا جدوى لعمل ما لم ينبع من اعتقاد صحيح يتجلى فيه نور الإيمان والمعرفة. وفي هذا

التدرج من نفي عبادة الأصنام إلى إثبات من يعبدوه وهو الذي يتوفاكم، وفي ذكر هذا الوصف الدال على التوفي دلالة على البدء وهو الخلق وعلى الإعادة»^(١).

وقال مكي: ﴿وَأَنَّ أَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: وأمرت: ﴿وَأَنَّ أَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: أقم نفسك على دين الإسلام. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مستقيماً، غير معوج. وأمرت نفسي ألا أكون من المشركين، (ولا أدعو من دون الله ما لا ينفعني ولا يضرني، كما فعلتم أيها المشركون. فإن فعلت أنا ذلك، فإني من الظالمين لنفسي)»^(٢).

من دروس الآية ١٠٥:

- ١- الوجه أشرف ما في الإنسان وإقامة أشرف ما في الكينونة كناية عن إقامة كلها لله ودينه وأمره ونهيه.
- ٢- الدين القيم هو ما يستحق الناس أن يقيموا حياتهم عليه وكل المناهج الأخرى شقوة للناس وتعاسة وتمزيق وضيق.
- ٣- لا أحد فوق المساءلة ولا فوق الأمر والنهي.
- ٤- الأمر والنهي للرسول أمر ونهي لأمره بالأولى لأنهم مظنة التقصير لا هو

ﷺ

- ٥- قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أبلغ في الانصاف من نحو لا تكن مشركاً لما فيه من التبرؤ من الطائفة ذات نحلة الشرك.

(١) الزحيلي، المنير، ج ١١، ص ٢٨١.

(٢) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية، المحقق: (مجموعة رسائل جامعية بإشراف البوشيخي)، ج ٥، ص ٣٣٣٤ وما بعدها.

الآية ١٠٦:

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٦)

الربط والمناسبة: ختمت الآية السابقة بالنهي ولا تكونن من المشركين وافتتحت هذه بالنهي الذي يؤكد ما سبق: ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك.. فالآيتان نسق ظاهر باهر.

وهذه الآية ١٦ كلمة و٥٤ حرفاً وترتيبها ١٤٧٠.

المعنى: ولا تدع من دون الله: الواو عطف نهى على نهى، لا ولا ناهية والفعل تدع مجزوم بها وعلامته حذف حرف العلة.

وذكرت الآية هنا الدعاء ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بعد أن ذكرت العبادة ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ﴾ والدعاء من العبادة فهو خاص بعد عام.

من دون الله: من سوى الله تعالى.

ما لا ينفعك ولا يضرك: وقدم النفع على الضر وهذا هو الطبيعي فالدعاء لا يكون إلا لجلب نفع وهو الأهم أو لدفع ضر وهو التالي في الأهمية، فهما مرتبان طبيعياً.

فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين: هذا القسم من الآية مترتب على القسم الأول وهو ما سبق من الآية، وكلمة «إذا» تنوين عوض يشير إلى ما سبق، أي إن فعلت الذي ذكر، والنص ظاهر واضح والمقصود الأمة من خلال الحديث مع الحبيب ليفهم الناس أنه طالما سيد الناس يقال له هذا فما شأن سائر الناس؟ إن

الشرك ظلم، وأن من دعا من سوى الله مشرك معدود في عداد الظالمين مسلوب في سلوكهم منتظم في دائرتهم.

قال الزمخشري: «فإن فعلت: معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرک فكنى عنه بالفعل إيجازاً، فإنك إذاً من الظالمين: إذاً: جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان، وجعل من الظالمين لأنه لا ظلم أظلم من الشرك: إن الشرك لظلم عظيم».

قال ابن عاشور: «وتفريع «فإن فعلت» على النهي للإشارة إلى أنه لا معذرة لمن يأتي ما نهى عنه بعد أن أكد نهيه وبينت علة، فمن فعله فقد ظلم نفسه واعتدى على حق ربه.

وأني بـ«إذاً» للإشارة إلى سؤال مقدر كأن سائلاً سأل: فإن فعلت فماذا يكون؟؟».

قال محمد علي الدرة: «ولا تعبد من دون الله شيئاً، ما لا ينفعك: إن عبدته ودعوته، ولا يضرک: إن عصيته وتركت عبادته، فإن فعلت: أي ما نهيتك عنه فعبدت غيري فإنك إذاً من الظالمين أي لنفسك لأنك وضعت العبادة في غير موضعها».

من دروس الآية ١٠٦:

- ١- الدعاء من العبادة بل الدعاء عبادة بل الدعاء مخ العبادة.
- ٢- كما لا تكون العبادة إلا لله لا يكون الدعاء إلا لله لأن الدعاء عبادة.
- ٣- الدعاء إنما يكون لطلب نفع أو لدفع ضرر ولا يقدر عليهما إلا الله، فكيف ندعو من سواه؟

- ٤- الرسول عبد يخاطب من ربه خطاب العبد لكنه العبد المكرم والمحبوب، المقدم عند الله.
- ٥- الخطاب للأمة من خلال الرسول لتفهم الأمة أنه طالما الحبيب يقال له هذا فما الشأن في حقنا..؟
- ٦- ميزان الله لا يجابي وعدله لا يميل.

الآية ١٠٧:

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

الربط والمناسبة: هذه الآية متصلة بسابقتها على نحو ظاهر لا يحتاج معه إلى استجلاء وجه الربط والاتساق.

فقد تكلمت الآية السابقة عن أنه لا يدفع الضر ولا يجلب النفع إلا الله فلا تدع إلا من يملك هذا ولا تدع من لا يملكه.

وجاءت آيتنا هذه تؤكد على هذا المعنى فتقول إنه إن أمسك الله بضر لا يكشفه إلا هو وكذا إن أراك بخير فلا يرده أحد.. فالاتصال واضح والاتساق ظاهر ناصع.

وقال الزمخشري في الربط: «أتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر، أن الله هو الضار النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أراك بخير لم

يردُّ أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان، فهو الحقيق إذاً بأن يتوجه إليه بالعبادة دونها».

وهذه الآية ٢٤ كلمة و ٨٥ حرفاً وترتيبها ١٤٧١.

المعنى: ورد نظير لهذه الآية وهي رقم ١٠٧ في سورة الأنعام آية رقم ١٧ وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وإن يمسسك الله بضر: الواو للاستئناف وهو الأظهر وتصح للعطف، عطف موضوع على موضوع، وهما قريب أو شيء واحد أعني المعطوف والمعطوف عليه، وإن شرطية، يمسسك فعل الشرط مجزوم. وعبر بالمس الذي هو أقل ما يصيب الإنسان.. وعبر بلفظ الجلالة لأنه هنا الأنسب مع ذكر المس بالضر، والضر كل مكروه يصيب الإنسان في بدنه على الأخص وعموم أحواله وأمواله وغير ذلك.

فلا كاشف له إلا هو: الفاء واقعة في جواب الشرط ولا نافية للجنس والنفي مع أداة الاستثناء «إلا» يفيد الحصر والقصر.

والكشف رفع الضر ودفعه وإبعاده وصرفه.

وإن يردك بخير: واو للعطف وإن للشرط ويردك فعل الشرط مجزوم وأراد النص أن يعبر بيردك بدل يمسسك ليس للتنوع فحسب ولكن لما هو أهم وهو أنه في جانب الخير عبر بالإرادة تليقاً بالعباد ورحمة. والإرادة بالخير: تقديره والقصد إليه وعبر بالإرادة مبالغة في سلب المقدرة عن من يريد معارضة مراده تعالى كائناً من كان.

فلا راد لفضله: الفاء واقعة في جواب الشرط ولا نافية للجنس كسابقتهما، وراد اسمها منصوب والخبر محذوف تقديره موجود أو نحو ذلك. لفضله: اللام متعلقة باسم الفاعل راد، والفضل الزيادة والتفضل وأضاف الفضل إلى ضميره تعالى لتعظيمه.

قال البيضاوي: «ولعله ذكر الإرادة مع الخير، والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات، وأن الضر مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه».

يصيب به من يشاء: هذه تفصيل بعد التعميد، يصيب الله بهذا الفضل من يشاء الله تعالى أن يوصله لعباده. وهي واقعة موقع البيان لما قبلها والموصلة له، فلذلك فصلت عنها.

وهو الغفور الرحيم: الواو للعطف، وهو ضمير الشأن في محل رفع مبتدأ الغفور خبره والرحيم صفته، والغفور من يغفر الذنب أي يستره. وصيغة فاعول تدل على قوة المغفرة وأما رحيم فهو من يرحم عباده ويسعهم بهذه الرحمة^(١).

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن مسك الله بضر عن طريق جريان سته فلن يكشفه عنك إنسان، إنما يكشف باتباع سته وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة، وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سته فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه».

قال الزمخشري: «فإن قلت: لم ذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني؟ قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير وأنه لا راد لما يريده منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة في أحدهما والإرادة في الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِوَيْءٍ مِّنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أ. هـ باختصار.

(١) وصيغة رحيم تفيد سعة الرحمة.

قال ابن عاشور: «ولولا غفرانه لما كانوا أهلاً لإصابة الخير، لأنهم مع تفاوتهم في الكمال لا يخلون من قصور عن الفضل الخالد الذي هو الكمال عند الله، ويشير أيضاً إلى أن الله قد تجاوز عن كثير من سيئات عباده المسرفين ولم يؤاخذهم إلا بما لا يرضى عنه بحال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾».

قال القرطبي: «﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ﴾ أي يصبك به. ﴿فَلَا كَاشَفَ﴾ أي لا دافع ﴿لَهُ إِلَّا مَوْتٌ وَإِنْ يُرْزَقْ خَيْرٌ﴾ أي يصيبك برخاء ونعمة. ﴿فَلَا رَأَى لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ﴾ أي بكل ما أراد من الخير والشر. ﴿مَنْ يَشَأْ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخطاياهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه في الآخرة»^(١).

من دروس الآية ١٠٧:

- ١- لا يجلب النفع إلا الله ولا يدفع الضر إلا الله.
- ٢- إن أراد الله أن يمس الضر عبداً من عباده فمن يدفعه إلا الله؟
- ٣- إذا أراد الله أن يسوق الخير والفضل والإحسان لعبده من عباده من يرده بعد إرادة الله؟
- ٤- الله هو الغفور الرحيم يغفر لعباده ويرحمهم إن قصرُوا وأخطأوا.
- ٥- الضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه، والخير كذلك.
- ٦- لله المشيئة الطليقة يسوق الفضل لمن يشاء من عباده.

(١) القرطبي، جامع الأحكام، ج ٨، ص ٣٨٨.

الآية ١٠٨:

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝١٠٨﴾

الربط والمناسبة: مر في السياق الكريم قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ في الآية ١٠٤ وما هو يعود من جديد خلال ٤ آيات فقط، بالصيغة نفسها ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وحضور النداء بعد هذا الفاصل القصير لأهمية الموضوع.

وفي آخر السورة تستحضر كلمة ﴿ الْحَقُّ ﴾ وسورة يونس هي سورة «الحق» بامتياز، فلا بدانيها في هذا الأمر سورة أخرى.

وتكرر الهدى بمشتقاته في السورة مرات ومرات كذلك تكرر الإيمان، فالآن يستحضر هذا المعنى في خواتيم السورة: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ ﴾.

وورد نداء الناس مرات في هذه السورة ففي الآية ٢٣ في ثنائياها ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾.

وورد قل كثيراً في السورة فحسن استحضارها في الآية بل افتتاح الآية قبل الختام بها كما افتتح عدد من الآيات.

وخطاب الرسول ﷺ أو صدور الكلام منه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾.

فقد كان حاضراً طيلة السورة وبخاصة في خواتيمها ففي أولها الأمر ﴿ أَنْ أَنْذِرِ

النَّاسَ وَبَيِّنْ لِلَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ وأما الخواتيم فإننا كنا بصدد عدد من الآيات قبل آيتنا

هذه كلها توجه الخطاب للرسول عليه الصلوات فحسن مخاطبته في الآيتين الختاميتين.

فالآية نسق مع جو السورة ومع ما قبلها مباشرة.

وهذه الآية ٢٢ كلمة و٨٦ حرفاً وترتيبها ١٤٧٢.

المعنى: قل يا أيها الناس: أمر لسيد المأمورين أن يقول. وافتتاحها بـ ﴿قُلْ﴾ للتنبيه على أنه تبليغ عن الله تعالى فهو جدير بالتلقي.

يا أيها الناس: نداء إلى الناس كلهم بدءاً بأُم القرى ثم العرب ثم العالم أجمع.

قد جاءكم الحق: قد: للتحقيق ودخوله على الماضي أي هذا الحرف يزيده قوة وتأكيذاً. وأكد الخبر بحرف ﴿قَدْ﴾ تسجيلاً عليهم بأن ما فيه الحق قد أبلغ إليهم وتحقيقاً لكونه حقاً.

جاءكم: وصلكم والجيء يفيد القرب.. فالانتقال إذاً من قريب لأن الحق قريب.

والحق: الصدق والواقع والثابت والدائم ونقيض الباطل. وهو الدين الذي جاء به القرآن.

من ربكم: من عند ربكم الذي يربيكم ويعلمكم ويزكيكم ويرزقكم وهو الذي ينزل على الرسول هذا الكتاب الحق الذي جاءكم به لتبنوا حياتكم على الحق والعدل لا على الباطل والجور.

فمن اهتدى: أي بهذا الحق وإلى هذا الحق، ووفق لتبنيه منهجاً لحياته. والفاء في «فمن» تفريعية ومن موصول يتضمن الشرط واهتدى فعله.

فلئما يهتدي لنفسه: الفاء واقعة في جواب الشرط، وإن وما الكافة لها عن عملها أداة حصر وقصر بذاتها (أي إنما).

يهتدي لنفسه: فلنفسه نفع هذا الهدى في الدنيا والآخرة، وصحيح أن خيره سيعم بيئته ومجتمعه بل الإنسانية كالشجرة الطيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولكن المتنفع الأول إنما هو شخص المهتدي. واللام في ﴿لِنَفْسِهِ﴾ دالة على أن الاهتداء نعمة وغنى.

ومن ضل فلئما يفضل عليها: وفي المقابل والصورة الأخرى فإن من تنكب الحق نكب وعلى نفسه جنى، ومن ضل عن طريق الحق فهو يتحمل تبعه هذا الضلال ويرتكس بما ضل في الدنيا والآخرة.

وصحيح أن شر الضال والضلال يتعداه إلى البيئة والمجتمع وربما جملة الإنسانية، لكن المتضرر الأول هو نفسه، ولذا فلاني أرى أن القصر في الحالتين إضافي.. وإن قلنا إن قصره حقيقي على مستوى الذات بقطع النظر عن تعديه إلى سواء فهو صحيح وحقيق أن يقر.

والضمير في عليها واضح عوده إلى النفس ولم يكرر لقرب العهد والاختصار والإيجاز روح لغة العرب، ونهج تاج العربية: القرآن.

وما أنا عليكم بوكيل: من جملة ما أمر الرسول بتبليغه وقوله كما في أول الآية ﴿قُلْ﴾ هذا الختام الجامع الحق والمشرّب رائحة التحذير والتهديد أي أنني أترككم لربكم يحكم هو فيكم بحكمه سبحانه، فلست وكيلاً موكلاً بكم، ولا وجه للقياس أو التناسب بين أن يكون العبد هو المتوكل وبين أن يكون الرب هو المتوكل ومن يحاسب ويجازي.

وما: نافية بمعنى لست، وأنا اسمها وعليكم قدم على الخبر بوكيل للاهتمام والباء لمزيد توكيد، ويقولون عنها في النحو مزيدة وليس في كتاب الله زيادة ولا مزيد ولكنها مصطلحات النحاة رحمهم الله، للكلام مطلقاً لا لكلام الله المطلق البلاغة والفصاحة والوجازة بلا مزيد.

قال في صفوة البيان: «بوكيل: أي أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا بشير ونذير. أ. هـ».

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «يقف النبي ﷺ في وجه القوة والكثرة، ووجه الرواسب الجاهلية ووجه التاريخ الموغل بالمشركين في الشرك يعلنها في قوة وصراحة وهو في عدد قليل من المؤمنين في مكة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾».

قال ابن عاشور: «إذا كان اهتداء المهتدي لنفسه وضلال الضال على نفسه تحقق أن النبي ﷺ غير مأمور من الله بأكثر من التبليغ وأنه لا نفع لنفسه في اهتدائهم ولا يضره ضلالهم، فلا يحسبوا حرصه لنفع نفسه أو دفع ضرر عنها حتى يشترطوا وأنه ناصح لهم ومبلغ».

قال الزمخشري: «قد جاءكم الحق: فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختياره إلا نفسه، ومن أثر الضلال فما ضر إلا نفسه، واللام وعلى دلا على معنى النفع والضرر، وكل الأمر إليهم بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إثارة الهدى وإطراح الضلال مع ذلك».

وما أنا عليكم بوكيل: بحفيظ موكل إلي أمركم وعملكم على ما أريد، إنما أنا بشير ونذير. أ. هـ».

قال سيد قطب: «فهو الإعلان الأخير، والكلمة الفاصلة، والمفاصلة الكاملة، ولكل أن يختار لنفسه. فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم... وليس الرسول موكلاً

بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً، إنما هو مبلغ، وهم موكلون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية^(١).

من دروس الآية ١٠٨:

١- هذا الدين حق مطلق وليس هذا الوصف لغيره من مناهج البشر، سماوية سابقة كانت أم وضعية فلسفية كانت.

٢- الرسول عليه الصلوات مبلغ لهذا الدين وكتابه المين ولكن كل كلمة منه وفيه، أي الدين هي من عند الله، وليس الرسول بوكيل على الخلق محاسبهم أو يحكم عليهم.

٣- من اهتدى فإنما هدها لنفسه أولاً وبالذات ومن ضل فكذلك.

٤- هذا الدين يجب أن يبلغ إلى الناس، ولقد قصرنا عن إيصاله للمسلمين فكيف بقية الناس؟

٥- نؤكد دائماً على حقيقة أن الدين إقتناع وحوار للوصول إلى الحق ولم يكن يوماً إرغاماً وإكراهاً ولا عن طريق الإخضاع.

الآية ١٠٩:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْضَعُ لَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاضِعِينَ﴾ (١٠٩)

الربط والمناسبة: نبدأ بالربط بالآية السابقة وهذا ظاهر فالآية السابقة ابتدأت بالأمر ﴿قُلْ﴾ وهذه ابتدأت بالأمر ﴿وَاتَّبِعْ﴾، وفي السابقة قيل له أن يبلغ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وفي هذه بين أن الله هو ﴿يَخْضَعُ﴾ وليس الرسول فتاكيد لما سبق.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٨٢٦.

ونالنا قال في السابقة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ﴾ وفي هذه الآية ذكر هذا الحق بصيغة ما يوحى إليك ﴿فالايتان نسق واحد متنسق ظاهر الاتساق.

والآن نربط أول السورة بآخرها فيما نسميه عطف البدء على الختام، فقد قال في أول السورة ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ وفي ختام السورة قال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ فذكر الناس الذين ذكروا في أول السورة وقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فذكر الوحي الذي ذكر أول السورة.

وفي أول السورة قال عن المؤمنين: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ...﴾.

وفي آية الختام قال: ﴿جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ وقال: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾. وهذه الآية ١١ كلمة و ٤٤ حرفاً وترتيبها ١٤٧٣^(١).

المعنى: واتبع ما يوحى إليك: الأمر للرسول عليه الصلوات أن يتبع ما يوحى إليه من ربه، وهو متبع والداعي للناس للاتباع، والأمر له لتأكيد مقام العبودية. من ربك: تأكيد آخر لهذا المعنى فالرسول متلق لهذا الوحي من ربه وليس هو من عند نفسه.

واصبر: أمر آخر للرسول عليه الصلوات أن يصبر فطالما أن هذا المنهج يقوم على الإقناع لا على الإكراه والإخضاع، فإن من البشر المستفيدين من الأوضاع لن

(١) وبين كلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ في ختام السورة وبينها وبين آخر كلمة في السورة ٢٥ كلمة وأن كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ في أول السورة هي الكلمة رقم ٢٥ من أول السورة! هذه لطيفة زائدة على ما قيل في المتن في أعلى الصفحة.

يقتنعوا لا عن نقص الأدلة، وإنما لغلبة الهوى والمصلحة وهؤلاء سيناصبون المؤمنين والداعين العداة والأذى ويحرضون عليهم ويحرضون الغوغاء، وهذا يقتضي الصبر. حتى يحكم الله: ليس الصبر بلا حدود وبلا نهاية وأن الباطل سيظل معربداً إلى آخر الزمان، بل ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فللصبر حدود وهي ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾.

ويحكم يقضي ويفصل، وعبر بلفظ الجلالة لتربية المهابة كما يقول علماؤنا.

وهو خير الحاكمين: هو سبحانه يقضي ويحكم، وكم من القضاة يحكم ويقضي وشتان.. فمولانا هو خير الحاكمين. وهو أحكم الحاكمين وأعد لهم سبحانه وأرى أن خير ليست للمقارنة وليست على الباب والقاعدة فلا مقارنة، ولو قلنا إنها للمفاضلة والمقارنة صح وليس بمستنكر. لأنه جلت حكمته وعلت كلمته لا يحكم إلا بالحق، ولا يمكن الخطأ في حكمه لأنه مطلع على السرائر والظواهر.

قال الزخشري: «واصبر: على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم، حتى يحكم الله: لك بالنصرة عليهم والغلبة. أ. هـ. بإيجاز».

قال ابن عاشور: «وهو خير الحاكمين: وهي هنا كناية عن معاقبة الظالم، لأن الأمر بالصبر مشعر بأن المأمور به معتدى عليه، ففي الإخبار بأن الله خير الحاكمين إيماء بأن الله ناصر رسوله ﷺ والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا، وهذا كلام جامع فيه براعة المقطع».

قال الألويسي: «وَأَتَّبِعْ فِي جَمِيعِ شُؤْنِكَ مِنَ الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ وَالتَّبْلِيغِ مَا يُوحَى إِلَيْكَ عَلَى نَهْجِ التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَالتَّعْبِيرِ عَنْ بُلُوغِ الْحَقِّ الْمَفْسَرِ بِالْقُرْآنِ إِلَيْهِمْ بِالْجَمْعِ وَإِلَيْهِ ﷺ بِالْوَحْيِ تَنْبِيهِ عَلَى مَا بَيْنَ الْمَرْتَبَتَيْنِ مِنَ التَّنَافِي، وَإِذَا أُرِيدَ مِنَ الْحَقِّ مَا قَبِيلٌ فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ جَدًّا وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَعْتَرِكُ مِنْ مَشَاقِّ التَّبْلِيغِ وَأَذَى مِنْ ضَلِّ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بِالنَّصْرَةِ عَلَيْهِ أَوْ بِالْأَمْرِ بِالْقِتَالِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ إِذْ لَا يُمْكِنُ

الخطأ في حكمه تعالى لاطلاع على السرائر كاطلاعه على الظواهر، وغيره جلّ شأنه من الحاكمين إنما يطلع على الظواهر فيقع الخطأ في حكمه، ولا يخفى ما في هذه الآيات من الموعظة الحسنة، وتسليّة النبي ﷺ، ووعد المؤمنين، والوعيد للكافرين^(١).

من دروس الآية ١٠٩:

- ١- الرسول الكريم على الله عبد يأمره مولاه بما يشاء.
- ٢- الرسول الذي يأمر الناس بالاتباع لمنهج الله يأمره ربه بالاتباع.
- ٣- الصبر لازم من لوازم الدين والحياة والدعوة.
- ٤- المعتنون سيوقعون المؤمنين في العنت ولذا كان الصبر لازماً.
- ٥- للصبر حدود لأن الباطل لن يدوم على مر العهود، بل هو زاهق وماض فاصبر أيها المؤمن حتى يقضي الله بحكمه.
- ٦- الله خير الحاكمين سواء كانت للمقارنة أو لغير المقارنة فهو خير الحاكمين مطلقاً.

(١) الألويسي، روح المعاني، ج ٦، ص ١٨٨.

المصادر والمراجع

الرقم	المؤلف	الكتاب	دار النشر	العام
١	الآلوسي	روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني	دار الكتب العلمية	١٤١٥هـ
٢	الأبياري	الموسوعة القرآنية	مؤسسة سجل العرب	١٤٠٥هـ
٣	البقاعي	نظم الدرر في تناسب الآيات والسور	دار الكتاب الإسلامي	-
٤	البغوي	معالم التنزيل في تفسير القرآن	دار إحياء التراث العربي	١٤٢٠هـ
٥	البيضاوي	أنوار التنزيل وأسرار التأويل	دار إحياء التراث العربي	١٤١٨هـ
٦	الثعالبي	الجواهر الحسان في تفسير القرآن	دار إحياء التراث العربي	١٤١٨هـ
٧	الثعالبي	الكشف والبيان عن تفسير القرآن	دار إحياء التراث العربي	١٤٢٢هـ
٨	الجاوي	مراح لبيد لكشف	دار الكتب العلمية	١٤١٧هـ

معنى القرآن المجيد			
٩	ابن جزى	التسهيل لعلوم التنزيل	دار الأرقم بن أبي الأرقم ١٤١٦هـ
١٠	ابن الجوزى	زاد المسير في علم التفسير	دار الكتاب العربى ١٤٢٢هـ
١١	الحجازى	التفسير الواضح	دار الجليل الجديد ١٤١٣هـ
١٢	حقى	روح البيان	دار الفكر -
١٣	أبو حيان	البحر المحيط في التفسير	دار الفكر ١٤٢٠هـ
١٤	الخازن	لباب التأويل في معاني التنزيل	دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ
١٥	الخطيب	التفسير القرآنى للقرآن	دار الفكر العربى -
١٦	دروزة	التفسير الحديث [حسب ترتيب النزول]	دار إحياء الكتب العلمية ١٣٨٣هـ
١٧	الرازى	مفاتيح الغيب	دار إحياء التراث العربى ١٤٢٠هـ
١٨	رضا	تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)	الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م

- ١٩ الزحيلي التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج دار الفكر المعاصر ١٤١٨ هـ
- ٢٠ أبو زهرة زهرة التفاسير دار الفكر العربي -
- ٢١ السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان مؤسسة الرسالة ١٤٢٠ هـ
- ٢٢ أبو السعود إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم دار إحياء التراث العربي -
- ٢٣ السمرقندي بحر العلوم - -
- ٢٤ السمعاني تفسير القرآن دار الوطن ١٤١٨ هـ
- ٢٥ السمين الحلبي الدر المصون في علوم الكتاب المكنون دار القلم -
- ٢٦ سيد طنطاوي التفسير الوسيط للقرآن الكريم دار نهضة مصر ١٩٩٨ م
- ٢٧ سيد قطب في ظلال القرآن دار الشروق ١٤١٢ هـ
- ٢٨ الشعراوي تفسير الشعراوي - مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧ م
- الخواطر

٢٩	الشنقيطي	أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	دار الفكر	١٤١٥هـ
٣٠	الشوكاني	فتح القدير	دار ابن كثير	١٤١٤هـ
٣١	الصابوني	صفوة التفاسير	دار الصابوني	١٤١٧هـ
٣٢	صافي	الجدول في إعراب القرآن الكريم	دار الرشيد - مؤسسة الإيمان	١٤١٨هـ
٣٣	الطبري	جامع البيان في تأويل القرآن	الرسالة	٢٠٠٠م
٣٤	ابن عادل	اللباب في علوم الكتاب	دار الكتب العلمية	١٤١٩هـ
٣٥	ابن عجيبة	البحر المديد في تفسير القرآن المجيد	حسن عباس زكي	١٤١٩هـ
٣٦	ابن عرفة	تفسير ابن عرفة	دار الكتب العلمية	٢٠٠٨م
٣٧	العز بن عبد السلام	تفسير القرآن (مختصر تفسير الماوردي)	دار ابن حزم	١٤١٦هـ
٣٨	ابن عطية	المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزیز	دار الكتب العلمية	١٤٢٢هـ
٣٩	الفراء	معاني القرآن	دار المصرية -	

٣٧٣	تفسير سورة يونس	
١٤١٨ هـ	دار الكتب العلمية	محاسن التأويل
١٣٨٤ هـ	دار الكتب المصرية	الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي
	الهيئة المصرية العامة للكتاب	لطفائف الإشارات
-	-	تيسير التفسير
١٤٢٠ هـ	دار طيبة	تفسير القرآن العظيم
١٤١٦ هـ	المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية	المتنخب في تفسير القرآن الكريم
-	دار الكتب العلمية	تفسير الماوردي = النكت والعيون
١٣٦٥ هـ	مطبعة مصطفى البابي الحلبي	تفسير المراغي
١٤١٢ هـ	الرشدية	تفسير المظهري
١٤٢٩ هـ	جامعة الشارقة	الهداية إلى بلوغ النهاية
١٤١٥ هـ	دار الغرب الإسلامي	إنجاز البيان عن معاني القرآن
		نجم الدين النيسابوري

- ٥١ النحاس إعراب القرآن دار الكتب العلمية ١٤٢١هـ
- ٥٢ نخبة من أساتذة التفسير التفسير الميسر مجمع الملك فهد ١٤٣٠هـ
- ٥٣ النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل دار الكلم الطيب ١٤١٩هـ
- ٥٤ النيسابوري غرائب القرآن ورجائب الفرقان دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ
- ٥٥ الواحدي الوجيز في تفسير الكتاب العزيز دار القلم ١٤١٥هـ
- ٥٦ سيد قطب في ظلال القرآن ط٥ دار إحياء التراث/بيروت ١٣٨٦هـ
- ٥٧ الطاهر بن التحرير والتنوير مؤسسة التاريخ / بيروت ١٤٢٠هـ
- ٥٨ محمد علي طه تفسير القرآن الكريم دار الحكمة/دمشق-بيروت
- ٥٩ الزمخشري الدرر الكشاف البابي الحلبي/ القاهرة ١٣٩٢هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
قصص سورة يونس والتناسق بينها	١١
السور التي ذكر فيها يونس عليه السلام	١٥
موقع سورة يونس من سور الحروف المقطعة	٢١
الآية ١	٢٣
الآية ٢	٢٧
الآية ٣	٣٢
الآية ٤	٣٧
الآية ٥	٣٩
الآية ٦	٤٤
الآية ٧	٤٧
الآية ٨	٥٠
الآية ٩	٥٢
الآية ١٠	٥٥
الآية ١١	٥٧

٦٠	الآية ١٢
٦٤	الآية ١٣
٦٨	الآية ١٤
٧٢	الآية ١٥
٧٧	الآية ١٦
٨١	الآية ١٧
٨٤	الآية ١٨
٨٨	الآية ١٩
٩١	الآية ٢٠
٩٤	الآية ٢١
٩٦	الآية ٢٢
١٠٢	الآية ٢٣
١٠٦	الآية ٢٤
١١٢	الآية ٢٥
١١٤	الآية ٢٦
١١٨	الآية ٢٧
١٢٢	الآية ٢٨
١٢٥	الآية ٢٩

٣٧٧	تفسير سورة يونس
١٢٧	الآية ٣٠
١٢٩	الآية ٣١
١٣٤	الآية ٣٢
١٣٧	الآية ٣٣
١٣٨	الآية ٣٤
١٤٣	الآية ٣٥
١٤٦	الآية ٣٦
١٤٩	الآية ٣٧
١٥٣	الآية ٣٨
١٥٦	الآية ٣٩
١٦٠	الآية ٤٠
١٦٢	الآية ٤١
١٦٤	الآية ٤٢
١٦٧	الآية ٤٣
١٦٩	الآية ٤٤
١٧١	الآية ٤٥
١٧٤	الآية ٤٦
١٧٨	الآية ٤٧

١٨١	الآية ٤٨
١٨٢	الآية ٤٩
١٨٥	الآية ٥٠
١٨٨	الآية ٥١
١٩١	الآية ٥٢
١٩٤	الآية ٥٣
١٩٧	الآية ٥٤
٢٠١	الآية ٥٥
٢٠٤	الآية ٥٦
٢٠٥	الآية ٥٧
٢٠٧	الآية ٥٨
٢١١	الآية ٥٩
٢١٣	الآية ٦٠
٢١٦	الآية ٦١
٢٢٠	الآية ٦٢
٢٢٢	الآية ٦٣
٢٢٤	الآية ٦٤
٢٢٧	الآية ٦٥

٣٧٩	تفسير سورة يونس
٢٢٩	الآية ٦٦
٢٣٢	الآية ٦٧
٢٣٦	الآية ٦٨
٢٤٠	الآية ٦٩
٢٤٢	الآية ٧٠
٢٤٤	الآية ٧١
٢٤٩	الآية ٧٢
٢٥٠	الآية ٧٣
٢٥٣	الآية ٧٤
٢٥٦	الآية ٧٥
٢٥٩	الآية ٧٦
٢٦١	الآية ٧٧
٢٦٣	الآية ٧٨
٢٦٦	الآية ٧٩
٢٦٨	الآية ٨٠
٢٦٩	الآية ٨١
٢٧٠	الآية ٨٢
٢٧٢	الآية ٨٣

٢٧٦		الآية ٨٤
٢٨١		الآية ٨٥
٢٨٣		الآية ٨٦
٢٨٥		الآية ٨٧
٢٩١		الآية ٨٨
٢٩٥		الآية ٨٩
٢٩٨		الآية ٩٠
٣٠٢		الآية ٩١
٣٠٥		الآية ٩٢
٣٠٩		الآية ٩٣
٣١٣		الآية ٩٤
٣١٦		الآية ٩٥
٣١٨		الآية ٩٦
٣٢٠		الآية ٩٧
٣٢٢		الآية ٩٨
٣٢٥		الآية ٩٩
٣٢٩		الآية ١٠٠
٣٣٣		الآية ١٠١

٣٨١	تفسير سورة يونس
٣٤٠	الآية ١٠٢
٣٤٥	الآية ١٠٣
٣٤٩	الآية ١٠٤
٣٥١	الآية ١٠٥
٣٥٥	الآية ١٠٦
٣٥٧	الآية ١٠٧
٣٦١	الآية ١٠٨
٣٦٥	الآية ١٠٩
٣٦٩	المصادر والمراجع